# السيرة النبوية

## دراسة تحليلية

**الطبعـة الأولـى**

**ذو الحجة ١٤٢٦هـ - يناير ٢٠٠٦م**

رقم الإيداع

بدار الكتب والوثائق المصريـة

١٩٤٩٧/ ٢٠٠٥

**الترقيم الدولي I.S.B.N**

**٩٧٧ – ٥٥٠٢ – ٦٧ – ٧**

الأستاذ الدكتور

**حسن علي حسن**

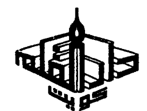
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

# السيرة النبوية

## دراسة تحليلية



بسم الله الرحمن الرحيم

# مُقَدِّمَة

هذه صفحات تتناول سيرة الحبيب المصطفي؛ إمام المتقين وقائد الغرّ المحجلين وقدوة المسلمين، وسيد الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام ولن تستطيع هذه الصفحات ولا غيرها أن تحيط بسيرة الإنسان الكامل ولا تحيط بشمائله ﷺ .

سيدي يا رسول الله، ماذا يستطيع البيان وهو كليل أن يبلغ من تقريب علاك، وماذا يخط القلم وهو قليل في تصوير سجاياك؟! ومن أين للقطرة أن تصف البحر؟! وأنَّى لذرة الرمل أن تصوّر الجبل؟! ومن أين للهباءة أن ترسم الشمس؟! إن قصارى ما يبلغه جهد القلم أن يشير في هيبة إلى مقامك الأسمى، ومكانك الأسنى ومحلك الرفيع .

وصدق الشيخ الغزالي حين قال : إن سيرة الرسول ﷺ ليست قصة تتلى في يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن؛ ولا التنويه به يكون في الصلوات المخترعة التي قد تُضَم إلى ألفاظ الآذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون ويتأوهون أو لا يتأوهون؛ فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين. وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير - في الابانه على تعلقهم بنبيهم - إلا يوم أن تركوا اللباب المليء وأعياهم حمله فاكتفوا بالمظاهر والأشكال، ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة في الإسلام فقد افتنوا في اختلاق صور أخرى، ولا عليهم لأنها لن تكلفهم جهدا ينكصون عنه؛ إن الجهد الذي يتطلب العزمات هو في الاستمساك باللباب المهجور والعودة إلى الدين ذاته .

لقد حاولت في هذه الصفحات تحليل الكثير من الأحداث، وبيان مواطن العظمة في سيرته ﷺ وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى واقتضت الدراسة تقسيمها إلى خمسة فصول :

**في الفصل الأول** : تكلمت فيه عن موقع شبه جزيرة العرب وظروفها الطبيعية والإشارة في عجالة إلى بعض الأمم السابقة؛ ثم انتقلت إلى الحديث عن مكة موطن الرسول ﷺ وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية .

**أما الفصل الثاني** : وعنوانه المولد والنشأة وفيه تكلمت عن نسبه ﷺ ونشأته وزواجه من السيدة خديجة حتى مبعثه .

**وفي الفصل الثالث** : وعنوانه البعثة الشريفة والمعارضة المكية وفيه تكلمت عن إرهاصات الدعوة ولقائه بالوحي وفترة الدعوة السرية ثم إعلان الدعوة وما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه من عنت قريش واضطهادها والمقاطعة وذهابه إلى الطائف ونشاطه ﷺ في مواسم الحج .

**أما الفصل الرابع** : وعنوانه الرسول في المدينة وفيه تكلمت عن تاريخ مدينة يثرب وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهجرته ﷺ إلى المدينة والتنظيمات التي قام بها الرسول ﷺ، ثم قسمت جهاد النبي ﷺ ضد أعداء الإسلام إلى أقسام ثلاثة :

**القسم الأول** : ويشمل النشاط العسكري ضد المشركين .

**القسم الثاني** : موقف الرسول ﷺ من اليهود والمنافقين .

**القسم الثالث**: رسائل النبي ﷺ إلى حكام الدول المحيطة بشبه الجزيرة مع نشاطه العسكري ضد الروم .

**وفي الفصل الخامس والأخير :** وفاة الرسول وبعض شمائله: وفيه تكلمت عن عام الوفود وحجة الوداع وما تضمنته خطبته من أحكام ومبادئ ثم مرضه ﷺ ووفاته ثم الإشارة إلى زوجاته ﷺ واختتمت الفصل بالإشارة إلى بعض شمائله .

وبعد ... فهذه محاولة متواضعة في تصفح سيرته ﷺ وبيان بعض أوجه العظمة والحكمة في حياته راجين بها وجه الله تعالى وحباً في رسوله الكريم ﷺ، فإن كان هناك توفيق فمن الله وحده صاحب الفضل، وإن كانت الأخرى فمن نفسي .

والله من وراء القصد،

**أ. د. حسن على حسن**



# الفصل الأول

# شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

نحاول في هذا الفصل إلقاء الضوء على شبه جزيرة العرب - وفي إحدى مدنها ولد المصطفي ﷺ وهي مكة - ومن ثم اقتضت الدراسة أن نشير إلى الموقع والنواحي الطبيعية والحياة الاقتصادية .

ثم ننتقل إلى دراسة الأوضاع السياسية لشبه الجزيرة؛ وتتضمن هذه الدراسة الحديث عن العرب وأصلهم ثم تقسيمات المؤرخين لتاريخ العرب والتي تشمل :

**العرب البائدة :** وهذا يعنى الإشارة إلى عاد وثمود اللذين ورد ذكرهما في القرآن الكريم .

**والعرب العاربة :** وتشمل دويلات اليمن والمناذرة والغساسنة .

**وأخيرا العرب المستعربة :** وهم عرب الشمال ومنها ننتقل إلى الحديث عن المجتمع المكي الذي ولد فيه النبي ﷺ وهذا يقتضى الحديث عن مكة وظروفها الاقتصادية ثم أوضاعها الاجتماعية .

## الموقع :

تقع شبه جزيرة العرب في الطرف الجنوبي الغربي من قارة آسيا، يحدّها الخليج العربي شرقا والمحيط الهندي جنوبا والبحر الأحمر من الغرب ويحدّها برزخ السويس من الشمال الغربي وشمالا بادية الشام وفلسطين.

وقد أطلق العرب على المنطقة اسم جزيرة وفي ذلك يقول "ياقوت" إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وأما المياه التي أحاطت بها فهي بحر القلزم (أي البحر الأحمر) من جهة الغرب وبحر الهند من جهة الجنوب، وبحر فارس من جهة الشرق والفرات من جهة الشمال[1] وهذه التسمية التي أطلقها العرب على شبه الجزيرة، فيها شيء من التجوّز، وقد تصّح هذه التسمية إذا اعتبرنا منطقة الشام داخلة ضمن حدود شبه الجزيرة، وهذا ما لا يرتضيه الجغرافيون المحدثون.

وموقع شبه الجزيرة إنما هو امتداد طبيعي للصحراء الكبرى التي تمتد من شمال إفريقيا وغرب آسيا، ولا يفصل هذا الموقع عن القارة الأفريقية إلا البحر الأحمر، وبالنظر إلى مساحة شبه الجزيرة فهي كبيرة إذا تبلغ حوالي مليون ومائة وعشرين ألف ميل وهي بهذا تعد من أكبر أشباه الجزائر في العالم.

## النواحي الطبيعية :

شبه الجزيرة مستطيلة الشكل وهي عبارة عن هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أي جزء منها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر، وهذه الهضبة تأخذ

---

(١) معجم البلدان حـ٢ ص ١٣٧

في الانخفاض التدريجي كلما اتجهنا إلى الشرق أو إلى الغرب؛ ويبدأ الانحدار من سلسلة جبال تعرف بجبال السراة وهي تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ويختلف الانحدار الغربي عن الشرقي في أن الغربي شديد الانحدار وبذلك يكون واديا ضيقا بين الجبال والبحر الأحمر؛ وهذا الوادي يسمى تهامة؛ أما الانحدار الشرقي فهو تدريجي حيث ينتهي بأرض الجزيرة والعراق والخليج العربي ويسمى نجد .

وأهم الجبال جبل السراة الذي ذكرناه من قبل وتتخلله بعض الوديان العميقة؛ وتختلف أسماء الجبل باختلاف المناطق، ويطلق على الجزء الذي يشرف على مكة جبل حراء، وهناك جبل شمر وهو على شكل هلال ويقع في جنوب صحراء النفود في شمال شبه الجزيرة، أما في جنوبها الشرقي فهناك الجبل الأخضر .

وقد قسّم جغرافيو العرب المنطقة إلى خمسة أقسام فيقولون : جزيرة العرب تشتمل على خمسة أقسام :( تهامة، نجد، الحجاز، عروض، يمن ) :

١- **تهامة :** وتسمى أيضا الغور، وقد أطلق عليها لفظ تهامة (بكسر التاء) من التهم وهي شدة الحر وركود الريح؛ أما تسميتها بالغور فذلك لانخفاض أرضها؛ وهي تتكون من السهل الساحلي الممتد على شاطئ البحر الأحمر؛ ويبتدئ شمالا من العقبة وينتهي جنوبا إلى اليمن، وتقع عدة مدن هامة في هذا القسم منها: الحديدة ومخا ومدينة ينبع ومدينة جدة .

٢- **نجد:** وهي أوسع أقسام شبه الجزيرة؛ وقد سميت نجدا لارتفاع أرضها، وهي تشمل المنطقة الممتدة من الحجاز إلى البحرين شرقا ومن بادية الشام شمالا إلى حدود اليمن جنوبا. وقد أشار ياقوت إلى أن العرب قسمت نجداً قسمين :

نجد السافلة وهي ما ولى العراق، ونجد العالية وهي ما ولى الحجاز وتهامة [1] وفي جنوب نجد تقع صحراء الربع الخالي وفي شمالها تقع صحراء النفود، وتشتهر نجد بمراعيها الجيدة وفيها تربى أجود الخيول العربية .

٣- **الحجاز:** وقد سمي حجازاً لأنه حجز ما بين نجد وتهامة ويتضمن الحجاز أهم مدن المنطقة إذ تقع به مكة والمدينة والطائف وتبوك، وقد اكتسب الحجاز أهمية اقتصادية باعتباره الممر التجاري بين الشام واليمن فضلا عن المراكز التجارية التي يشملها وأهمها مكة .

ويتخلل الحجاز كثبان وآكام خصبة تقيم بها القبائل كما أنّ به كثيرا من ينابيع الماء التي تقام حولها بعض المزروعات .

٤- **العروض:** وسميت عروضا لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق؛ ويشمل إقليم العروض اليمامة والبحرين وهي التي تسمى بهجر، وتمتاز بكثرة النخيل، أما الجزء الشمالي منها فيطلق عليه اسم الإحساء .

٥- **اليمن:** وسميت باليمن لأنها تقع إلى يمين الكعبة أو لأنها بلاد اليُمْن والخير والبركة، ويطلق عليها بلاد العرب السعيدة، وهي تقع في جنوب شبه الجزيرة؛ وتمتد من نجد إلى المحيط الهندي وتضم حضرموت والشحر وعمان ونجران وأهم مدن اليمن صنعاء . [2]

## مناخ بلاد العرب :

مناخ بلاد العرب حار بوجه عام وذلك لقربها من خط الاستواء؛ وتختلف الحرارة من منطقة إلى أخرى؛ فمنطقة تهامة المجاورة

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ ص ٢٦١.

(٢) محاضرات في تاريخ العرب ص ١١.

لشاطئ البحر الأحمر شديدة الحرارة مع نسبة عالية من الرطوبة لانخفاضها؛ كذلك تشتد الحرارة حين تهب رياح الجنوب .

أما الأقاليم الوسطى ومنطقة نجد فتمتاز بمناخ معتدل وصحي بسبب جفاف الجو، وبخاصة عندما يهب نسيم الشمال المنعش؛ أما اليمن فهواؤه معتدل في فصل الشتاء والخريف، ويكثر نزول المطر في فصل الربيع نتيجة لهبوب الرياح الموسمية؛ أما الصيف فتشتد فيه درجة الحرارة وينزل بعض المطر في وسط الجزيرة وفي المناطق الواقعة إلى الغرب منه في فصل الشتاء .

## الحياة الاقتصادية :

تختلف مناطق الزراعة من منطقة لأخرى في شبه الجزيرة وذلك باعتبار سقوط الأمطار ووجود الآبار التي كانت منتشرة في أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة نتيجة لتوفر المياه الباطنية الناتجة عن سقوط الأمطار؛ وتكون أحيانا قريبة من سطح الأرض بدرجة تكفي لاستخدامها في الزراعة مما تشجع على وجود تجمعات سكانية في تلك المناطق التي تسمى واحات .

وأهم الزراعات في تلك المناطق هو النخيل الذي ينتج أنواعا من التمر، ويكثر النخيل بصورة خاصة في خيبر والمدينة والبحرين واليمامة، وهناك أنواع أخرى من المزروعات ومنها البن الذي جادت زراعته في اليمن، كذلك تكثر زراعة الشعير في فدك ووادي القرى وخيبر والمدينة والبحرين؛ أما القمح فتكثر زراعته باليمن والذرة في عسير والكروم في الطائف واليمن وفي أنحاء متفرقة من البلاد توجد النباتات العطرية ومنها عود الند واللبان والصمغ العربي؛ وتعتبر شجرة التمور من أهم السلع في الحياة التجارية لبلاد العرب الجنوبية وتزرع

على المرتفعات الموازية للساحل الجنوبي .

وبجانب المناطق الزراعية توجد مساحات واسعة من المراعى التي تعيش فيها أنواع مختلفة من الحيوانات والتي تكون ثروة حيوانية للبلاد؛ ويأتي في مقدمتها الجمال والخيل والأغنام؛ ويعتبر خيل نجد من أجود أنواع الخيل، وكان له دور بارز في حياة البدو في المعارك والارتحال من مكان إلى آخر، وهناك حيوانات مفترسة عاشت في أنحاء متفرقة من الصحراء منها: الأسد والفهد والثعلب والذئب والوعل وغيرها من الحيوانات .

ولم يكن للعرب في هذا الوقت حظ كبير في الصناعة وذلك لميلهم للبداوة، وبعدهم عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها؛ وهذا يرجع إلى احتقار البدوي للصناعة واحترافها، مع ميلهم للبساطة وسكنى الصحراء؛ إلا أنه وجدت بعض أنواع من الصناعات البسيطة وخاصة في الحواضر كصناعة البناء ونسج الملابس، وكان بعض نساء العرب يشتغلن بالغزل، كذلك وجدت صناعة السلاح ودبغ الجلود وغيرها من الصناعات الضرورية لحياة الإنسان .

أما التجارة فقد احتلت ركنا بارزا في حياتهم؛ وخاصة سكان الحواضر أمثال مكة ويثرب واليمن في الجنوب، وقد اشتغل العرب بالتجارة الخارجية والداخلية :

أما التجارة الخارجية فقد نشطت العلاقات بين الشام وبلاد فارس وبين اليمن في الجنوب، وكانت التجارة تشق طريقها عبر أراضى شبه الجزيرة مارّة بالمراكز التجارية وأهمها مكة وقد أشار القرآن الكريم إلى رحلتين لقريش إحداهما إلى الشمال في زمن الصيف والأخرى لليمن في زمن الشتاء .

وقد ذكر بعض المفسرين أن قريشا كانت لها أربع رحلات : الأولى

لهاشم وكانت إلى الشام، والثانية لعبد شمس وكانت للحبشة، والثالثة لعبد المطلب وكانت لليمن، والرابعة لنوفل وكانت لبلاد فارس .

أما التجارة الداخلية فكانت تتمثل في تلك الأسواق التي كان يقيمها العرب في أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة وذلك لتبادل السلع وإنشاد الأشعار وتبادل الأخبار. وكانت أهم الصادرات الحيوانات وأصوافها والبن والتمر وأصناف البخور ؛ وأهم الواردات المنسوجات والسكر.

وقد ازدهرت التجارة في مكة، وخاصة بعد انهيار الحالة الاقتصادية باليمن نتيجة لانهيار سد مأرب مع وقوع مكة في منتصف الطريق بين اليمن والشام؛ وأصبح للقرشيين صلات تجارية واسعة مع الشام مما عاد على أهل مكة بالأموال الطائلة .

## الأوضاع السياسية :

قبل أن نتناول بالدراسة الأوضاع السياسية في شبه الجزيرة قبل الإسلام، نشير إلى بعض المصطلحات والتي تتعلق بلفظة العرب والأقوال المختلفة في أصلهم وأقسامهم :

### لفظة عرب :

في عصرنا الحاضر يطلق لفظة عرب على الشعوب المقيمة بين الفرات شرقا وحتى المحيط الأطلسي غربا؛ أما قبل الإسلام فهم سكان شبه جزيرة العرب؛ وقد ذُكر هذا الاسم لأول مرة في التاريخ في نقوش ترجع إلى زمن شلما نصر الثالث (٨٤٥ ق.م) أشار فيها إلى أحد زعماء الثوار الذي تغلّب عليهم واسمه جنديبو العريبى ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت في النقوش الأشورية؛ كما أن كلمة عرب وردت في عدد من أسفار التوراة .

ولفظة عرب في التاريخ القديم كان يرادف بدو أو بادية؛ وكان

ورودها لأول مرة بنفس هذا المدلول في النقوش الأشورية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

وقد اختلف المؤرخون في تعليل تسميتهم بالعرب؛ فابن خلدون يعلل ذلك لاتصافهم بين الأمم بالإعراب وهو البيان، وأما هيرودوت فعلل ذلك بانتسابهم إلى أبيهم يعرب بن قحطان وهو أصل العرب العاربة، وأن يعرب أطلقها على بعض أقاليم تهامة ومن ثم عممت على سكان شبه الجزيرة .

ويرى بعض الباحثين أن اللفظة مشتقة من الكلمة العبرية "أرابا" وتعنى الأرض الداكنة أو المغطاة بالكلأ، وهذا التفسير يشير إلى الحياة الاجتماعية التي كان يحياها العرب والقائمة على التنقل والسعي إلى موارد العشب، وفي نفس هذا الاتجاه يقول بعض الباحثين: أنها ذات صلة باللفظة العبرية "عابار" بمعنى التنقل والتحرك من موضع إلى آخر، وأما القرآن الكريم فقد وردت فيه صيغتا أعراب وعرب إذ أن لفظة أعراب وردت عشر مرات، كما وردت لفظة عربي إحدى عشرة مرة؛ منها عشر مرات نعتا للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف : ٣).[1]

## أصل العرب :

ينتمي العرب إلى الجنس السامي نسبة إلى سام بن نوح ولغتهم هي اللغة العربية التي تعتبر إحدى اللغات السامية؛ وتسميتهم بالسامية ترجع إلى أزمنة قديمة، فقد جاء في التوراة أنه كان لنوح بعد الطوفان ثلاثة أولاد ومنهم البشر وهم: سام وحام ويافث، وقد سكن الساميون وهم أحفاد سام في الشرق الأوسط، وانقسموا بعد تكاثرهم إلى أقسام

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ١٦.

فرعية وقبائل؛ وقد اعتمد النسابون العرب على ما جاء في التوراة وذكروا ذلك في مؤلفاتهم مع بعض الإضافات .

**وقد اختلف العلماء في موطن الساميين :**

أ- فهناك رأي يقول: أن موطنهم ما بين النهرين ومنه تفرقوا في الأرض فكان الآشوريون والبابليون في العراق، والآراميون في الشام، والفينيقيون والعبرانيون في فلسطين والعرب في شبه الجزيرة. وقد أيد المستشرق جويدى هذا الرأي حين ذكر أن اللغات البابلية والآشورية والآرامية تشترك في أغلب الكلمات الدالة على السهول والمياه والنباتات؛ وهذا يؤكد بأنها لغات تفرعت من لغة واحدة أم؛ وأن هذه الصفات تنطبق على منطقة سهلة ترويها أنهار ؛ واقتصادها يعتمد على الرعي وزراعة الغلال ولا يتوفر ذلك إلا في الأقاليم جنوبي الفرات، وبالتالي يكون مهدا للساميين وقلة من العلماء هي التي تأخذ بهذا الرأي لأنه من الراجح أن وادي الفرات لم يعمر إلا بعد جزيرة العرب بعدة قرون .

ب- واعتبر بعض المستشرقين اللغة أساسا واتخذوا من التشابه بين اللغات السامية والحامية ذريعة في جعل موطن الساميين في إفريقية؛ ونظرا لقرب الحبشة من البلاد العربية إقليما ولغة، قالوا إن مهد الساميين هو الحبشة وأنهم عبروا إلى جزيرة العرب من بوغاز باب المندب إلى اليمن منذ أزمان سحيقة، وتكاثروا هناك وانتقلوا من اليمن إلى الحجاز ونجد والبحرين؛ ثم نزحت طائفة منهم إلى فلسطين وطائفة إلى العراق .

ج- وذهبت طائفة أخرى إلى أن مهد الساميين جزيرة العرب؛ ولعل أعظم من دافع عن هذا الرأي هو المستشرق الإيطالي كتيانى الذي

يتلخص رأيه بأن أصل الساميين هو الجزيرة العربية؛ وهو يبنى اعتقاده هذا على أن الآثار القليلة المدروسة في الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات فيها .

والواقع أن الجولوجيين قرروا أن مناخ العالم في بعض العصور الجولوجية كان يختلف عما عليه الآن، ففي العصور القديمة كان مناخ الجزيرة العربية شبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة المياه مما يساعد على سكنى البشر فهو لذلك يرجح أن الساميين كانوا في الأصل يقطنون الجزيرة العربية، فلما تغير المناخ تدريجيا نقص السكان وتحولوا إلى حياة البداوة؛ وهاجر منهم عدد كبير إلى أطراف الجزيرة حيث الخصب ووفرة المياه .

وقد أيّد أصحاب هذا الرأي وجهة نظرهم بعدّة أدلة منها وجود علاقات لغوية وجغرافية ودينية تشير إلى هذه الحقيقة، كما أنه قد ثبت أن المدن التي تأسست كالبتراء وتدمر والحيرة والتي أنشئت على حدود الصحراء أسست بفضل العناصر البدوية القادمة من شبه الجزيرة، وقد أيد عدد كبير من العلماء نظرية كتيانى وعارضه البعض .

**وأما أبرز هذه الهجرات :**

١- هجرة الأكاديين : الذين استوطنوا العراق إلى سنة ٣٥٠٠ ق.م وكونوا الدولة الأكادية .

٢- هجرة العموريين : إلى العراق والكنعانيين والفينيقيين إلى سوريا حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م .

٣- هجرة الآراميين: الذين انتشروا في سوريا وفلسطين وشمال العراق سنة ١٥٠٠ ق.م .

٤- هجرة الأنباط والتدمريين حوالي سنة ٥٠٠ ق.م .

**أقسام العرب :**

اتجه كثير من المؤرخين إلى تقسيم تاريخ العرب قبل الإسلام إلى اقسام ثلاثة :

**القسم الأول :** العرب البائدة وهي التي هلكت واندثرت قبل الإسلام؛ وذلك نتيجة لبعض المؤثرات الجغرافية من رمال زاحفة وبراكين مدمرة وزلازل أتت على العمران والمدن القائمة .

**القسم الثاني :** العرب العاربة أو القحطانية أو عرب الجنوب التي سكنت اليمن والتي تنسب إلى يعرب به قحطان بن عابر من سلالة سام بن نوح .

**القسم الثالث :** العرب المستعربة أو العدنانية أو عرب الشمال وهي التي سكنت الحجاز في عصر متأخر عن سكنى القحطانية اليمن وينتسبون إلى معد بن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

والواقع أن القرآن الكريم نظر إلى العرب جميعا على أنهم أمة واحدة ولم يفرق بينهم باعتبارهم قحطانيين أو عدنانيين؛ كذلك من يتصفح الشعر الجاهلي لا يجد لهذه النزعة ظهورا واضحا، وإنما هي أبيات من قبيل التفاخر لا تمثل حياة العرب في أيامهم الأولى .

كذلك إذا تتبعنا الصدر الأول من حياة المسلمين في عهد النبي ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين لا نجد صورة واضحة لتقسيم العرب قحطانيين وعدنانيين، فلما قامت الدولة الأموية وبدأ النسابون يرددون هذه الفكرة شجعها بعض الخلفاء الأمويين وبدأت تظهر بشكل واضح في حياة الأمة الإسلامية .

وسوف نحاول في هذه الدراسة السريعة، استعراض الأقسام الثلاثة وتاريخها السياسي والديني لتكون الصورة واضحة للبيئة التي بعث فيها النبي ﷺ والمنطقة التي نزل فيها الإسلام .

## أولا: العرب البائدة :

اعتقد كثير من المؤرخين أن قسم العرب البائدة لم يكن موجودا وأن ما ورد عنه من أخبار جزء من التاريخ الأسطوري للشعب العربي وهذا غير صحيح، وعلى كل حال فإنه يهمنا في هذا المجال الإشارة إلى قدم قوم عاد وثمود حيث ورد ذكرهما في القرآن الكريم أما بقية قبائل العرب البائدة كالعمالقة وأميم وطسم وجديس وجرهم وحضرموت وغيرها من القبائل فلا يتسع المجال لتناولها بالدراسة، وهذه القبائل ينتهي نسبها إلى لاوزوارم ولدي سام بن نوح .

عاد : من الأمم الآرامية لذلك أطلق عليها عاد إرم، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في عدة مواقع، في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والقمر والحاقة والفجر، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، وموطن هذه القبيلة منطقة الأحقاف التي تقع إلى الشمال الشرقي من حضرموت في جنوب الربع الخالي، وقوم عاد عبدوا الأوثان فجاء نبيهم هود عليه السلام ليحذرهم من عذاب الله إلا أنهم لم يستجيبوا وظلوا في طغيانهم وكفرهم فأرسل الله عليهم الرياح التي دمرتهم، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ .[2]

---

(١) الأحقاف آية (٢١)

(٢) سورة الحاقة آيات ٦، ٧، ٨.

ثمود : هم قوم صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في عدة سور منها: الأعراف والحجر والنمل وفصلت والذاريات وغيرها من السور .

وكانت هذه القبيلة تسكن بالحِجْر ووادي القرى بين الحجاز والشام ولا تزال بيوتهم إلى الآن منحوتة في الجبال، وقد مر عليها رسول الله ﷺ في طريقه إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة فقال لأصحابه، لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون مخافة أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء القوم .[1]

وقد اختلف الباحثون في أصلهم، فذهب فريق إلى أنهم من نسل الهكسوس الذين طردهم أحمس الأول من مصر وأنهم سكنوا منطقة الحِجْر وأقاموا فيها بيوتهم ومقابرهم .

ويذهب فريق آخر أنهم من بقايا قوم عاد وأنهم انهزموا أمام القحطانيين في الجنوب فرحلوا إلى الشمال واستوطنوا منطقة الحِجْر.

ويتجه فريق آخر أنهم قوم من اليهود سكنوا الحجر ولم يدخلوا فلسطين .

وقد تحدث القرآن عن ثمود، وكيف أنهم كانوا يتمتعون برغد العيش ورخائه ولكنهم كفروا بأنعم الله وعبدوا الأوثان يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.[2]

---

(١) تاريخ العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٩.

(٢) الأعراف آية ٧٤.

إلا أن هذه النعم من الله قابلها أهل ثمود بالكفر وعبادة الأوثان فأرسل الله إليهم سيدنا صالح عليه السلام الذي دعاهم إلى عبادة الله، فآمن به فريق وكفر به فريق، وكانت آية صالح الناقة ولكنهم عقروها فاستحقوا العذاب، وأرسل الله عليهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى الله صالحا ومن معه من المؤمنين .

**ثانيا: العرب العاربة :**

ويعرفون أيضا بعرب الجنوب لأنهم اتخذوا جنوب بلاد العرب مقرا لهم، كما يطلق عليهم اسم العرب اليمنية وأيضا يطلق عليهم السبئية نسبة إلى أشهر دولهم سبأ؛ وهم ينتمون إلى قحطان بن شامخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام وقد انجب قحطان عددا من الأولاد منهم جرهم والسلف وحضرموت ويعرب الذي أنجب يشجب وهذا بدوره أنجب حمير.

وقد اختلف الباحثون في المكان الذي أقبل منه القحطانيون قبل أن يستقروا في بلاد اليمن :

فهناك رأي يشير إلى أنهم جاءوا من الحوض الأدنى لنهر دجلة والفرات وأنهم كانوا يتكلمون بادئ ذي بدء إحدى اللهجات الكلدانية وأنهم جاءوا عن طريق البر، ومازالوا يضربون في الصحارى حتى اغراهم خصب اليمن بالاستقرار فيه .

وهناك رأي آخر يشير إلى أن عرب الجنوب لم يجيئوا من مكان آخر وأنهم الأصل في العرب بدليل أن العرب القدماء أنفسهم كانوا يطلقون على عرب الشمال لفظ المستعربة أي الدخلاء في العروبة؛ وأن الهجرات بدات منهم في الجنوب إلى أطراف الهلال الخصيب حيث العراق والشام وفلسطين .

كذلك لا نعرف في أي وقت سكنوا أرض اليمن؛ وإن كان الراجح أنه في الألف الثاني قبل الميلاد، إذ قد تمهدت بلاد اليمن بسبب صلاحيتها للزراعة، ثم إن اليونان والرومان كانوا على حق إذ سموا هذه الأقاليم بلاد العرب السعيدة.[1]

**دول اليمن :** تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة؛ تمر بها من الشمال إلى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركا سهلا ساحليا ضيقا يقطعه عدد من الوديان المنصبة في البحر، وتسقط على هذه البلاد أمطار وافرة في الصيف تأتى بها الرياح الموسمية من شرق إفريقية؛ وهذه الأمطار ساهمت في ازدهار الزراعة مما أدى إلى استقرار الناس ونشوء الدويلات .

وقد مر التاريخ اليمنى بعدة أدوار وسوف نحاول في عجالة سريعة الإشارة إلى أبرز الدول التي قامت في بلاد اليمن:

**دولة معين: (وتبدأ من سنة ٣٠٠٠ – ١٠٠٠ ق.م )** تعتبر دولة معين من أقدم الممالك اليمنية، ولم يكتب المؤرخون العرب عنها شيئا وذلك لعدم ورودها في القرآن الكريم، أما المؤرخون اليونانيون فكانت معلوماتهم قليلة عن هذه الدولة، إلا أن جهود الباحثين والمستشرقين عثرت على كثير من أوضاع هذه الدولة .

أشارت النقوش إلى أن المدن التابعة لدولة معين تمتعت بالاستقلال الذاتي، أما إدارتها فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونهم مجلس من الشيوخ .

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٢٧.

وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة، وقد تنوعت الضرائب وتعددت، كما كان لدولة معين صلات تجارية باليونان ومصر فكانت تصدر إليهما البخور والتوابل بواسطة موانيها المتعددة، كما كانت همزة وصل لنقل بضائع الهند والصين القادمة من المحيط الهندي بواسطة القوافل البرية .

ونظرا لظروف الحياة اليومية؛ اضطر السكان إلى الكتابة لتدوين حساباتهم التجارية فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها وقرب تناولها فدونوا بها لغتهم .

**دولة سبأ: (تبدأ من سنة ٨٥٠ ق.م - ١١٥ ق.م )** قامت دولة سبأ على أنقاض دولة معين، وهي أشهر دولة من دول بلاد العرب الجنوبية، وقد أرجح المؤرخون العرب دولة سبأ إلى مؤسسها الأول عبد شمس سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد لقب عبد شمس بلقب سبأ لأنه أكثر الغزو في البلاد المجاورة وسبى خلقا كثيرا.

أما عن أصل السبئيين فقد أشار بعض الباحثين إلى أنهم كانوا في الأصل قبائل بدوية يتجولون في الشمال ثم انحدروا نحو الجنوب إلى اليمن حوالي سنة ٨٠٠ ق.م كعادة العرب في التجوال واستقروا أخيرا في اليمن وأخذوا يتوسعون فيها مستفيدين من ضعف المعينيين .

وهناك رأي آخر يقول أن السبئيين أصلهم من الأحباش نظرا للتشابه في النواحي الجسمية، وبعض المفردات اللغوية المستخدمة في اللغة السبئية ذات أصل حبشي وقد عارض هذا الرأي كثير من الباحثين .

وقد ورد ذكر مملكة سبأ في القرآن الكريم وخلاصته : أن سيدنا سليمان تفقد الطير، فلم يجد الهدهد، فلما جاء استفسر منه عن سبب تغيبه فأخبره عن مملكة سبأ وكيف أن ملكتهم تسجد هي وقومها

للشمس؛ لذا أرسل سيدنا سليمان برسالة للملكة يدعوها فيها إلى عبادة الله وحده، وهنا جمعت الملكة قومها وشاورتهم، وقررت إرسال هدية إلى سيدنا سليمان تقربا له، إلا أنه لم يقبلها واظهر أنه أغنى منها، وهدد بأن يرسل إلى بلادها جنودا لا قبل لها بهم، وأنها على أثر هذا التهديد جاءت إلى سليمان الذي شيد لها صرحا ووضع فيه عرشها، وأنها بعد ان رات ما رات قالت : ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.[1]

وفي موضع آخر في القرآن الكريم ورد ذكر سد مأرب وسيل العرم وتفرق القبائل وكثير منها اتجه إلى مدن الشمال كمكة ويثرب وغيرها من الأماكن .

تمتعت دولة سبأ بالازدهار الزراعي، وصاحبه ازدهار تجارى باعتبار أن المنطقة كانت تقع على طريق التجارة بين الشرق والغرب، فالثغور البحرية بين ثغور بلاد العرب والهند كانت عامرة، وكانت الحاصلات الهندية وخاصة التوابل وبعض أنواع الحيوانات تنقل إلى ساحل عمان ومن هناك كانت تنقل عن طريق البر، وحين تحول طريق التجارة البرى إلى البحر الأحمر مع ضعف حكام سبأ مما ترتب عليه ضعف الدولة وسقوطها.

**دولة حمير: (١١٥ ق.م - ٥٢٥م)** قامت دولة حمير على أنقاض دولة سبأ، وتختلف طبيعة دولة حمير عن طبيعة دولة سبأ في أن الأولى كانت تميل إلى الفتح والتوسع، فقد نبغ من ملوكها قادة فتحوا الممالك وحاربوا

(١) سورة النمل آية ٤٤.

الفرس والأحباش، إلا أن بعض المؤرخين ينسبون إليهم أعمالا عسكرية ضخمة فيروون أن فتوح ناشر النعم وصلت أسبانيا واوربا، وأن شمس يرعش امتدت فتوحاته فشملت العراق وإيران حتى وصل إلى تركستان وأنه بنى سمرقند وغير ذلك من المبالغات التي لا يستسيغها العقل .

وخلال حكم ملوك حمير دخلت المسيحية إلى اليمن، وكان انتشار المسيحية تدريجيا على أيدي المبشرين المسيحيين وخاصة اليعاقبة الذين جاءوا من الحبشة **وأنشأوا** لهم كنائس في عدن وظفار ونجران، وقد نجح اليعاقبة في نشر المسيحية بين كثير من اليمنيين.

**الحكم الحبشي لليمن:** قامت علاقات قديمة بين الحبشة واليمن وذلك بحكم الموقع الجغرافي حتى أن بعض القدماء يعتبرون اليمن والحبشة بلدا واحدا، أما أسباب غزو الأحباش لليمن فيعللها المؤرخون العرب بسبب اضطهاد اليهود للنصارى .

وقد أشار المؤرخون إلى أن "ذو نواس" وكان يهوديا متعصبا لليهود، ومن ثم أخذ على عاتقه اضطهاد النصارى؛ وفي عهده حدثت مذبحة الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي التي خيّر فيها ذو نواس النصارى بين اعتناق اليهودية أو القتل؛ ومن رفض منهم وضع في أخدود وأحرق بالنار ونتج عن ذلك مقتل كثير من النصارى وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حين قال : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾.[1]

وقد فر أحد النصارى مستنجدا بامبراطور الدولة البيزنطية التي

---

(١) سورة البروج آية ٤ إلى ٨.

أمدت الأحباش بالسفن والسلاح؛ ومن ثم جهزت الحبشة حملة بقيادة أرياط ويساعده في ذلك أبرهة الحبشي؛ ونجحت الحملة في غزو اليمن والقضاء على دولة حمير، ثم وقع خلاف بين القائد العام أرياط ومساعده أبرهة انتهي بمقتل أرياط وتولى أبرهة الحبشي حكم البلاد.

وفي عهد أبرهة جهزت حملة بقيادته للاستيلاء على الكعبة باعتبارها كعبة العرب ومقصد حجهم ومجمع مقدساتهم، ولكن الحملة دُمِّرت ومات أبرهة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝ ﴾ .[1]

**الدور الفارسي في اليمن:** أساء الحكام الأحباش السيرة في اليمن، وحاول أهل البلاد التخلص من الاستعمار الحبشي، لذا تجمعوا حول أمير من أمراء حمير واسمه سيف بن ذي يزن الذي سعى لإنقاذهم من نير الاحتلال الأجنبي.

اتجه سيف بن ذي يزن إلى الدولة الفارسية لتمده بالعون في سبيل طرد الأحباش من اليمن؛ وأما سبب اتجاهه للدولة الفارسية فهو ذلك العداء التقليدي بين الفرس من جهة والروم والأحباش في اليمن من جهة أخرى .

وقد وافق أنو شروان ملك الفرس على نجدته وأنفذ حملة بحرية أبحرت من الخليج العربي، ونزلت في جنوب اليمن واستطاعت هذه الحملة أن تطرد الأحباش وبذلك تحررت اليمن .

---

(١) سورة الفيل.

أصبح سيف بن ذي يزن حاكما على البلاد تناصره القوة الفارسية، وكان مقره صنعاء، وقد انتقم سيف بن ذي يزن من الأحباش الموجودين بالبلاد، وهؤلاء بدورهم انتهزوا فرصة انفراده وقتلوه؛ وأصبح حكم البلاد بيد ولاة الفرس حتى دخل سكان البلاد في الإسلام.

وهناك بعض الدويلات ذات أصول عربية قحطانية، خرجت من الجنوب وأسست لها دولا على حدود فارس والروم وكان لها احتكاك بالمسلمين وأعني بهما: المناذرة والغساسنة:

**المناذرة:** تقع الحيرة عاصمة دولة المناذرة - وهي التي سيتم فتحها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب - في أطراف العراق في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء، ويجرى بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في أطرافها إلى عدة فروع، وتأخذ منها جداول وترع تروى تلك المنطقة فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها إنتاجا.

وقد اختلف في أصل كلمة حيرة فبعضهم قال : إنها مشتقة من الحيرة والضلال وذلك لأن تبعا لما بلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحيّر.

وزعم آخرون أن مالكا لما نزلها جعلها حيرا أي بساتين؛ وقال آخرون سميت الحيرة من الحوار أي البياض لبياض أبنيتها، والحقيقة أن لفظها سرياني معناه الحصن أو المعقل حوله الخندق، وأما سكانها فأغلبهم العرب البدو.[1]

ومن الملامح السياسية لدولة المناذرة أنها كانت دولة شبه مستقلة، وكانت تخضع اسميا للفرس؛ وكان بعض ملوكهم يتمتعون بنفوذ كبير في البلاط الفارسي كما كانوا يقلدون أكاسرة الفرس في اتخاذ التيجان على رؤوسهم، ولعلهم كانوا يصنعون ستارة تحجبهم

---

(1) محاضرات في تاريخ العرب ص ٥٦.

عن زوارهم فلا يظهرون شخصيا إلا لأشد المقربين إليهم، وقد اتخذوا لهم حجابا، فكانت تحيتهم الخاصة بهم "أبيت اللعن".

وقد هيأت الظروف الطبيعية لمنطقة الحيرة من أنهار وأشجار وأعشاب الفرصة لاشتغال السكان بالزراعة والرعي، فكانت هناك أشجار النخيل والبساتين والحدائق، كذلك لعب الموقع دورا هاما في تنشيط حركة التجارة .

ونتيجة لتدفق التجارات واشتغال السكان بالبيع والشراء؛ تدفقت الأموال وكثرت الثروات؛ وانعكس ذلك على نوع الحياة التي كان يحياها المناذرة؛ كذلك احترف السكان أنواعا مختلفة من الصناعة ويأتي في مقدمتها صناعة الأسلحة ومهروا في صناعتها حتى صارت لها شهرة في الأسواق الأخرى، كما برعوا في صناعة الحلي والزينة والأدوات المنزلية .

أما البناء فقد بلغ درجة كبيرة من الرقى؛ إذ ولع ملوك المناذرة ببناء القصور ومن أشهرها قصر الخورنق وقصر السدير يضاف إلى ذلك العديد من القصور منها قصر الغريب وقصر الفرس والقصر الأبيض، كما اهتم المناذرة بعد اعتناقهم المسيحية ببناء الكنائس والأديرة .

اعتنق سكان الحيرة العديد من المذاهب، فمنهم من عبد الأصنام ومنها صنم سبد كما كانوا يقدسون صنم العزى - التي عبدها العرب - ويتقربون إليه بالذبائح، كما تسربت بعض المذاهب الفارسية إلى دولة المناذرة وذلك بحكم الجوار، كذلك اعتنق بعض السكان المسيحية بفضل الدعاة والمبشرين الذين بثوا تعاليم المسيحية بين السكان وقد ترتب على ذلك انتشار الأديرة .

كما ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في عهد المناذرة، وذلك بتشجيع ملوك المناذرة للأدباء والشعراء، وقد حفل بلاط ملوك

المناذرة بمجموعة من كبار الشعراء أمثال المرقش الأصغر وطرفة بن العبد والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت وغيرهم من فحول الشعراء، كما كان عرب الحيرة يتكلمون العربية الشمالية في حاجاتهم اليومية، ولكنهم في الغالب يستعملون السريانية في كتابتهم .[١]

**الغساسنة :** هم من القبائل العربية النازحة من الجنوب صوب منطقة الشام - وقد كان لهم احتكاك بالمسلمين في عهد الرسول والراشدين - وتحدد المراجع نسبتهم إلى أزد اليمن، وأما تلقبهم بالغساسنة فيرجع ذلك إلى إقامتهم عند ماء يقال له غسان؛ وذلك قبل وصولهم إلى الشام كما يسمى الغساسنة بأولاد جفنة أو آل جفنة .

وأما كيفية سيطرتهم على المنطقة التي نزلوا بها وهي شرق الأردن حاليا فقد أشار المؤرخون إلى أن الضجاعمة من قبائل بنى سليح، كانوا يقيمون على مشارف الشام، وقد أقبل الغساسنة إلى منطقة الشام ونازعوا الضجاعمة وتغلبوا عليهم .

لقد امتدت سلطة أمراء الغساسنة على القبائل البدوية المقيمة في فلسطين ومنطقة الأردن وأطراف الشام، وكانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وفيها معسكرهم ومقرهم .

وكانت للغساسنة حضارة مزدهرة متأثرة إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبينزنطية؛ كذلك اهتم أمراء الغساسنة ببناء القصور والقناطر والأبراج، كما كان البلاط الغساني حافلا بأطايب الحياة وقد حرص أمراء الغساسنة على اقتناء الجواري والقيان من مختلف الجنسيات .

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٥٠.

### ثالثا: العرب المستعربة :

وهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وقد نشأ أولاده من العرب؛ لذا أطلق عليهم مستعربة، كما يطلق عليهم أيضا عرب الشمال والعرب العدنانية أو عرب الحجاز، أما مواطنهم ففي تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالا حتى مشارف الشام والعراق .

وعن قصة مجيء إسماعيل إلى مكة فقد اتفقت فيها الروايات العربية التي تذكر أن سيدنا إبراهيم ولد بالعراق في مدينة أور الكلدانية لأب نجار كان يصنع الأصنام؛ فلما شب إبراهيم ساوره الشك في أمر الأصنام؛ ومن ثم توجه إليها وحطمها، وكان جزاؤه أن ألقى في النار فنجاه الله، وارتحل إلى فلسطين ومعه زوجه سارة، ثم ارتحل إلى مصر وهناك أهديت له جارتيه هاجر التي ولدت له ابنه إسماعيل، ثم أنجبت زوجته الأولى سارة إسحاق، وحدث تنافس بين الزوجتين مما اضطر معه سيدنا إبراهيم إلى نقل هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة وهو مكان قفر خال من السكان؛ ثم تفجرت بئر زمزم مما دفع بعض القبائل اليمنية إلى السكنى بجوار الماء، وتزوج منهم سيدنا إسماعيل ثم تزوج جرهمية أخرى، ولم يزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل ومن نسله عدنان وولده معد ثم ابنه نزار.

وقد أنجب نزار أربعة أبناء تزعموا أربعة قبائل كبيرة هم: أياد وأنمار وربيعة ومضر .

وقد تفرع من ربيعة ومضر كثير من القبائل، أما ربيعة فكانت لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصبون مضر الشرف والرفعة؛ ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام؛ ومن ربيعة قبائل

أسد وضبيعة وعبد القيس.[1]

أما مضر وكانوا أهل الكثرة والغلب في الحجاز، وكانت لهم الرياسة بمكة، وكان أولاده في الجاهلية أشرف العرب، وزاد من شرفهم انتساب النبي ﷺ لهم، وقد تشعبت قبائل من مضر إلى شعبتين: قيس عيلان بن مضر والياس بن مضر، وهاتين بدورهما انقسمتا إلى قبائل وبطون كثيرة.

ومن نسل إلياس بن مضر: كنانة ومن كنانة قريش وهم أولاد مضر بن مالك بن النضر بن كنانة؛ وهذا بدوره أنجب كثيرا من الأبناء ويهمنا أن نذكر منهم عبد مناف وقد أنجب هاشما الذي أنجب عبد المطلب جد النبي ﷺ؛ كذلك أنجب عبد مناف: عبد شمس الذي انجب امية جد الأمويين.

هاجر كثير من أولاد عدنان إلى مناطق متفرقة جريا وراء العيش ومنابت العشب فهاجرت عبد القيس من بطون ربيعة إلى البحرين، وخرجت بنو حنيفة إلى اليمامة، وأقامت قبيلة بكر في منطقة اليمامة، وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في مكة.

وقد دخل عرب الجنوب والشمال في الإسلام مشاركين في الفتوحات الإسلامية وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية في أنحاء متفرقة من الأرض؛ وبرغم أن الشعب العربي بقسميه الجنوبي والشمالي عاشا في شبه الجزيرة إلا أنه وجدت بينهما بعض الفروق منها:

**أولا: النواحي المعيشية:** فبينما كان أهل الجنوب يميلون إلى الاستقرار حيث اشتغلوا بالزراعة باليمن في المناطق الجنوبية وساهموا

---

(1) محاضرات في تاريخ العرب ص ٦٨.

في تأسيس لون من ألوان الحضارة؛ نجد أن عرب الشمال كانوا أهل خيام وإبل ورحلة وغزو، لا يستقرون في مكان لأن معاشهم من كسب الإبل والقيام عليها .

**ثانيا : من حيث اللغة :** وبالرغم من أن لغة الجنوب والشمال ينتميان إلى اللغة السامية، إلا أن لغة الجنوب التي أطلق عليها لغة حمير كانت تختلف عن لغة الشمال في الإعراب وفي الضمائر وفي كثير من أحوال الاشتقاق والتصريف .

**ثالثا : الأديان :** يشترك عرب الجنوب والشمال في كثير من ضروب العبادة، وفي عبادة الأصنام؛ إلا أنهما يختلفان، فآلهة اليمن أقرب إلى معبودات البابليين وعندهم عشتار وبعل وغيرها، أما الشماليون فيشتركون في عبادات تختلف عن تلك كاللات والعزى ومناه وهبل.

**رابعا : الأسماء :** انفرد كل قسم من قسمي العرب بأسماء تخالف الآخر فبينما كانت أسماء اليمنيين في الدولتين المعينية والسبئية تشبه أسماء الدولة الحمورابية أو البابلية كأسماء: أب يدع واليفع ومعد يكرب، بينما في الشمال اختاروا أسماء تتفق مع البداوة من أمثال: أسد وثعلب كما اتخذوا أسماء تنتسب إلى آلهتهم كعبد اللات وعبد العزى ...

**خامسا : الصفات الجسمية :** فبينما أهل الجنوب يميلون إلى السواد وتشبه وجوههم أهل الحبشة والصومال، أما أهل الشمال فتتضح في وجوههم الصفات السامية فالبدوي أسمر اللون ممدود الوجه كبير الرأس طويل القامة .[1]

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٦٩.

## المجتمع المكي قبل الإسلام :

نتحدث عن مكة الموطن الأول للنبي صلى الله عليه وسلم، فيه ولد ونشأ وفيه تلقى رسالة الإسلام ودعا قومه؛ وفيه صبر وقاوم عناد اهل مكة ومن حولها حتى اضطروه إلى الهجرة إلى يثرب موطنه الثاني .

تقع مكة في وادي منحصر بين الجبال تصله بالخارج عدة طرق تتجه نحو الشمال ونحو الجنوب، ويبدو أن هذا المكان بدأ كمحطة للقوافل، يضربون فيه الخيام للراحة، وذلك قبل أن يواصلوا رحلتهم إلى الشمال أو إلى الجنوب .

أما مناخها فهو قاري أي شديد الحرارة صيفا، شديد البرودة شتاء مع قلة في سقوط الأمطار، لذا كانت المياه شحيحة، واعتمد الناس في شربهم على مياه الآبار، فإذا ما سقطت الأمطار فإنها تكون غزيرة، وتتجمع حتى تصبح سيولا تتدفق من فوق الجبال وتكتسح ما يقابلها .

وقبل أن نتناول تاريخ مكة السياسي، نلقي الضوء على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية باعتبار أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية شكلت تاريخ مكة، ذلك التاريخ الذي واجهه النبي ﷺ وغيّره بالإسلام، ومن ناحية أخرى فمدينة مكة وحياتها صورة للحياة العربية قبل الإسلام .

اشتغل أهل مكة بالتجارة نظرا للظروف الطبيعية التي كانت تحياها مكة باعتبار موقعها ونظرا لقلة الأمطار مما تعذر معه قيام الزراعة، لذا اتجه أهلها إلى التجارة، وكانت تجارتهم متنوعة فمنهم تاجر الحبوب وتاجر الملابس وتاجر الأسلحة وغيرها من أنواع المتاجر.

وقد ازدهرت التجارة في مكة في القرن السادس الميلادي، وذلك بعد

تدهور الأحوال الاقتصادية باليمن نتيجة للصراع على السلطة من ناحية وبين اليهود والمسيحيين من جهة أخرى، يضاف إلى ذلك أن منطقة الشمال أي الشام شهدت اضطرابات مستمرة وعدم استقرار نتيجة الصراع المسلح الذي دار على أرض الشام بين الفرس من ناحية والرومان من ناحية أخرى .

هذه الأوضاع المضطربة في الجنوب وفي الشمال زادت من أهمية مكة كمركز تجارى مستقر لجلب البضائع وتصريفها.[1] وقد اشتغل بالتجارة الرجال، وفي بعض الأحيان كانت النساء تصرف أموالها في التجارة كما فعلت السيدة خديجة زوج النبي ﷺ إذ كانت تصرف أموالها عن طريق استخدام ذوى الخبرة من التجار في البيع والشراء .

وكان أصحاب التجارة يسيرون مع القافلة أو يرسلون شريكا لهم أو أجيرا أو عبدا، على أن القوافل كانت تنظم بصورة جماعية فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها بجانب بعض التجار الذين يرافقونها، وحتى تأمن القافلة في طريقها، كانت تعقد اتفاقيات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تجتازها القافلة وبذلك يضمنون سلامة القافلة .

وبجانب تجارة القوافل، كانت هناك الأسواق حيث تعرض فيها البضائع المختلفة، ومن أشهر هذه الأسواق بمكة سوق المجنّة القريب منها وسوق عكاظ، وهذه الأسواق جعلت من مكة مقصدا للتجار من جنسيات مختلفة من الشام وبلاد فارس ومصر وغيرها من المناطق المحيطة بشبه الجزيرة .

وقد اتخذ بعض هؤلاء التجار مستودعات لمتاجرهم بمكة يجلبون

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٧٢.

إليها مختلف البضائع ويصرفونها في أسواق مكة فكان تجار الشام يجلبون القمح والزيوت والخمر الجيدة إلى تجار مكة، كذلك أصبحت مكة مركزا للصيرفة بحيث يستطيع التجار دفع أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك، وكذلك كان يتم التأمين على البضائع وهي تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر .

وكانت مكة هي البوتقة التي انصهرت فيها الثقافات واللهجات المختلفة، وبالرغم من أن التعليم لم يكن منتشرا في شبه الجزيرة نتيجة عدم ميل العرب إلى تلقي العلوم وأسلوب حياتهم البدوي الذي كان يحتم عليهم الانتقال من مكان إلى آخر مع انتشار الحروب بينهم؛ إلا أن هذا لم يمنع شبه الجزيرة من أن تتأثر ببعض الثقافات الخارجية نتيجة للعلاقات التجارية التي كانت تربط أنحاء شبه الجزيرة ببلاد فارس والروم، بالإضافة إلى وجود بعض الجنسيات غير العربية التي تعيش في مدن الحجاز كالأحباش في مكة .

كذلك تسربت بعض المؤثرات الفارسية عن طريق الحيرة إلى داخل شبه الجزيرة كما تسربت بعض الألفاظ الرومية عن طريق غساسنة الشام إلى داخل شبه الجزيرة، وقد تجلى تأثر لغة العرب بالحضارات السابقة في تلك الألفاظ المتنوعة فمنها ما أصله حبشي كبرهان وحواريون ومنبر، ومنها ما أصله فارسي كالفرند والفردوس وسجيل وغيرها، ومنها ما أصله رومي كالكنيسة والبيعة وغيرها من الألفاظ .

وكانت اللغة العربية هي اللغة المستعملة في شبه الجزيرة، وهي إحدى اللغات السامية، وقد انتشرت اللغة العربية عن طريق القبائل النازحة من الجنوب ومنها قبيلة جرهم التي أقامت بمكة، فلما نزلها

إسماعيل وأقام بها صاهر قبيلة جرهم وعنهم أخذ العربية وكانت لغته الأصلية العبرية وتفاعلت لغته مع اللغة العربية ومن هنا صارت اللغة العربية فرعين :

١- الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصلية .

٢- والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بنى إسماعيل، ولهجة اللغتين بطرق التعبير بهما لا يختلفان وإنما الخلاف في الفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس .

ولعب الشعراء دورا كبيرا في رسم صورة لحياة العرب إذ كان سجلا دقيقا يذكر فيه الشاعر أمجاد قبيلته وفعالها وانسابها وأيامها المشهورة، وكانت القبيلة تعد نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعرا يدافع عنها في المجامع يذكر أمجادها ويعدد فخارها، بجانب كان الشاعر له أثره الكبير في رفع شأن القبيلة أو خفضها؛ ومن ذلك أن جماعة من بنى تميم كانوا ينسبون إلى جدهم أنف الناقة، وكانوا يخجلون من هذه التسمية، وإذا سئل الواحد منهم عن نسبه قال: من بنى قريع ابن عوف والد جعفر انف الناقة ولا يذكرون انف الناقة، فلما زارهم الحطيئة وأكرموه مدحهم قائلا:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ∴ ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فذاع ذكرهم بين القبائل وارتفعت مكانتهم، وصار أفراد القبلية يفتخرون بانتسابهم إلى أنف الناقة .[1]

وكانت للعرب أسواق عامة يجتمعون فيها لتبادل الأخبار وإنشاد الأشعار بمبادلة متاجرهم ومن هذه الأسواق :

---

(١) محاضرات في تاريخ العرب ص ٧٥.

**سوق عكاظ** : وهو مكان بين نخلة والطائف على مسافة ثلاثة أيام من مكة وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى عشرين منه؛ **وسوق ذي المجنّة** : الواقع خلف جبل عرفات ويقيمون فيه بقية ذي القعدة؛ ثم ينتقلون إلى **ذي المجاز** ويقيمون فيه ثمانية أيام من ذي الحجة .

وهذه الأسواق على بساطتها إلا أنها كانت أشبه بالمهرجان الأدبي الذي يتبارى فيه الشعراء فإذا ما فازت قصيدة من القصائد كتبت بحروف من ذهب وعلقت على الكعبة تكريما لها ولقائلها ولتحفظها الأجيال بعد ذلك، وقد انتهي إلينا عشر معلقات منها معلقة أمرؤ القيس وزهير بن أبى سلمى وعنترة بن شداد .

وقد برع العرب في بعض العلوم المتصلة ببيئتهم وحاجاتهم اليومية، فحاجتهم إلى المطر أكسبتهم ملاحظة الجو وتغييراته وما تنبئ عنه تلك التغييرات بقرب المطر أو الإنذار بالجدب، وحاجتهم إلى الإبل أكسبتهم معرفة طبائع الإبل وكيفية معالجتها ومداواتها ونتيجة معيشتهم في الصحراء برعوا في علم القيافة أي علم الأثر وذلك بمعرفة آثار الأقدام، وأثر الماشي في الصحراء، ويصحب ذلك مقدرتهم على معرفة صحة الأنساب عن طريق التشابه في الأعضاء وأجزاء الجسم .

### الحياة الدينية :

وقد تمتعت مكة بمكانة دينية ممتازة بين العرب وذلك لوجود الكعبة والأصنام في ساحتها؛ تلك الأصنام التي كان يقدسها العرب ويطوفون حولها، وكان عامة العرب بعد إسماعيل على دين إبراهيم عليه السلام تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئا؛ وبتقادم العهد تسربت طقوس وثنية إلى شبه الجزيرة العربية، وذلك أن العرب كانوا يقدسون الكعبة

ويحترمونها، وكان العرب كما نعلم يرحلون كثيرا في تجاراتهم، فاضطر بعضهم إلى أخذ قطعة من حجارة الكعبة تبركا بها وتعظيما لها؛ وبذلك تسرب إلى العرب تعظيم الحجارة .

فلما سار عمرو بن لحى الخزاعي إلى بلاد الشام، ورأي أهلها يعظمون التماثيل أعجبته الفكرة وأخذ بعض التماثيل ووضعها حول الكعبة باعتباره حارس الكعبة وخادمها؛ ثم تطور الأمر فصاروا يصنعون التماثيل لعظمائهم ويضعونها في الكعبة .

ومن غير شك فإن الناس كانوا يحجون إلى البيت الحرام من مختلف أنحاء الجزيرة العربية فنقلوا هذه الطقوس إلى بلادهم وعبدوها فانتشرت الوثنية ببلاد العرب .[1]

ويجدر بنا أن نشير إلى بعض المصطلحات المتعلقة بالأصنام: أما الصنم فهو على صورة إنسان من معدن أو خشب، أما الوثن فكان على شكل إنسان من الحجر، وأما النصب فهو حجر غفل ليس له صورة معينة

**وأما أهم الأصنام التي عبدتها العرب :**

١- هبل: وهو أعظم أصنام قريش، وكان على بئر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا؛ وربما كان اسمه مشتقا من بعل وهو إله معروف في بلاد الهلال الخصيب، وكان هبل من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد فجعلت يده من ذهب وكان حجاج قريش يطوفون حوله ويحلقون رؤوسهم ويلعبون عنده .

٢- أساف ونائلة وهما صنمان على الصفا والمروة، وكان عبادهما من خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب؛ وهناك رواية عربية

---

(١) تاريخ العالم الإسلامى حـ ١ ص ١٣٦.

تزعم أنهما في الأصل رجل وامرأة فسقا في حرم الكعبة فمسخا حجرين ونصبهما الناس على الصفا والمروة ليتعظ الناس بالحادثة؛ غير أنه بتقادم العهد نسى الناس الحادثة وصاروا يتبركون بهما، ولاشك أن هذه الرواية تعدّ من الأساطير العربية .

٣- العزّى وهي من الآلهة التي عبدها أهل مكة وأقسموا بها، ويعتبر العزى من أعظم الأصنام عند قريش؛ وأما مكان العزى فكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة بتسعة أميال .

٤- اللات وموقعها على مقربة من الطائف، وكان أهلها يحجون إليها ويقدمون لها القرابين، وقد حرم العرب أن تقلع أشجار أو يصطاد حيوان بجوارها وفي حماها .

٥- مناة وكانت آلهة القضاء والقدر وهي عبارة عن صخرة سوداء على ساحل البحر مما يلي قديدا وكان الازدوغسان يحجون إليها ويعظمونها .

وبجانب هذه الأصنام كانت هناك أصنام أخرى عبدها العرب وقدسوها ومنها : ودّ وكان هذا الصنم لقبيلة كلب وأحياء قضاعة بدومة الجندل، ولقبيلة مذجح صنم يغوث، وكان لحمير وهمدان بصنعاء نسر، وكان لقبيلة كنانة صنم سواع .[1]

ومن ناحية أخرى فإن أصدق مصدر يبيّن عقائد الجاهلية هو القرآن الكريم وذلك من خلال جدله الديني مع المشركين وتفنيد عقائدهم، وقد بيّن الله تعالى في القرآن أن العرب المشركين كانوا يعبدون آلهة مزعومة لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم عنده يقول الله تعالى :

---

(١) تاريخ العالم الإسلامي حـ١ ص ١٣٧.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، فهم يعرفون الله لكنهم يستشفعون إليه بالآلهة المزعومة يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[2] فيعبدون الأصنام والأوثان معتقدين أنها منازل الأرواح كما يقول الأخباريون .[3]

وقد اتصلت فيهم هذه الوثنية مع شعائرها وعاداتها واعتقاداتها عقودا متتابعة بسبب التقليد، فكل جيل جديد يرث عن أسلافه هذه الوثنية فترسخت على مر الأيام لما كانوا عليه من تعظيم الأسلاف وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[4] وقد أعماهم التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل والأخذ بالدليل الصحيح.[5] وترتب على انحراف العقيدة انحراف في العبادة والسلوك والشعائر والشرائع فإذا بمناسك الحج تدخلها الوثنية؛ حيث وضعت الأوثان حول الكعبة وجرى الطواف حولها مع التعري من الثياب أحيانا وأصبحت قريش أخيرا لا تخرج إلى عرفات

---

(1) سورة يونس ١٨.

(2) الأنعام ١٩.

(3) السيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ٨٤.

(4) الزخرف ٢٢.

(5) السيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ٨٤.

بل تقف بمزدلفة خلافا للناس وغير ذلك من الانحرافات.[1]

ولم تكن الوثنية قاصرة على عبادة الأصنام؛ وإنما اتخذت مظاهر أخرى؛ فقد عبد بعض العرب مظاهر الطبيعة كعبادة الأشجار؛ ومن هذه الأشجار "ذات أنواط" وهي شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويقيمون عندها يوما، وكان بيت العزى ثلاث شجرات تعلق عليها الهدايا، ويلاحظ أن مكان الأشجار كان عند الينابيع والأماكن الخصبة.[2]

وكانت هناك بعض المراسم المتعلقة بالعبادة، ومن ذلك أنهم كانوا يحجون كل عام إلى الكعبة للطواف حولها وتقديم القرابين للأصنام؛ أو لزيارة الأصنام خارج الكعبة، وهذا ما كانت تفعله قريش في حجها لصنم العزى؛ وكانت قبيلة مذحج تحج إلى صنم يغوث.

أما الحج فكان يتم في أشهر معينة، وكانت هناك طقوس معينة تلتزم بها القبائل أثناء حجها ومنها ذبح الذبائح وتقديم القرابين لهذه الأصنام، وكان العرب في أديانهم على صنفين: الحمس والحلّه؛ وكان الحمس يشددون على أنفسهم في دينهم؛ وأما الحلّه فكانوا غير متشددين فلا يحرمون الصيد في النسك ويلبسون كل الثياب، ويأكلون اللحم ويتطيبون.

ومن عاداتهم الدينية الاستقسام عند أصنامهم بالأزلام؛ والزلم هو القدح الذي لا ريش عليه وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول، والنبع شجر ينبت في سفح الجبل، والأزلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها: افعل ولا تفعل، وقد سويت ووضعت

---

(١) المرجع السابق حـ١ ص ٨٤.

(٢) محاضرات في تاريخ العرب ص ٧٨.

في الكعبة يقوم بها سدنة البيت؛ فإذا أراد الرجل سفرا أو عملا أتى إلى كاهن الكعبة فقال: اخرج لي زلما فيخرجه وينظر إليه فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم عليه، وإن خرج قدح النهي قعد عما أراده .

وقد نالت قريش مكانة اجتماعية متميزة باعتبارهم المقيمين حول الكعبة والقائمين على حراستها وصيانتها وخدمة حجاجها، ومن ثم نظرت القبائل العربية لهم نظرة احترام وتقدير.

وبجانب نظرة التقدير والاحترام التي كانت تتمتع بها مكة وزعماؤها إلا أنها عند البعثة النبوية الشريفة كانت تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم وكان الرجال الذي يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار، كفر بالله واليوم الآخر، وإقبال على نعيم الدنيا وإغراق في التشبع منه، ورغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة، عصبيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك وتقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي داخل هذا النطاق المحدود .(١)

**المسيحية :** وبجانب عبادة الأصنام وتقديسها كانت هناك طوائف مسيحية وتسمى أيضا النصرانية وهي شريعة عيسى عليه السلام وهي نسبة إلى مدينة الناصرة التي تُعدّ أول قرية بثّ منها سيدنا عيسى دعوته والعرب تقول نصراني وناصري ولا يعرف على وجه التحقيق زمن دخول النصرانية إلى بلاد العرب، ويقال إن القديس توما هو أول من بشر بالنصرانية في بلاد اليمن أثناء مسيره إلى الهند في بعض رحلاته، وأن بولس بشر بها في الشام فاعتنقها كثير من عربها قبل القرن الثالث الميلادي بزمن طويل .(٢)

---

(١) فقه السيرة ص ٢٥.

(٢) تاريخ العالم الإسلامي حـ١ ص ١٣٨.

وقد اعتنقت بعض القبائل العربية المسيحية كقبائل تغلب وغسان وطي وبكر، وكان اعتناق هذه القبائل الدين المسيحي أمرا طبيعيا، وذلك بحكم جوارها بالشام حيث موطن المسيحية؛ إلا أن المسيحية لم تكن راسخة الأقدام وذلك لأن مبادئها وما تدعو له من السلام والموادعة تتنافي مع طبيعة البدوي التي جبلت على الحرب والشدة والقسوة؛ يضاف إلى ذلك الانقسامات المذهبية التي كانت تعانى منها المسيحية في ذلك الوقت مما صرف جهد المبشرين عن نشرها داخل شبه الجزيرة.

**اليهودية :** وهي شريعة سيدنا موسى عليه السلام، وسميت بذلك نسبة إلى السبط المسمى يهوذا ولد يعقوب (إسرائيل)، وقد دخلت اليهودية اليمن وكانوا قبل دخولها يعبدون الشمس؛ أما كيف دخلت اليهودية بلاد اليمن فمن المعروف أن هذه الديانة نشأت بمصر ولما رفض اعتناقها فرعون وقومه خرج بنو إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٤٩١ ق.م ووصلوا إلى طور سيناء ثم انتقلوا إلى أورشليم وفي عهد سيدنا سليمان عليه السلام كان التجار يرحلون إلى اليمن وبذلك انتشرت اليهودية هناك.[١]

وكانت اليهودية أكثر حظا من المسيحية؛ إذ جاءوا إلى شبه الجزيرة وأقاموا في بعض الواحات الحجازية كفدك وتيماء ووادي القرى وخيبر ويثرب، ويكاد يجمع المؤرخون على أن اليهود جاءوا إلى جزيرة العرب مهاجرين من فلسطين عندما ساءت أحوالهم الاقتصادية، وقد اصطبغ اليهود بالصبغة العربية فعلى الرغم من كثرة عددهم كانوا يتكلمون العربية واتخذوا أسماء عربية.

---

(١) المرجع السابق حـ١ ص ١٣٨.

# الفصل الثاني

# المولد والنشأة

ينتسب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى أعرق الأسر القريشية نسبا وأصلا فهو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وفي هذا يقول الرسول الكريم : " إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل، واصطفي قريشا من كنانة، واصطفي من قريش بني هاشم واصطفان من قريش " [١]، ويقول ﷺ : " إن الله عز وجل يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نسبا وخيرهم بيتا " . [٢]

ويجدر بنا أن نتعرض لسيرة بعض أجداده ﷺ ونبدأ بجده :

---

(١) صحيح مسلم حـ٤ ص ١٧٨٢ .

(٢) دلائل النبوة حـ١ ص ١٦٨ .

## قصي :

واسمه زيد، وإنما أطلق عليه قصي لأنه كان بعيدا عن بلده مكة في صحبة والدته بالشام فلما كبر وأصبح شابا سابه رجل من قضاعة فعيّره وقال له : لست منا وإنما أنت فينا ملصق، فدخل على امه وقد وجم لذلك فقالت له : يا بني قد صدق، إنك لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه وآباؤك أشرف من آبائه وإنما أنت قرشي، وأخوك وبنو عمك بمكة وهم جيران بيت الله، فدخل في جماعة حتى أتى مكة .

استطاع قصي بما أوتى من شجاعة ورجاحة عقل أن يصبح سيدا لأهل مكة مرموق المكانة معترفا له بالفضل يقول ابن هشام "فولى قصي البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على مكة فملكوه، إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه دينا في نفسه لا ينبغي تغييره" . [١]

خطى قصي خطوات واسعة نحو إنشاء إدارة منظمة بمكة بما أدخله من إصلاحات من أهمها : أنه جمع أبناء قريش وجعل لكل بطن حيا خاصا على مقربة من الكعبة، كذلك بني قصرا جعل بابه يؤدى إلى الكعبة مباشرة، وكان هذا القصر يسمى دار الندوة ويتولى هو رئاسته فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء حرب يتم من غيرهم إلا في داره يعقده لهم بعض ولده [٢] وقد أشار ابن إسحاق أنه لم يكن يدخلها - أي دار الندوة من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون وحلفاؤهم .

---

(١) مختصر ابن هشام حـ١ ص ٨٦ .

(٢) ابن هشام حـ١ ص ٨٧ .

لقد قام قصي وأبناؤه من بعده أعمال مهمة أدت إلى ازدهار مكة وفي نفس الوقت أبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم ومكنت لسيادتهم وإذا استعرضنا ما أنجزوه فإن قصيا هو الذي جمع قريشا ومكّن لها في مكة ونظم شؤونها، وأمسك أبناؤه بزمام وظائفه من بعده من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة.[1]

وبعد وفاة قصي اختلف أبناؤه في توزيع المناصب عليهم، وقامت بينهم الحروب التي انتهت بتقسيم الوظائف : السقاية والرفادة لعبد شمس بن عبد مناف، وأن تظل الحجابة والندوة واللواء في أيدي بني عبد الدار . ولنا أن نعرض لهذه الوظائف بشيء من الإيجاز :

١- **الحجابة والسدانة :** المقصود بها حراسة الكعبة وتولى حفظها وهم الذين بأيديهم مفاتيحها وهي من اختصاص بني عبد الدار .

٢- **السقاية :** المقصود بها الإشراف على بئر زمزم وكانوا يصنعون بها شرابا في الموسم للحجاج ويمزجونه تارة بعسل وتارة بلبن وتارة بنبيذ يتطوعون بذلك من عند أنفسهم وكانت من اختصاص بني هاشم .

٣- **الرفادة :** شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالا عظيما أيام الموسم فيشترون به للحاج الطعام والنبيذ .

٤- **الديات :** وهي دفع الغرامات عمن لا يستطيع دفعها وكانت في يد تيم بن مرّة .

٥- **السفارة :** والمقصود بها البت في شئون الصلح بعد الحرب أو الخلافات .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ ١ ص ٨٠ .

## أما هاشم :

واسمه الحقيقي عمرو العلا وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشّم الثريد لقومه بمكة وأطعمه وسبب ذلك أن قومه من قريش أصابتهم شدة وقحط فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق فقدم به مكة فأمر به فخبز له ونحر جزورا ثم اتخذ لقومه مرقة ثريد بذلك الخبز .

وقد اصطلحت قريش في حلف المطيبين على أن يولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادةَ فجمع إليه الرياسة على قريش "وكان هاشم يأمر بحياض من أدم فتجعل في موضع زمزم من قبل أن تحفر ثم يستقى فيها من البيار التي بمكة فيشرب الحاج، وكان يطعمهم أول ما يطعمهم بمكة قبل التروية بيوم، ثم بمنى وعرفة، يثُرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق من التمر، ويحمل لهم الماء فيطعمهم ويسقيهم حتى يصدروا" . [١]

وقد نجح هاشم في عقد صلات تجارية مع البيزنطيين بالشام وذلك بحسن فعاله فقد كان نشاط التجار في مكة قاصرا على مكة وحدها "فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشم إلى الشام، فكان يذبح كل يوم شاة فيصنع جفنة ثريد، ويدعو من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أحسن الناس وأجملهم إلى شرف نفسه وكرم فعاله، فذُكر لقيصر فدعا به فلما رآه وكلمه أعجب به وأدناه منه، فلما رأي هاشم مكانه منه، طلب منه أمانا لقومه ليقدموا بلاده بتجاراتهم فأجابه إلى ذلك وكتب لهم قيصر كتاب أمان لمن أتى منهم" [٢]، وهاشم هو أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف .

---

(١) الاكتفا، حـ١ ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق حـ١ ص ١٤٧ .

ولم يكتف هاشم بأمان قيصر وكتابه، وإنما استخدم هذا الكتاب في رحلة العودة من الشام فكلما مر بحي من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرافهم إيلافا والإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي طريقهم وأرضهم بغير حلف؛ إنما هو أمان الطريق، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بينه وبين الشام حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب فكان ذلك أعظم بركة .[1]

## أما عبد المطلب :

جدّ النبي ﷺ واسمه شيبة ويكنى بأبي الحارث وأبى البطحاء، وكان والده هاشم قد قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدى بن النجار فولدت له شيبة، وتركه هاشم عند والدته بالمدينة حتى صار شابا وفي أثناء ذلك مات هاشم، وصار عمه المطلب ذا مكانة في قريش .

وقد بلغه أن ابن أخيه شيبة قد صار شابا في يثرب يقول ابن هشام : " ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه فقالت له سلمى : لست بمرسلته معك، فقال لها المطلب : إني غير منصرف حتى أخرج به معي، إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه، ونحن أهل بيت شرف في قومنا، نلي كثيرا من أمورهم وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة في غيرهم، وقال شيبة لعمه المطلب : لست بمفارقها إلا أن تأذن لي، فأذنت له ودفعته إليه، فاحتمله فدخل به مكة مردفة - هو الراكب خلف الراكب - معه على بعيره فقالت قريش : عبد المطلب ابتاعه فبها سمي شيبة عبد المطلب، فقال المطلب : ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم قدمت به من المدينة وكان يقال لعبد المطلب شيبة الحمد وإنما سمي شيبة لأنه كان في ذؤابته شعرة

---

(1) الإمام محمد بن يوسف الصالحي : سبل الهدى والرشاد حـ١ ص ٣١٦ .

بيضاء . وكان عبد المطلب من حلماء قريش وحكمائها .

ثم صارت السيادة والرئاسة لعبد المطلب فكان يتولى السقاية والرفادة، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه واحبه قومه وعظم خطره فيهم . ومكارمه أكثر من أن تحصى فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفسا وأبا وبيتا وجمالا وبهاء وفعالا ومن أبرز الأحداث في عهد عبد المطلب هو كشفه بئر زمزم وما فيها من كنوز، وأما السبب في كشفها فإن عبد المطلب وجد مشقة كبيرة في سقاية الحجيج؛ وذلك أن سقاية الحج كانت تجمع من آبار عدة مبعثرة حول مكة، ولم يكن لعبد المطلب من يساعده غير ولده الحارث، وشغل هذا الأمر بال عبد المطلب وتمنى لو أن زمزم مازالت باقية، وقد سمع العرب أن مضاض بن عمرو الجرهمي قد طمّها في القرون الخالية، واشتد به التفكير في أمر السقاية وزمزم حتى ناداه هاتف في قومه أن أحفر البئر التي تفجرت تحت أقدام جدك إسماعيل ومازال الهاتف يأتيه حتى اهتدى عبد المطلب إلى مكانها أخيرا، فشمر عن ساعد الجد وجعل يحفر وولده الحارث ينقل التراب والرمال حتى نبع الماء وظهرت النفائس التي خبأها مضاض .[1]

وقد استخرج عبد المطلب ما كان فيها من كنوز وذلك غزالان من ذهب، كانت جرهم قد دفنتهما حين أخرجت من مكة وأسياف وأدراع، فجعل الأسياف بابا للكعبة، وضربت الغزالين صفائح من ذهب للباب فكان أول ذهب حُلّيت به الكعبة .

ولاشك أن هذا العمل زاد من مكانة عبد المطلب ليس في مكة وحدها، وإنما بين القبائل التي تقصد مكة للحج وتقديم القرابين

---

(١) تاريخ العالم الإسلامي حـ١ ص ١٢٦ .

للأصنام والسقاية من بئر زمزم .

وهناك حادث آخر هام في حياة عبد المطلب وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بحفر زمزم، وما لاقاه من عنت قريش كما أنه يتصل بابنه عبد الله والد النبي ﷺ، هذا الحادث هو نذر أحد أبنائه قربانا للأصنام إذا رزقته الآلهة بعشرة أبناء وكان عبد المطلب قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة .

فلما توافي بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع؟

قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتوني ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على هيكل في جوف الكعبة، وكان على بئر في جوف الكعبة فيها يجمع ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة بها يضربون على ما يريدون إلى ما تخرج به القداح ينتهون في أمورهم .

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره الذي نذر، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب بني أبيه إليه .

فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هُبل يدعو الله، ثم ضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائله ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها وقالوا :

ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال : أذبحه، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا .

وقال له المغيرة بن عبد الله وكان عبد الله ابن أخت القوم أمه وأم أخويه الزبير وأبى طالب فاطمة بنت عمرو، والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرّافة لها تابع فتسألها ثم أنت على رأس أمرك؛ إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها فيما يزعمون بخيبر، فركبوا حتى جاءوها فسألوها، وقصّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ونذره فيه، فقالت له: ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله. فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها فقالت لهم:

قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا عشرة من الإبل وكانت كذلك، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل ومازالوا كذلك يزيدون عشرا فعشرا من الإبل ويضربون عليها، كل ذلك يخرج القدح على عبد الله، حتى بلغت الإبل مائة وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش قد انتهى، رضي ربك يا عبد المطلب.

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله، فخرج القدح على الإبل، ثم عاودوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائم يدعو، فخرج القدح في كلتهما على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .[1]

**من النص السابق يمكننا أن نستخلص ما يأتي :**

١. إحساس عبد المطلب بضعفه أمام قوة قريش مما جعله ينذر بذبح أحد أبنائه إن رزقته الآلهة بعشرة أبناء .

٢. قوة العاطفة الدينية عند عبد المطلب، وقد تمثل ذلك في شروعه في تنفيذ النذر وطاعة أبنائه لرغبة أبيهم حين سجلوا أسماءهم على القداح .

٣. إسراع قريش وأخوال عبد الله في افتداء عبد الله مهما كلفهم ذلك من أموال .

٤. اعتقادهم في الكهانة والسحر واستجابتهم للرأي القائل بالاحتكام إلى إحدى العرافات لتخلصهم مما هم فيه من مأزق .

٥. استجابتهم لرأي الكاهنة وبذلهم الأموال حتى بلغت مائة وفرحهم بأن القداح خرجت على الإبل، ولم تخرج على عبد الله وذبحهم لهذه الإبل وتركها للناس يطعمون منها .

٦. المنزلة الطيبة التي كان يتمتع بها عبد الله والد النبي ﷺ سواء في قلب والده عبد المطلب أو قريش وأخواله .

ومن الأحداث البارزة في عهد عبد المطلب محاولة أبرهة الحبشي هدم الكعبة، انتقاما لما نزل بكنيسته في صنعاء؛ وهي كنيسة لم ير

---

(١) الاكتفاء حـ١ ص ١٦١، ١٦٢ .

مثلها في زمانها، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من بني كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فأحدث بها ثم لحق بأرضه؛ ومن هنا صمم أبرهة على هدم الكعبة وسار بجيش ضخم حتى وصل قريبا من مكة .

وفي الطريق أصاب مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، ثم أرسل في طلب سيد أهل مكة وحين مثل بين يديه سأله عن حاجته؟

فقال عبد المطلب - وذلك عن طريق الترجمان - حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟!

قال عبد المطلب : إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه، قال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك .[1]

فلما عاد عبد المطلب إلى مكة أبلغ قريشا ما دار بينه وبين أبرهة؛ ومن ثم لجأ أهل مكة إلى الجبال والشعاب للاحتماء بها من عدوان أبرهة .

أما أبرهة فقد سار بجيشه الذي بلغ ستين ألف مقاتل فضلا عن عدد من الفيلة المدربة حتى وصل وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ولم يتقدم خطوة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك .

---

(١) الاكتفاء جـ١ ص ١٣٢ .

فبينما هم كذلك إذا أرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص، فإذا ما أصاب الحجر جنديا تقطعت أعضاؤه وهلك وفني معظم الجيش، أما من بقى منهم فتساقطوا بكل طريق، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله حتى هلك . (١)

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوما ويوافق فبراير سنة ٥٧١م، ومن ناحية أخرى فقد ارتفعت مكانة قريش بين العرب يقول ابن إسحاق : " فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من النقمة، أعظمت العرب قريشا وقالوا : هم أهل بيت قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم " (٢) وتوفي عبد المطلب وله مائة وعشرون سنة وقيل خمس وثمانون وقيل غير ذلك .

## عبد الله والد النبي ﷺ :

عبد الله هو أصغر أبناء عبد المطلب، وهو الذي فداه أبوه بمائة من الإبل، وفرحت أسرته وقريش بهذا الفداء، وكان عبد الله أجمل فتيان قريش ومن ثم أخذه أبوه ليزوجه ابنة سيد بني زهرة وهي السيدة آمنة . وروى البيهقي عن ابن شهاب قال : كان عبد الله أحسن رجل رئي قط، خرج يوما على نساء قريش فقالت امرأة منهن : أيتكّن تتزوج بهذا الفتى فتصب النور الذي بين عينيه فإني أرى بين عينية نورا . (٣)

وقد أشارت المصادر إلى أن بعض النساء عرضن أنفسهن على عبد

---

(١) الرحيق ص ٥٨ .

(٢) الاكتفا. حـ١ ص ١٣٥ .

(٣) سبل الهدى حـ١ ص ٣٨٩ (تصطب: تسلب وتدخل) .

الله ليتزوجهن إلا أنه رفض، " ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله فمر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة . قال الزبير : وكان عبد الله أحسن رجل رئي في قريش قط، فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله، قال : مع أبي، قالت : لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع علي الآن، قال : أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه" .[1]

وهكذا كانت النساء يتطلعن إلى الاقتران بعبد الله لما ظهر في وجهه من نور؛ إلا أنه أبى استجابة لرغبة أبيه عبد المطلب الذي زوجه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهره بن كلاب بن مرة وهو يومئذ سيد بني زهرة سنا وشرفا، وكانت آمنة أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا . فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسبا وأعظمهم شرفا سواء من جهة أبيه أو من جهة أمه .

وقد حاول بعض المستشرقين الهجوم على نسبه الشريف حقدا وحسدا من عند أنفسهم وعلى رأسهم اليهودي مرجليوث الذي زعم بتدني المستوى الاجتماعي لأسرته متجاهلا ومتغافلا عن أن النبي ﷺ أحد أفراد بني هاشم وهي الأسرة التي تتمتع بأشرف نسب وكان لها شرف السيادة في قريش، كما تحملت أسرته شرف مسئولية السقاية والرفادة؛ مما أكسبها احتراما وإعزازا في أنحاء شبه الجزيرة العربية .[2]

لم يلبث عبد الله طويلا مع زوجته السيدة آمنة في مكة؛ وإنما أرسله أبوه عبد المطلب إلى المدينة ليبتاع له تمرا، وقيل بل خرج تاجرا إلى الشام فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها

---

(١) الاكتفاء، حـ١ ص ١٦٤ .

(٢) السيرة النبوية ص ١٥٩ .

ودفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة وكانت وفاته على أرجح الآراء قبل أن يولد الرسول الكريم ﷺ .

### مولده ﷺ :

ولد الرسول الكريم ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنه خلت من ملك كسرى أنو شروان ويوافق ذلك العشرين أو الاثنين وعشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ م .

وقد أشار بعض المؤرخين إلى تواريخ أخرى إلا أن القرائن التاريخية تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي ﷺ كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل، لأن قصة الفيل توطئة وإرهاصا لظهوره حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حول من العرب المشركين تعظيما لبيته .[١]

وكما اختلف المؤرخون في عام مولده اختلفوا في تاريخ مولده وشهره فذهب ابن إسحاق إلى أنه ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وذهب الواقدي إلى أنه ولد لعشر ليال من شهر ربيع الأول وذهب أبو معشر السندي إلى أنه ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول وابن إسحاق أوثق الثلاثة .[٢]

وقد صاحب مولده في ذلك اليوم المبارك عدة إرهاصات وتنبأ بذلك بعض أهل الكتاب "حكى الواقدي عن سليمان بن سحيم قال : كان بمكة يهودي يقال له يوسف، فلما كان اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يا معشر قريش قد ولد نبي هذه الأمة

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق حـ١ ص ٩٨ .

في بحرتكم هذا اليوم وجعل يطوف في أنديتهم فلا يجد خبرا، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل فقيل له : ولد لابن عبد المطلب غلام فقال : هو نبي والتوراة .

وقال حسان بن ثابت : والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما أسمع إذ سمعت يهوديا يصرخ على أطمة بيثرب : يا معشر يهود حتى إذا اجتمعوا قالوا له : ويلك مالك؟ قال : طلع نجم أحمد الذي ولد به .

وذكر ابن السكن من حديث عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلا، قالت فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول لتقعن علي، " فلما وضعته أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نورا " .[1]

وهذا يعنى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعاصرين لمولده ومبعثه بعد ذلك كانوا يعلمون من خلال كتبهم المقدسة بمجيء نبي بعد عيسى عليه السلام وأنه خاتم الأنبياء والرسل فعن ابن سلام أنه كان يقول " إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة - إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزئ بالسينة مثلها ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يقيم الملة بأن تشهد أن لا إله إلا الله يفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا " .[2]

وهكذا جاء النبي الكريم ﷺ يتيما إلى الدنيا ؛ إذ فقد أباه قبل أن

---

(١) الاكتفاء، جـ١ ص ١٦٧ .

(٢) السيرة النبوية المطهرة ص ١٥٠ .

يرى ﷺ نور الدنيا ، ولم يلبث قليلا حتى توفت أمه وجده عبد المطلب بعد ذلك وهذه من حكم الله تعالى إذ اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبب إلى إدخال الريبة في القلوب أو إيهام الناس بأن سيدنا محمد ﷺ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التي جاء بها بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده وخاصة أن جده عبد المطلب كان سيدا وزعيما في قومه ومن الطبيعي أن يربى الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه هذا الميراث . (١)

ولاشك أن الفرحة عمت بني هاشم بالمولود الجديد، وقد أرسلت أمه إلى جده تخبره الخبر السعيد يقول ابن إسحاق : " فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فائته فانظر إليه، فأتاه ونظر إليه وحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه " . (٢)

وقد فرح الجد المكلوم في فقد ابنه عبد الله بالطفل المولود، ودخل به الكعبة شاكرا لله ما وهبه وداعيا الله أن يحفظه ويحميه ثم رده إلى أمه مرة أخرى .

وأما عن تسميته فقد أشارت المصادر إلى أن عبد المطلب قام بتسميته محمدا فقد روى أن عبد المطلب إنما سماه محمدا لرؤيا رآها، زعموا أنه أرى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها، فقصها فعبرت له بمولود يكون

---

(١) فقه السيرة النبوية ص ٤٥ .

(٢) الاكتفاء حـ ١ ص ١٦٨ .

من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه محمدا مع ما حدثته أمه .[1]

وهذا الاسم لم يكن شائعا في العرب وقد تسمى به بعضهم حين شاع بين العرب وأهل الكتاب أن هناك نبيا قد حان وقته واسمه محمد ومن هؤلاء محمد بن سفيان بن مجاشع التيمي ومحمد بن أحيحه بن الجلاح وآخر بن ربيعة .

ومن الموافقات الجميلة أن يُفْهم عبد المطلب تسمية حفيده محمدا إنها تسمية أعانه عليها ملك كريم، ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام لذلك سألوه : لم رغب عن أسماء آبائه فأجاب : أردت أن يحمده الله في السماء وأن يحمده الخلق في الأرض، فكأن هذه الإرادة استشفافا للغيب فإن أحدا من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء على ما أدى وأسدى كما يستحق ذلك النبي العربي محمد ﷺ .[2]

وقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : إن لي أسماء ؛ أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي - أي على أثري وزماني رسالتي ونبوتي - وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد .[3]

## رضاعته :

لقد صح أن ثويبة مولاة أبى لهب أرضعته وثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب أخوه في الرضاعة [4] إلا أنه قد جرت عادة العرب سكان

(١) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٢) فقه السيرة ص ٦٣ .

(٣) صحيح البخاري جـ ٤ ص ٢٢٥، صحيح مسلم جـ ٥ ص ٢٠١ .

(٤) السيرة النبوية الصحيحة جـ ١ ص ١٠٢ .

الحواضر على إرسال أطفالهم إلى الصحراء حرصا منهم على تلقين أبنائهم أساليب الفصاحة والبلاغة، وخاصة أن مكة قد كثرت فيها الوفود التجارية وأبناء الدول الأخرى؛ مما يخشى منه العجمة على السنة الصغار، ففي البادية حيث السماء صافية والأرض منبسطة والهواء خال من أي تلوث، نشأ الطفل في بيئة صالحة لا تكدّرها شوائب المدن، ولا متطلبات الحضارة، وقد أقبلت المرضعات من البادية وفيهن حليمة بنت أبى ذؤيب من بني سعد بن بكر لتحصل كل واحدة منهن على طفل تقوم على إرضاعه وتنشنته في ذلك الجو الصحي، وفي مقابل ذلك كن يحصلن على قدر من المال فضلا عن الهدايا والألطاف التي يقدمها الآباء لهؤلاء المرضعات .

لقد عرض الطفل اليتيم على هؤلاء المرضعات فأبين أن يصحبنه وذلك ليتمه يقول ابن إسحاق "حتى قدمنا - أي حليمة ومن معها من النساء - مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها أنه يتيم، وذلك إنا أنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبي فكنا نقول : يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا غيري "[1]

وهكذا انصرفت المرضعات عن اصطحاب الطفل اليتيم؛ إلا إن حليمة بعد تجوالها وسعيها لم تظفر بطفل ومن ثم كرهت أن تعود إلى مضاربها خاوية الوفاض؛ ومن ثم رضيت أن تأخذ الطفل اليتيم ﷺ .

وكانت ظروف حليمة السعدية حين أقبلت إلى مكة سيئة غاية السوء تصفها حليمة بقولها "وفي سنة شهباء لم تبق لنا شيئا، قالت : فخرجت على أتان لي قمراء معنا شارف لنا - قمراء التي يميل لونها إلى

---

(١) إبن هشام حـ١ ص ١١٤ .

الخضرة والشارف الناقة المسنة - والله ما تبض - ما ترشح - بقطرة ولا ننام ليلتنا من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثدييي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ولكنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على اتاني تلك فلقد اذمت بالركب - اي تأخرت بهم - حتى شق عليهم ذلك ضعفا وعجفا" .[1]

هكذا صورت السيدة حليمة موقفها السيئ والظروف الصعبة التي واجهتها في ديار بني سعد وفي طريقها إلى مكة؛ إلا أن هذه الصورة تبدلت تماما وتحولت إلى أحسن حال وذلك بعد قبولها الطفل اليتيم والعودة به إلى مضارب بني سعد . وقد وصفت حليمة هذا الوضع بقولها : قالت - أي حليمة - فذهبت إليه فأخذته وما حملني على اخذه إلا إني لم أجد غيره، فلما أخذته رجعت إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا بها لحافل فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعا فبتنا بخير ليلة، يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قلت : والله إني لأرجو ذلك ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على شيء من حميرهم حتى إن صواحبي ليقلن : يا بنت أبى ذؤيب ويحك، أربعي علينا !! اليست هذه اتانك التي خرجت عليها ؟! فأقول لهن : بل والله إنها لهي فيقلن : والله إن لها شأنا" .[2]

هكذا لمست السيدة حليمة وشاهدت بعينها بركة الطفل اليتيم وما

---

(١) ابن هشام حـ١ ص ١١٤ .

(٢) الاكتفاء حـ١ ص ١٧٠ .

حدث لناقتها من شبع حتى أنها اشبعت حليمة وزوجها، وكذلك اتانها وما أصابه من حيوية ونشاط وسرعة في العودة، كل ذلك ببركة الطفل اليتيم ﷺ .

ولم يقتصر هذا الانتعاش على رحلة العودة، وإنما حلت البركة والنماء في مضارب بني سعد وقد روت حليمة ذلك بقولها : " قالت - أي حليمة - ثم قدمنا منازلنا من بني سعد ولا أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معها شباعا لبنا فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب فتروح أغنامهم جياعا ما تبضّ بقطرة لبن وتروح غنمي شباعا لبنا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان وفصلته .[1]

وهذه الآثار الملموسة التي حلت بديار بني سعد ومدى الرخاء والانتعاش الذي عمها إنما هو دليل على علو شأن رسول الله ﷺ ورفعة مرتبته عند ربه إذ بسببه ﷺ أكرم الله حليمة وأسرتها بل وعشيرتها وديارها .

إما إخوته ﷺ من الرضاعة فهم عبد الله بن الحارث وانيسة بنت الحارث وحذافة أو جذامة بنت الحارث - وهي الشيماء - لقب غلب على اسمها - وكانت تحضن رسول الله ﷺ وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعا في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوما وهو عند أمه حليمة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين : من جهة

(١) الاكتفاء حـ ١ ص ١٧١ .

ثويبة ومن جهة السعدية .[1]

وأما مرضعاته فأول من أرضعته أمه السيدة آمنة، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبى لهب ثم حليمة السعدية .

هذا الخير العميم الذي عاشته السيدة حليمة وعشيرتها دفعها إلى استئذان السيدة آمنة حين زارتها في مكة بالعودة بالطفل اليتيم مرة أخرى إلى مضاربها "فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شئ على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بني عندي حتى يغلظ فإني أخشى عليه وباء مكة فلم تزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به" .[2]

## حادثة شق الصدر :

عاد الطفل اليتيم ﷺ إلى ديار بني سعد مرة أخرى تحقيقا لرغبة مرضعته السيدة حليمة التي حرصت كل الحرص على بقائه معها في مضاربها نظرا للخير العميم الذي عم المنطقة ببركته، ولم يمكث الطفل اليتيم طويلا إذ وقعت له حادثة شق الصدر في الرابعة أو الخامسة من عمرة، تقول السيدة حليمة عن هذه الحادثة فوالله إنه بعد مقدمنا به مع أخيه لفى بهم لنا - إليهم : الصغار من الغنم -، خلف بيوتنا إذا أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه - يخلطانه - قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه قالت : فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا : مالك يا بنى؟ قال : جاءني

---

(۱) زاد المعاد حـ ۱ ص ۱۹ .

(۲) الاكتفاء حـ ۱ ص ۱۷۱ .

رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا وقال لي أبوه : يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به" .[1]

أسرعت السيدة حليمة بالطفل اليتيم صلى الله علية وسلم إلى أمه في مكة التي أدهشها رجوعه مع حرص السيدة حليمة السابق على بقائه معها في مضارب بني سعد، فلما تبينت السيدة آمنة حقيقة الموضوع طمأنت السيدة حليمة وأن ابنها هذا ما للشيطان عليه سبيل، وأنه سوف يكون له شأن عظيم في المستقبل .

وقد أشار العلماء والباحثون أن شق الصدر حقيقي وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها، فأما قبل البعثة فلكي تكون إرهاصا للنبوة وبشيرا بما ينتظره من مركز كبير ومقام كريم؛ وأما بعد البعثة فلكي تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التي كرم الله بها نبيه ﷺ والتي تؤيد صدق دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادثة شق الصدر لم تقع حقيقة وإنما يقصد منها ما يفهم من قوله تعالى "ألم نشرح لك صدرك" فهي بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول ﷺ من الشوائب التي توجد في نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .[2]

والراجح في هذه الحادثة أنها حدثت لرسول الله ﷺ لأنها جاءت من مصادر موثوق بها وقد تواترت الأخبار بها فضلا عن أنها في حدوثها معجزة للطفل اليتيم وتهيئة له ولمن حوله بشأنه العظيم ودوره في

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ١٧٢ .

(٢) قراءة في السيرة النبوية ص ١٦٥ .

تغيير سيرة البشرية والأخذ بيدها من الضلالة والكفر إلى نور الإيمان والإسلام.

كما أن تطهير قلب النبي ﷺ من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثما ولم يسجد لصنم رغم شيوع ذلك في قومه. (١)

يضاف إلى كل ما سبق في أسباب إعادة الطفل اليتيم إلى أمه ما لاحظته السيدة حليمة من استفسار بعض العرافين واليهود عنه، فقد حضرت السيدة حليمة به سوق المجاز وبها يومئذ عراف من هوازن يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم فلما نظر إلى رسول الله ﷺ والى الحمرة في عينيه والى خاتم النبوة : صاح يا معشر العرب فاجتمع إليه أهل الموسم فقال : اقتلوا هذا الصبي، وانسلت به حليمة فجعل الناس يقولون : أي صبى هو؟ فيقول : هذا الصبي فلا يرون شينا، قد انطلقت به أمه فيقال له : ما هو؟ فيقول : رأيت غلاما وآلهته، ليغلبن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم، فطلب بعكاظ فلم يوجد. (٢)

## وفاة أمه :

وهكذا عاد الطفل اليتيم ﷺ إلى أمه لترعاه، وتكمل تربيته وتنشئته غير أن الطفل اليتيم لم ينعم طويلا بهذه الرعاية إذ توفت أمه.

فقد كان من عادتها أن تذهب كل عام لزيارة قبر زوجها والد النبي المدفون بيثرب، ففي العام السادس من مولده ﷺ ذهبت كعادتها إلى أنها

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ١٠٤.

(٢) الاكتفاء حـ١ ص ١٧٥.

مرضت في قرية تسمى الأبواء وهي تبعد ثلاثة وعشرين ميلا عن يثرب وماتت تاركة الصغير وحاضنته أم أيمن يقول ابن إسحاق " أن أم رسول الله صلى الله عليه سلم آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدى بن النجار تزيره إياهم فماتت وهي راجعة به إلى مكة " . [١]

## كفالة جده :

صار الصبي الصغير ﷺ يتيم الأبوين، وانتقلت كفالته ورعايته إلى جده عبد المطلب الذي بذل جهدا كبيرا في تخفيف اليتم عن نفس الصبي الصغير ، فكان يفضله على غيره من أبنائه ويقربه إليه ويفرح بوجوده .

وكان من عادة عبد المطلب أن يجلس على فراش في فناء الكعبة فلا يقربه أحد إلا النبي صلوات الله وسلامه عليه الذي يجلس بجواره يقول ابن هشام : " فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال : فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام صغير - أي طفل لم يع الأمور البعيدة - حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأي ذلك منهم : دعوا ابني فوالله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع " . [٢]

ولم يكن الاهتمام من عبد المطلب قاصرا على تقريبه النبي إليه في مجلسه بل تعداه إلى المأكل والمشرب، فكان لا يأكل طعاما إلا

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ١١٨ .

قال : على بابني فيؤتى به إليه ليشاركه الطعام والشراب بل وكان يتفقده في كل وقت، قالت أم أيمن حاضنة الرسول : كنت أحضن رسول الله ﷺ فغفلت عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول : يا بركة قلت : لبيك، قال أتدرين أين وجدت ابني - يقصد النبي ﷺ - قلت : لا أدرى ؟! قال : وجدته مع غلمان قريبا من السدرة، لا تغفلي عن ابني فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبي هذه الأمة وأنا لا آمن عليه منهم " [1].

وبطبيعة الحال كان الدافع إلى هذا المسلك من جانب عبد المطلب إحساسه بوحدة الصبي الصغير بعد أن فقد والديه، فأراد أن يحوطه بحبه ويعوضه الحنان المفقود، ومن ناحية أخرى كانت الرعاية والاهتمام المتزايد للنبي ﷺ عاملا من عوامل زيادة مكانته ومحبته في قلوب أسرته فضلا عن زعماء قريش ورجالاتها، إلا أن النبي ﷺ ما لبث أن فقد عطف الجد الذي توفي في العام السابع أو الثامن من مولد النبي ﷺ .

## كفالة عمه أبى طالب :

انتقلت كفالة النبي ﷺ إلى عمه أبى طالب وذلك بالرغم من أنه لم يكن غنيا، وربما كان السبب في ذلك أن عبد الله والد النبي ﷺ كان شقيقا لأبى طالب فهما أخوان لأب وأم؛ يضاف إلى هذا وصية عبد المطلب لأبى طالب بالاهتمام والعناية بالنبي ﷺ .

وقد عامل أبو طالب ابن أخيه محمدا معاملة خاصة إذا أحاطه بكل الحب والحنان، وفضله على أبنائه يقول الواقدي "فكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعا وفرادى لم يشبعوا؛ وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ

---

(1) الاكتفاء، حـ ١ ص ١٧٧ .

شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يعشيهم أو يغديهم يقول : كما أنتم حتى يأتي ابني فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله ﷺ أولهم ثم يناول العيال القعب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من العقب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا فيقول أبو طالب : إنك لمبارك" .[1]

وكان أبو طالب لشدة حبه لابن أخيه يتركه يتصرف كيفما شاء مع سعادة أبى طالب بكل تصرفاته يقول ابن سعد " كان أبو طالب تلقى له وسادة يقعد عليها فجاء النبي ﷺ وهو غلام فقعد عليها فقال أبو طالب : واله ربيعة ابن ابن أخي ليحسّن بنعيم " .[2]

وقد بادل الصبي الصغير عمه حبا بحب، وتعلق قلبه الطاهر الشريف بعمه، وأدرك مع صغر سنه معاناة عمه أبى طالب من كثرة العيال وقلة المال فاشتغل برعي الأغنام مع أقرانه ومن هم في سنه فكان يخرج إلى الصحراء بقطيع الأغنام لحساب بعض أهل مكة على قراريط وهي أجزاء من الدينار والدرهم وقد ذكر النبي ﷺ ذلك فيما بعد قال "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه : وأنت فقال نعم وكنت أرعاها على قراريط لأهل مكة .[3] وفي رواية أخرى : كان بين رعاة الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع فاستطال عليهم أصحاب الإبل فبلغنا والله أعلم أن النبي ﷺ قال : بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعى غنم وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد" .[4]

---

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) الطبقات حـ ١ ص ١٢٠ .

(٣) صحيح البخارى حـ ٣ ص ١١٦ .

(٤) طبقات ابن سعد حـ ١ ص ١٢٦ .

ولم تكن مهنة رعى الأغنام تعنى كما ذكر بعض الباحثين مناط زراية أو احتقار بل كانت مهنة يزاولها أعرق العرب أصلا، وأطيبهم منبتا، وفي نفس الوقت فمهنة الرعي أكسبت النبي ﷺ مزايا عظيمة في تربية النفس وتقويم الخلق، ورياضة الطبع على سياسة الرعية التي هي أقرب شبها بأحوال الغنم ففيها القوى الباغي المتطاول على حق الغير، وفيها الضعيف المدفوع عن حقه، وفيها الآكل والجائع، والمستقيم والجامح لكونها أضعف البهائم في خلقتها وخصالها الحيوانية، وتستوجب من الراعي الرعاية واللطف والسهر على تربيتها والاهتمام بتنميتها والمحافظة على أسباب تناسلها واليقظة في شئونها ليلا ونهارا مما يدرب الرسول ﷺ وغيره من النبيين على إحسان رعى البشر ورعايتهم والاهتمام بشئونهم والصبر عليهم وطول البال والأناة والتريث وزجر الباغي وجبر كسر الضعيف، هذا إلى ما في رعى الأغنام من قضاء النهار وبعض الليل في البادية حيث السماء صافية والشمس المشرقة والهواء النقي وإطالة التأمل في آيات الله الكونية.[1]

## رحلة النبي ﷺ إلى الشام :

حين بلغ النبي ﷺ الثانية عشرة من عمره، خرج مع عمه أبى طالب في رحلة تجارية إلى الشام بسبب تشبث الصبي بعمه فضلا عن حرص العم على إتاحة الفرصة للصبي للإطلاع على العالم الخارجي واكتساب الخبرة في عملية البيع والشراء، وقد أشار ابن إسحاق إلى هذه الحادثة بقوله "ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل صب به - صب به : تعلق به - رسول الله ﷺ فيما يزعمون فرق له أبو طالب : والله

(١) قراءة في السيرة النبوية ص ١٧٠ .

لأخرجن به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبدا أو كما قال .

فخرج به معه، فلما نزل الركب بصري في أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له، وكان إليه علم النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب؛ إليه يصير علمهم عن كتاب منها، فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر .

أما بحيرى الراهب فلا تكاد المصادر تتفق على شيء بشأنه بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس وأخرى جرجس وثالثة سرجيس ورابعة سرجس، ومرة أنه مشتق من الآرامية معناه المنتخب وأخرى من السريانية معناه العالم المتبحر ومرة ينسب لقبيلة عبد القيس .[1]

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأي رسول الله ﷺ في الركب حين أقبلوا وغمامة تظلله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها .

فلما رأي ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال : إن قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم .

فقال رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك اليوم لشأنا، ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟

قال له بحيرى : صدقت، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف، وقد

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ ١ ص ١١١ .

أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، فقال : يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي .

قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف في رحالهم، قال : لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش : واللات والعزى إن كان للؤم أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفته .

حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : لا تسألني باللات والعزى شيئا، فوالله ما بغضت شيئا قط بغضهما، قال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه . قال : سلني عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأي خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب، فقال : ما هذا الغلام منك، قال : ابن أخي قال : فما فعل أبوه؟ قال : مات وأمه حبلى به قال : صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه

وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته .[1]

وفي رواية أخرى " وعرف - أي بحيرى الراهب - رسول الله ﷺ بصفته فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين فقال أبو طالب : وما علمك بذلك؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدا ولا تسجد إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة وأسفل غضورف كتفه مثل التفاحة وإنا نجده في كتبنا " .[2]

**يلاحظ من النص السابق عدة أمور منها :**

أ- علاقة الحب الشديد والمودة المتبادلة التي تربط بين الصبي الكريم وبين عمه، حتى أن أبا طالب لم يستطع رد طلب الصبي الكريم حين طلب منه الخروج معه إلى الشام وفي نفس الوقت فهذه الرحلة سوف تصقل تجارب الصبي وتطلعه على عالم غير العالم الذي يعيش فيه .

ب- معرفة علماء أهل الكتاب ومنهم بحيرى بقرب ظهور نبي يعيد الناس إلى صوابهم وذلك بعبادة الإله الواحد المستحق للعبادة وترك عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات .

ج- ملاحظة بحيرى بعض الظواهر التي لم تكن تحدث من قبل وذلك حين رأي الغمامة تظلل الصبي الكريم والنباتات كالشجر والجمادات كالصخر والحجر تسجد للصبي الكريم كلما مر بها .

د- قبل أن يعلن معرفته بالنبي، استضاف القوم ومنهم الصبي الصغير

---

(١) الاكتفاء حـ ١ ص ١٩٢ .

(٢) ابن هشام حـ ١ ص ١٨٠ .

واخذ يلحظه لحظا شديدا في حركاته وسكناته وكل تصرفاته ثم أراد ان يستوثق من الصبي نفسه بأن ألقى عليه عدة أسئلة ومنها تأكد أنه هو النبي المذكور عندهم في كتبهم .

هـ- حين تأكد - أي بحيرى الراهب - من ذلك أخبر عمه أبا طالب بالانصراف بالغلام حتى لا يصيبه شر على يد اليهود وغيرهم، ومن ثم عاد به أبو طالب مسرعا إلى مكة حفاظا على حياة الصبي .

ومن ناحية أخرى فهذه الحادثة تشير إلى ما سبق أن ذكرناه من ترقب أهل الكتاب سواء من النصارى أو اليهود لظهور النبي ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، وكانوا يذكرون ذلك في أنديتهم ومجالسهم مستندين إلى ما ورد في الإنجيل والتوراة؛ يؤكد ذلك ما رواه علماء السيرة أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج قبل مبعثه ويقولون : إن نبيا سيبعث قريبا سنتبعه فنقتلكم معه مثل عاد وإرم، ولما نكثوا عهدهم أنزل الله في ذلك قوله ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.[1]

وروى الطبري وغيره أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وقد كان كتابيا فأسلم : أتعرف محمدا ﷺ كما تعرف ابنك ؟ فقال : نعم وأكثر، بعث الله أمينة في سمائه إلى أمينة في أرضه بنعته فعرفته، أما ابني فلا

(١) البقرة آية ٨٩ .

أدرى ما الذي قد كان من أمه، ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي ﷺ تتبعه خبر النبي ﷺ وصفاته من الإنجيل والرهبان وعلماء الكتاب .

ولا ينافي هذا أن كثيرا من أهل الكتاب ينكرون هذا العلم، وأن الأناجيل المتداولة خالية عن الإشارة إلى ذكر النبي ﷺ، فمن المعلوم بالبداهة ما تقلب على هذه الكتب من أيدي التبديل والتغيير المتلاحقة وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (البقرة:٧٨، ٧٩).[1]

وقد حاول بعض المستشرقين الذين لا يتركون فرصة إلا وهاجموا فيها الإسلام ونبي الإسلام ﷺ إذ ادعى بعضهم أن بحيرى الراهب هو واضع أسس الإسلام، وآخر يقول بأن النبي تأثر خلال رحلته باليهود والنصارى وعرف الكثير من قصصهم وذلك بالإطلاع على كتبهم وغير ذلك من الأوهام والأباطيل، فكيف يتعرف الصبي الصغير وهو في هذا السن الصغيرة - إثنا عشر عاما - كما أنه أمي لا يعرف القراءة أو الكتابة أن يطلع على كتبهم وهي بلغة غير عربية ويتعلم منها في تلك الرحلة التجارية القصيرة ؟! فضلا عن أن الرواية نفسها أشارت إلى أن بحيرى وهو راهب نصراني عرف علامات النبوة فيه ونصح عمه بالابتعاد عن بصري والرجوع به مسرعا إلى مكة .

هؤلاء المستشرقون والباحثون يقبلون ويرفضون الروايات بحسب أمزجتهم الشخصية، وأهوائهم المريضة، لا بحسب ما ثبت عندهم من

(١) فقه السيرة النبوية ص ٤٩ .

أدلة راجحة أو بمقياس علمي ثابت رصين لا يميل مع الأهواء ولا يتواطأ مع الباطل ويدور في فلكه حيث دار، وهكذا يتخبط المستشرقون فينكرون وقائع وأحداثا زاعمين أنها أساطير ويثبتون بعض الوقائع، ويصابون بداء الجهل والتغابي في فهمها ويستنطقونها بما لا تنطق به .[1]

## الرسول ﷺ في شبابه :

شب رسول الله ﷺ محفوظا من الله تعالى، بعيدا عن أقذار الجاهلية وعاداتها، فكان أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأشدهم حياء وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأبعدهم عن الفحش والبذاءة، حتى لقب بين مشركي قريش بالأمين فقد عصمه الله تعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه من عادات الجاهلية، ومما لا يرون به بأسا ولا يرفعون له رأسا، وكان واصلا للرحم حاملا لما يثقل كواهل الناس مكرما للضيوف عونا على البر والتقوى كما كان يأكل من نتيجة عمله [2] .

وكان رسول الله ﷺ يحدّث عما كان يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال ﷺ "لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لا كم ما أراه لكمة وجيعية ثم قال : شد عليك إزارك قال : فأخذته فشددته على، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علّى من بين أصحابي" .[3]

وهكذا حفظه الله من أن تنكشف عورته كباقي الغلمان وذلك صونا

---

(١) قراءة في السيرة النبوية حـ ١٧٥ .

(٢) السيرة النبوية ص ١٢٢ .

(٣) الاكتفاء حـ١ ص ١٩٤ .

له ﷺ وحفظا وهو ﷺ كبشر ولم يبعث بعد، وله نوازعه في التطلع إلى حفلات السمر وغيرها إلا أن الله سبحانه وتعالى حفظه من هذا أيضا ويحكي النبي ﷺ عن ذلك فيقول : ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين :

الأولى أنه كان في غنم يرعاها هو وغلام من قريش فقال لصاحبه : اكفني أمر الغنم حتى آتى مكة - وكان بها عرس فيه لهو، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه النوم فنام حتى ضربته الشمس عصمة من الله له، والمرة الأخرى مثل الأولى سواء .[1]

وهو ﷺ لم يسجد لصنم قط، كما أنه لم يحضر الاحتفالات والأعياد التي كانت تقيمها قريش لأصنامها، وفي المرة التي أرغمه عمه أبو طالب على ذلك انصرف قبل أن يصل إلى مكان الاحتفال ثم عاد مرعوبا فزعا، تقول أم ايمن حاضنته : "كانت بوانه صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يوما إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك .

قالت : حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتهم ويقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوبا فزعا، فقلن له : ما دهاك؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لمم .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت ؟

---

(١) المصدر السابق حـ١ ص ١٩٤ .

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ صلوات الله وسلامه عليه .[1]

ولم تستطع البيئة الجاهلية التي ولد بها وعاش في أحضانها ولا تقاليدها الفاسدة أن تؤثر فيه ﷺ، فقد عصمه الله من كل ذلك، فما عرف عنه في طفولته ولا في شبابه أنه قدس آلهة قومه، ولم يحدثنا التاريخ أن محمدا حضر موسم الحج منذ أن عرف أن قومه يعبدون الأصنام ويتقربون لها بالقرابين، كما عرف عنه أنه رفض أكل ما ذبح على النصب وأنه لم يشرب الخمر قط ويروى في ذلك قوله ﷺ "ما عبدت صنما قط، وما شربت خمرا قط ومازلت أعرف أن الذي هم عليه كفر" .[2]

وهكذا نشأ الرسول ﷺ معصوما من أدران الجاهلية وعاداتها القبيحة فهو ﷺ لم يتلق علما على راهب أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا على عهده، ولكنه بعقله الخصب وفطرته الصافية، طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات فعاف ما ساءه من خرافة ونأي عنه، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم فما وجده حسنا شارك فيه بقدر وإلا عاد إلى عزلته يتابع النظر الدائم في ملكوت السماوات والأرض وذلك أجدى عليه من علوم هي بالجهل المركب أشبه ومن مجتمع فقد الهداة من زمن يضم ضلالا جديدا إلى الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح .[3]

---

(١) الاكتفاء جـ١ ص ١٩٥ .

(٢) تاريخ العالم الإسلامي جـ١ ص ٥٣ .

(٣) فقه السيرة ص ٧٥ .

## حرب الفجار :

وحين بلغ النبي ﷺ الخامسة عشرة من عمره، شارك مع أعمامه في حرب الفجار يقول ابن هشام "وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم وقال رسول الله ﷺ : كنت انبل مع أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها" . [1]

وهذه الحرب نشبت بين قريش وكنانة من ناحية وقيس عيلان من ناحية أخرى، أما قائد قريش وكنانة فهو حرب بن أمية وذلك لمكانته وشرفه في قومه، وكانت الحرب سجالا بين الطرفين وانتهت بانتصار قريش وكنانة، وإنما سميت حرب الفجار لاستحلال الفريقين القتال في الأشهر الحرم .

وقد أدركت قريش الخطأ الفادح الذي وقعت فيه باشتراكها في المعارك في الأيام الحرم، ومن ثم دعت إلى توقيع حلف واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، اجتمع هؤلاء في دار عبد الله بن جدعان التيمي نظرا لسنه وشرفه، واتفق المجتمعون وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما سواء أكان من أهلها أو من غيرها إلا قاموا معه وتساندوا في رفع الظلم عنه .

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف وشاهد ما دار فيه وقال عنه بعد مبعثه "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعي به في الإسلام لأجبت" . [2]

---

(١) ابن هشام حـ ١ ص ١٢٤ .

(٢) البداية حـ ٢ ص ٢٩٣ .

## زواجه ﷺ من خديجة :

حتى إذا بلغ النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره، اشتغل بتجارة السيدة خديجة وهي امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع لهم المال مضاربة، وقد سمعت بشرف النبي وسلوكه القويم وتلقبه بلقب الأمين .

وفي نفس الوقت كان أبو طالب يعاني من ضائقة مالية لكثرة أبنائه، ومن ثم قال أبو طالب للنبي ﷺ : "يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان على وألحت علينا سنون منكرة وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيرها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما بلغها عنك من طهارتك؛ وإن كنت لأكره ان تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا تجد من ذلك بدا" [1]

وكان جواب النبي ﷺ على طلب عمه قوله : فلعلها ترسل إلى في ذلك، فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولى غيرك فتطلب أمرا مدبرا .

هذا الحوار بين النبي ﷺ وبين عمه أبى طالب بلغ السيدة خديجة التي كانت تعرف الكثير عن خلق رسول الله ﷺ وطهارته وامانته وصدقه ومن ثم أرسلت إليه وقالت : إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم امانتك وكرم اخلاقك، وانا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ففعل رسول الله ﷺ ولقي أبا طالب وذكر له ذلك

---

(1) الاكتفاء، جـ ١ ص ١٩٦ .

فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك .[1]

هذا هو أول اتصال مباشر بين النبي ﷺ والسيدة خديجة، أن يعمل في تجارتها الذاهبة إلى الشام وسوف تعطيه ضعف ما تعطى غيره من الأجر وذلك لسمعته الطيبة وأخلاقه النبيلة .

خرج الرسول الكريم ﷺ برفقة ميسرة - خادم السيدة خديجة - الذي حرص على مراقبة الرسول ﷺ في تحركاته وسكناته وبيعه وشرائه يقول ابن إسحاق "حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟

فقال ميسرة : رجل من قريش من أهل الحرم فقال الراهب : ما نزل - أي نزل الآن - تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له : في عينيه حمرة؟ قال ميسرة : نعم لا تفارقه . فقال الراهب : هو هو؛ وهو آخر الأنبياء، وياليت إني أدركه حين يؤمر بالخروج فوعى ذلك ميسرة .

ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته التي خرج بها واشترى سلعة فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة فقال الرجل : أحلف باللات والعزى فقال رسول الله ﷺ : ما حلفت بهما قط فقال الرجل : القول قولك، ثم قال لميسرة وخلا به : يا ميسرة هذا نبي والذي نفسي بيده إنه لهو، تجده أحبارنا منعوتا في كتبهم فوعى ذلك ميسرة" .[2]

هذا ما عرفه ميسرة عن الرسول ﷺ خلال بيعه وشرائه في سوق بصرى وأن أكثر من واحد أكد نبوّة الرسول ﷺ وأن زمانه قد حان بل

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) الاكتفاء، جـ ١ ص ١٩٧ .

واكثر من ذلك فقد لاحظ ميسرة نفسه أنه إذا كانت الهاجرة واشتد الحر جاء ملكان يظلانه من الشمس وهو على بعيره .

عادت الرحلة وقد حققت نجاحا كبيرا، وأسرع ميسرة إلى سيدته خديجة يخبرها بما سمع ورأي بعينيه من فضل ورفعة وأنه النبي المرتقب؛ كل هذه الفضائل والمعلومات علمت بها السيدة خديجة مضافا إليها ما سبق أن علمته عن سلوكه وأمانته في مكة ومن ثم رغبت في الزواج منه وذلك بالرغم من أن أكثر من شريف في قريش ووجيه بين عشيرته عرض عليها الزواج نظرا لأنها كانت امرأة حازمة شريفة لبيبة كما أنها أوسط قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا، إلا أن السيدة خديجة امتنعت عن الزواج بأي واحد منهم؛ وطلبت هي الزواج من سيدنا رسول الله ﷺ .

وقد سبق للسيدة خديجة الزواج فقد تزوجت عتيق بن عائذ فولدت له بنتا، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن البناش التميمي وولدت منه ابنها هندا وبنتا : أما الرسول الكريم ﷺ فكانت أول زوجة له ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

رغبت السيدة خديجة في الزواج من رسول الله ﷺ وأخبرته برغبتها هذه يقول ابن إسحاق "فقالت - أي السيدة خديجة - له فيما يزعمون : يا بن عمى إني قد رغبت فيك لقرابتك وصيتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك .

فلما قالت له ذلك، ذكر ذلك لأعمامه فخرجوا معه وتمت الخطبة وقد وقف أبو طالب عم النبي في هذا الحفل الكريم يذكر فضائل ابن أخيه ومما قاله : "الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضضئ - معدن وأصل- معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا

الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مال، وهو والله بعد هذا له بناء عظيم وخطر جليل .

فأجابه عم خديجة عمرو بن أسد بن عبد العزى وقال : محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب يخطب خديجة ابنة خويلد، هذا الفحل لا يقرع أنفه - ومعناها أن محمدا كفء كريم لا يرد .(١)

كان عُمْر النبي ﷺ حين تزوجها خمسا وعشرين سنة أما هي فقد كان عمرها أربعين سنة، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة ويذهب ابن إسحاق إلى أنها كانت في الثامنة والعشرين من عمرها .

وقد أنجبت السيدة خديجة رضي الله عنها كل أبنائه عدا إبراهيم يقول ابن سعد : "كان أول من ولد لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة القاسم وبه كان يكنى، ثم ولد له زينب ثم رقيه ثم فاطمة ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبد الله فسمي الطيب والطاهر وأمهم جميعهم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . . . فكان أول من مات من ولده القاسم ثم مات عبد الله بمكة فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع ولده فهو أبتر فأنزل الله تبارك وتعالى : إن شانئك هو الأبتر" .(٢)

هكذا تم هذا الزواج المبارك، ونالت السيدة خديجة شرفا ما بعده شرف بزواجها برسول الله ﷺ، وأما فضلها ومنزلتها في حياة النبي ﷺ فقد ظلت لخديجة مكانة سامية عند رسول الله ﷺ طوال حياته، وقد

---

(١) قراءة في السيرة النبوية ص ١٨٦ .

(٢) طبقات ابن سعد جـ١ ص ١٣٣ .

ثبت في الصحيحين أنها خير نساء زمانها على الإطلاق .

روى البخاري ومسلم أن عليا ﷺ سمع رسول الله ﷺ يقول : خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة ﵂ أنها قالت : ما غرت من نساء النبي ﷺ إلا من خديجة وإني لم أدركها، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول : أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوما فقلت : خديجة فقال رسول الله ﷺ : إني قد رزقت حبها .

وروى أحمد والطبراني من طريق مسروق عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها فذكرها يوما من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا قد أبدلك الله خيرا منها، فغضب ثم قال: لا والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء .[1]

وقد حاول المستشرقون ومن سار على دربهم التهجم على رسول الله ﷺ في شخصه وسلوكه وصوروه - خاب قولهم وساء ظنهم - في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد، وموضوع زواجه عليه الصلاة والسلام هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماما، فالرجل الشهواني لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله والرجل الشهواني لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب من ضعف عمره ثم يعيش معها دون أن تمتد

(١) فقه السيرة ص ٥٣ .

عينه إلى شيء من حوله وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل في مدارك الشيخوخة .[1]

## بناء الكعبة :

حين بلغ النبي ﷺ الخامسة والثلاثين من عمره، وقع بمكة حدث جلل وهو إعادة بناء الكعبة التي تعرضت لسيل كبير فهدّم أركانها، فضلا عن أن بعض اللصوص استطاعوا سرقة بعض كنوز الكعبة من خلال فتحة السقف إذ لم يكن لها سقف، ومن ثم رأت قريش إعادة بنائها وتسقيفها يقول ابن إسحاق "وإنما حمل قريشا على بنائها أن السيل كان أتى من فوق الردم الذي صنعوا فأخربه، فخافوا أن يدخلها الماء، وكان رجل يقال له مليح سرق طيب الكعبة وفي رواية أخرى سرق كنز الكعبة . فأرادوا أن يشيدوا بنيانها، وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا وأعدوا لذلك نفقة وعمالا ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر من أن يمنعهم الله الذي أرادوا" .[2]

وقد شجع أهل مكة على إعادة البنيان توفر الأخشاب إثر تحطم سفينة عند ساحل البحر فاشتروا خشبها، كما استعان أهل مكة برجل رومي يدعى باقوم كانت له خبرة كبيرة بالبناء .

وقبل الشروع في البنيان قام أحد زعماء مكة وهو أبو وهب بن عمرو ابن عائذ وقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلوا فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ .

(٢) ابن هشام حـ ١ ص ١٢٨ .

وهم يريدون بذلك أن يكون العمل خالصا لله وأن لا تشوبه شائبة من مال حرام أو ظلامة .

قسمت قريش العمل في هدم الكعبة وإعادة بنائها على بطونها وعشائرها فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ولبني عدي بن كعب - رهو الحطيم - والرهو ما اطمأن من الأرض وارتفع ما حوله .

حين بدأوا في عملية الهدم، هاب القرشيون الإقدام على ذلك لقداسة الكعبة ومكانتها فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول لم ترع - أي لم تفزع الكعبة - ويقال لم نزغ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير[1] فلما لم يصبه شيء؛ شارك الآخرون في عملية الهدم .

حتى إذا كمل البناء، وأرادوا وضع الحجر الأسود مكانه، هنا اختلفت الأسر والعشائر، فيمن يكون له هذا الفضل والشرف، وبدأت نذر الشر والفتنة تقع بينهم يقول ابن إسحاق : " ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تجاوزوا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٠ .

لعقة الدم " .[1]

استمر هذا التربص والجو المشحون بنتائج خطيرة ونذر الشر تسيطر على سماء مكة وخاف العقلاء على مستقبل قريش ووحدتها حتى برز منهم صوت عاقل دعاهم إلى حل وسط حين قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم ففعلوا .

وقد أراد الله بمكة وأهلها خيرا حين كان أول داخل عليهم هو الرسول الكريم ﷺ فانشرحت صدورهم وهدأت نفوسهم وقالوا : هذا الأمين، رضينا، هذا محمد، وقد وفق الله رسوله إلى الحل الأمثل حين قال لهم النبي ﷺ : هلم إليّ ثوبا فأتى به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده الشريفة ﷺ ثم بنى عليه .

وهكذا عالج الرسول ﷺ الموقف المتأزم، ورضي الجميع بما صنعه النبي ﷺ، وهذا يكشف بوضوح عن مدى حكمة النبي ﷺ في تدبير الأمور وسياسة القضايا وقطع دائرة الخصومات، كما أن هذه الحادثة تبرز مدى سمو منزلة النبي ﷺ بين رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم فقد كان ملقبا عندهم بالأمين وكان محبوبا منهم كلهم، وكانوا لا يرتابون في صدقه إذا حدث وفي كريم أخلاقه إذا عومل، وفي عظيم إخلاصه إذا ما استعين به واعتمد عليه .[2]

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٣١ .

(٢) فقه السيرة ص ٥٩ .



# الفصل الثالث

# البعثة الشريفة والمعارضة المكية

## إرهاصات الدعوة :

في هذه الفترة الزمنية، كانت كل الدلائل تشير إلى وقوع حدث هام، وبعبارة أخرى كانت المنطقة في حاجة إلى من يخلصها من حيرتها التي ترددت فيها، وقد تجمعت عدة عوامل لتجعل من مكة المنطلق لهذا الحدث الهام .

فمكة كما سبق أن أشرت أصبحت ملتقى القوافل التجارية، وقد زاد غنى أبنائها نتيجة ممارستهم الأعمال التجارية، يضاف إلى ذلك أنها أصبحت محطة رئيسية في طريق القوافل القادمة من الجنوب أو الشمال؛ كما وسعت من صلاتها التجارية مما عاد عليها بالأموال الطائلة .

وكانت مكة ملتقى اللهجات العربية المختلفة نظرا للندوات السنوية التي كانت تعقد فيها بعد الفراغ من موسم الحج والتي يلتقي فيها الشعراء والخطباء ليتحدثوا بما عندهم، وكان هذا اللقاء السنوي عامل مزج للهجات المختلفة وتوحيدا للهجة متعارف عليها بين القبائل المختلفة وهى لهجة قريش .

يضاف إلى ذلك تلك المكانة الدينية التي نالتها قريش بحكم جوارها للبيت المكرم وحراستها للكعبة وإشرافها على الحج في كل عام

وصيانتها لأصنام العرب، كل هذا أدى إلى مكانة متميزة لمكة بين غيرها من الحواضر .

وبجانب ذلك فقد شاع في شبه الجزيرة وما حولها أنباء عن مبعث نبي يوحد القبائل ويجمعها في أمة واحدة، وقد تعددت المصادر التي اذاعت هذه الأخبار يقول ابن إسحاق "وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه" .[1]

فكان الكهان يتحدثون ويخبرون بوقوع حدث كبير وظهور نبي يقضى على هذه الضلالات معتمدين في ذلك على ما تأتيهم به الجن والشياطين من أخبار وذلك قبل أن يمنعوا من ذلك، فلما أذن الله بمولده ومبعثه صرفت الجن والشياطين عن الاستماع يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ .[2]

وكذلك تناقل اليهود المعاصرون لمولد الرسول الكريم ﷺ أنباء اقتراب ظهوره، وكانوا يقررون صفاته وعلاماته في كتبهم يقول ابن كثير "قال ابن إسحاق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله تعالى وهداه لنا - أن كنا نسمع رجالا من يهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان؛ وكانوا

---

(١) الاكتفاء. حـ١ ص ٢١٣.

(٢) سورة الجن آية ٦-٩.

أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا يزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرا نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله ﷺ حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هذه الآية ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (البقرة ٨٩) .[1]

كما ذكر الواقدي عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . فقال : أجل إنه لموصوف في التوراة بصفته في الفرقان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأحزاب ٤٥) وحرزا للأميين أنت عهدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، يفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، قال عطاء : ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفا في حرف" .[2]

وذكر الواقدي عن النعمان السبئي قال : وكان من أحبار اليهود باليمن فلما سمع بذكر النبي ﷺ قدم عليه فسأله عن أشياء ثم قال : إن أبي كان يختم على سفر يقول : لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه فقال نعمان : فلما سمعت بك فتحت

---

(١) البداية حـ ٢ ص ٣٠٨.

(٢) الاكتفاء حـ ١ ص ٢٦٠.

السفر فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنك خير الأنبياء وأمتك خير الأمم واسمك أحمد ﷺ وأمتك الحمادون، قربانهم دماؤهم، وأنا جيلهم في صدورهم، لا يحضرون قتالا إلا وجبريل معهم يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على أفراخه .

ثم قال : إذا سمعت به فأخرج إليه وآمن به وصدق به فكان النبي ﷺ يحب أن يسمع أصحابه حديثه فأتاه يوما فقال له النبي ﷺ : يا نعمان حدثنا، فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرني رسول الله ﷺ يبتسم ثم قال : أشهد أني رسول الله .[1]

كما كانت النصارى تترقب ظهور النبي ﷺ إذ ذكرت كتبهم صفته ودعوته وانه خاتم الرسل والأنبياء يقول ابن هشام وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتابا عندهم فكلما مات رئيس أفضت الرياسة إلى غيره ختم على ذلك الكتاب خاتما مع الخواتم التي قبلها ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشى فعثر فقال ابنه : تعس الأبعد يريد النبي ﷺ فقال له أبوه : "لا تفعل فإنه نبي واسمه في الكتب فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد ذكر النبي ﷺ فأسلم فحسن إسلامه فحج" .[2]

أما انجيل برنابا فيتضمن اعترافات واضحة وصريحة بنبوة النبي ﷺ منها "وقد جاء الأنبياء إلا رسول الله الذي سيأتي بعدي لأن الله يريد ذلك حتى أهيئ طريقه "، ومنها " فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها لا إله إلا الله محمد رسول الله "، ومنها " وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من نقود وعليه فإني على يقين من ان من يبيعني يقتل باسمي لأن الله سيصعدني من الأرض

---

(١) المصدر السابق حـ ١ ص ٢٦١.

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٢٥٩.

وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة، أمكث في ذلك العار زمنا طويلا في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزول عنى هذه الوصمة " .[1]

حتى الجمادات والنبات كان تسلم على النبي ﷺ قبل مبعثه إيذانا بقرب ظهور نبوته ورسالته، روى عن النبي ﷺ أنه قال : إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن، وكان النبي ﷺ إذا خرج إلى الخلاء في شعاب مكة وأوديتها لقضاء حاجته فكان لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله فيلتفت حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة .[2]

ولاشك أن الأدلة على صدق رسالة النبي ﷺ لا تتوف على هذه البشارات فدلالات القرآن من الإعجاز البلاغي والتشريع الباهر ودلالات السنة النبوية الصحيحة على وقوع المعجزات الحسية ومشاهدة الألوف من المسلمين لها ودلالات سيرة المصطفى ﷺ في إيمانه ويقينه وعبادته ومجاهدته ودعوته وجهاده وعدله، وصدقه وإيمان المقربين إليه العارفين به مثل زوجة خديجة وصديقه أبي بكر ومولاه زيد بن حارثة كل ذلك يقطع بصدق البعثة المحمدية، وكفى بالقرآن معجزة ودلالة على اتصال رسالات الأنبياء واكتمالها برسالة محمد ﷺ، وقد تكون حافزا لإيمان أهل الكتاب وهم يقرأون التبشير ببعثه ﷺ في كتبهم المقدسة تصريحا باسمه أو وصفا لحاله وصفاته مما لا ينطبق على سواه .[3]

أما أهل مكة وفى خضم عبادتهم للأوثان، وتقربهم إلى الأصنام في مناسباتهم وأعيادهم إلا أنه ظهر منهم بعض العقلاء الذين لم يعترفوا

---

(١) قراءة في السيرة النبوية ص ١٥٤.

(٢) ابن هشام حـ ١ ص ٢١٧.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة حـ ١ ص ١٢١.

بهذه المعبودات وإنما تطلعوا بحثا عن نبي يهديهم سواء السبيل "واجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويطوفون به وكان ذلك عيدا لهم في كل سنة يوما فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض قالوا : أجل وهم : ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث بن أسد وزيد بن عمرو بن نفيل فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية دين إبراهيم" .[1]

فأما ورقة فقد دخل في النصرانية، وعبيد الله بن جحش فقد دخل في الإسلام ثم ارتد حين هاجر إلى الحبشة ودخل في النصرانية ومات عليها، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

أما زيد بن عمرو فقد اعتزل دين آبائه يقول ابن إسحاق "وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموؤودة وقال : أعبد رب إبراهيم وبادي قومه يعيب ما هم عليه" .[2]

بل استطاع زيد بن عمرو بفطرته السليمة وقلبه الذكي أن يتنبأ بظهور النبي ﷺ يقول ابن سعد : " أخبرنا محمد بن عمر قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٤٩.

(٢) مختصر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٠.

بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة فأقرئه مني السلام .

وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك قلت : هلم قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليلة، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منه ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون : لم يبق نبي غيره .

قال عامر بن ربيعة فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا [١] وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ سئل عن زيد بن عمرو فقال : يحشر ذلك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم . [٢]

هكذا كانت تعيش مكة وشبه الجزيرة في ترقب لمبعث الرسول الخاتم حتى جاء الوحي النبي ﷺ .

## الوحي :

لفظة الوحي لغة معناها إعلام مع إخفاء وسرعة وهذا الإعلام له عدة مراتب :

١- أن يخاطب في النوم وهى الرؤيا الصادقة وقد حدثت لكثير من الأنبياء ومنها ما قاله سيدنا إبراهيم لابنه إسماعيل "يا بني إني أرى

---

(١) الطبقات حـ ٢ ص ١٦٢.

(٢) سبل الهدى حـ ٢ ص ٢٥٠.

في المنام أني أذبحك" .

٢- أن يقذف في القلب ما يراد إلقاؤه دون واسطة وهو يقظان وذلك ما يسمى بالإلهام .

٣- أن يرسل الله رسولا يخبره بما يريد إعلامه وهو المسمى بالملك .

٤- أن يسمعه الله كلاما مباشرة كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ ﴾ .[1]

وهذه الأحوال الأربعة تشترك في حقيقة واحدة وهو حدوث العلم المتيقن في قلب من ألقى إليه العلم . وهذه المراتب حدثت للنبي ﷺ وغيرها وفى ذلك يقول ابن الجوزي :

١- الرؤيا الصادقة وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

٢- ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال النبي ﷺ : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته .

٣- أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

٤- أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة

---

(١) سورة طه آية ٩-١٣.

كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت حتى كادت ترضها .

٥- انه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة النجم .

٦- ما أوحاه الله إليه وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

٧- كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .[١]

بدأ رسول الله ﷺ اتصاله بالملأ الأعلى بالرؤيا الصادقة وذلك في سن الأربعين فعن عائشة ﵂ أن أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .

كما حبب إليه الخلوة فكان يأخذ التمر والماء ويذهب إلى غار حراء على مسافة ميلين من مكة ومعه أهله قريبا منه فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضى وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه القوم من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ولا منهج محدود ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .[٢]

هذه الخلوة في غراء حراء والتي سبقت نزول الوحي كانت ضرورية لرسول الله ﷺ، ففي هذه العزلة دواء لآفات النفس ومحاسبتها

---

(١) زاد المعاد جـ ١ ص ١٨.

(٢) الرحيق ص ٧٤.

بعيدا عن زحمة الحياة ومشاغلها؛ وهذا التأمل يتيح لصاحبها معرفة النفس ومنشئها ومدى حاجتها إلى عناية الله عز وجل وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة ثم ليتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق عز وجل، وفى الحساب وطوله وفى عظيم رحمة الله وعظيم عقابه، فعند التفكير الطويل المتكرر في هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللاحقة ويحيا القلب بنور العرفان والصفاء .[1]

هكذا تهيأ النبي الكريم ﷺ لتلقي الوحي عن ربه، ولتغير رسالة الإسلام وجه الدنيا، وينقلها من ظلمات الجهل والضلال إلى نور المعرفة واليقين؛ ينقلها إلى معرفة الله والاتصال به وعبادته وحده لا شريك له .

وقد تعددت الروايات في اتصال أمين السماء جبريل بأمين الأرض رسول الله ﷺ ومنها ما رواه ابن إسحاق "حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعث الله تعالى منها وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره؛ حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى، قال رسول الله ﷺ :

فجاءني جبريل وأنا نائم - قوله وأنا نائم : معناه أن هبوط جبريل على النبي ﷺ قد كان في النوم وليس في اليقظة ويشهد لهذا قوله في آخر هذه الرواية : فهببت من نومي، وفى حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذا الهبوط قد كان في اليقظة ويجمع بين الروايتين فيقال :

إن جبريل كان يأتي رسول الله ﷺ في منامه تخفيفا عنه وترويضا لطبيعته البشرية، فلما تعود النبي ﷺ على رؤيته جاءه يقظة - بنمط - أي وعاء - من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ، قلت : ما أقرأ قال : فغتني

(١) فقه السيرة ص ٦٠.

- تكرر الغت والإرسال والحكمة من ذلك هي تقريب المسافة بين طبيعة جبريل الملائكية وطبيعة النبي الإنسانية وجعله قادرا على التلقي عنه إذا هبط عليه - حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ قال : قلت ما أقرأ ؟ قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت قال : قلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۞ ﴾ .[1]

قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا، قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول :

يا محمد : أنت رسول الله وأنا جبريل قال : فرفعت رأسي إلى السماء، أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : أنت رسول الله وأنا جبريل .

قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فمازلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي .[2]

هكذا كانت بداية الوحي ونزوله على رسول الله ﷺ واتصاله به، ونزول أول آيات القرآن الكريم، هذا الحدث العظيم تم على أرجح الآراء في يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان الموافق العاشر من اغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذا ذاك أربعين سنة وستة أشهر واثنا عشر يوما .

---

(١) سورة العلق ١-٥.

(٢) مختصر سيرة ابن هشام ص ٦٠.

ويبدو أن السيدة خديجة رضي الله عنها، استبطأت عودة رسول الله ﷺ ومن ثم أرسلت خدمها في البحث عنه يقول ابن إسحاق فمازلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجها رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت عنه راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفا إليها - أي ملتصقا بها - فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى .

ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت : أبشر يا بن عمى واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

وهكذا وقفت الزوجة الحنون بجوار زوجها تهدئ من روعه، وتبث في نفسه الهدوء والطمأنينة فضلا عن أنها بشرته بالنبوة والرسالة، وحتى تؤكد له ما قالته ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل لتخبره بما سمعته من رسول الله ﷺ فقال ورقة : قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة .[1]

وفى رواية أخرى أن لقاءً تم بين الرسول ﷺ وورقة في ساحة الكعبة، وأخبره النبي بما حدث له في غار حراء فكان جواب ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ثم أردف قائلا : ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ثم أدنى - أي ورقة

(١) الاكتفاء حـ١ ص ٢٦٥.

- راسه منه فقبل راسه - أي راس النبي ﷺ - ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته .[1]

ومن ناحية أخرى فقد حرصت السيدة خديجة على أن تعرف كنه هذا الوحي الذي يأتي إلى رسول الله ﷺ وهل هو ملاك أم شيطان فطلبت من النبي ﷺ أن يخبرها إذا جاءه الوحي "فجاء جبريل كما كان يصنع فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني قالت : قم يا بن عم فاجلس على فخذي اليسرى فقام فجلس عليها، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم، قالت : فتحول فاقعد على فخذي اليمنى فتحول فقعد على فخذها اليمنى فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم قالت : فتحول فاجلس - في حجري فتحول فجلس في حجرها ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : نعم فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : لا .

قالت : يا بن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

وهكذا كان موقف السيدة خديجة ﵂، مؤازرة وتثبيتا لرسول الله، بل وصدقت بما جاء، وآمنت به يقول ابن إسحاق : وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء منه فخفف الله بذلك عن نبيّه ﷺ لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزن لذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس رحمها الله تعالى .[2]

هذا الموقف العظيم من السيدة خديجة بجانب رسول الله ﷺ كان جزاؤه أعلا الدرجات في الجنة وقد بشّرها الرسول ﷺ بذلك إذا قال :

---

(1) المصدر السابق حـ ١ ص ٢٦٦.

(2) ابن هشام حـ ١ ص ١٦٤.

أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، والقصب هنا : اللؤلؤ المجوف، بل ورفع الله من قدرها الكبير بأن بعث لها بالسلام، قال ابن هشام : وحدثني من أثق به : أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال : اقرئ خديجة السلام من ربها، فقال رسول الله ﷺ : يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

وبطبيعة الحال حاول المستشرقون التشكيك في مسألة نزول الوحي على رسول الله ﷺ وادعى بعضهم أن الرسول كان يذهب إلى غار حراء لا ليتعبد كما هو معروف ولكن للاصطياف معللا ذلك بأن أغنياء مكة كانوا يذهبون إلى الطائف هربا من حر مكة أما هو فلم يكن في وسعه مجاراتهم لفقره ولذلك كان يذهب إلى غار حراء ليصطاف !!

وهذا كذب وافتراء تعودنا عليه من أقوال المستشرقين هؤلاء الذين يحرصون على قلب الحقائق وتصويرها بحسب أهوائهم المريضة ورغباتهم الفاسدة فالمستشرق يتصور كما في ذهنه السقيم أن قمة حراء تشبه قمم الجبال المعشوشبة التي يكسوها الجليد والبرد حيث يتوجه الغربيون إليها للاصطياف ولم يعلم كيف يكون مناخ مكة في شهور الصيف وجبل حراء بشكل خاص، وهل الحرارة تنخفض في هذا الجبل في هذا الوقت ؟ وغار حراء مازال موجودا حتى يومنا هذا في هذا الوقت مما يدفع النبي ﷺ للاصطياف فيه ؟!

لم يذكر أحد قط ممن كتبوا عن مكة وأهلها ذلك أن الفقراء كانوا يصطافون بالجبال والأغنياء كانوا يصطافون بالطائف، ولا ندري لماذا لم يعرف عن باقي فقراء مكة اتجاههم إلى مصيف جبل

حراء ؟![1] إنما هي نفوس مريضة لا ترى الحقائق بنور البصيرة وإنما تلونها بأحقادها وكراهيتها للإسلام ونبيّ الإسلام .

بعد هذا اللقاء الأول بين الأمين جبريل وسيدنا رسول الله ﷺ، انقطع الوحي فترة من الوقت، وقد اختلف العلماء في مدتها وهى على أرجح الآراء أياما يسيرة وكانت الحكمة في ذلك ليذهب ما كان ﷺ يجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود، فلما تقلصت ظلال الحيرة، وثبتت أعلام الحقيقة، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبيا لله الكبير المتعال وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء، وصار تشوقه وارتقابه لمجيء الوحي سببا في ثباته واحتماله عندما يعود .

جاءه جبريل للمرة الثانية، روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي قال : فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجثثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئتُ أهلي فقلت : زملوني زملوني فأنزل الله تعالى : ( يا أيها المدثر ) إلى قوله ( فاهجر )، ثم حمى الوحي وتتابع .[2]

وكان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شِدّة فكان جبينه يتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد وكان وجهه يتغير ويكرب وجسمه يثقل، يقول زيد بن ثابت : فأنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخدي عليّ حتى خفت أن ترضى فخذي، وكان يركز ذهنه بشدة لحفظ القرآن فيتحرك به لسانه وشفتيه فنزلت الآية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝﴾ (القيامة ١٦-١٧) تخفيفا عنه ﷺ ، كان

(١) قراءة في السيرة النبوية ص ٢٠٥.

(٢) الرحيق ص ٧٩.

شوقه إليه وحرصه عليه يدفعه إلى التعجل في تلقيه كما بينت ذلك الآية ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يفضى إليك وحيه وقل رب زدني علما، وقد سئل رسول الله ﷺ، كيف يأتيك الوحي ؟ فأجاب : مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علي - فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول كما كان الوحي يأتيه في اليقظة .[1]

وفي رواية أخرى أن الوحي جاء رسول الله ﷺ في هذه المرة بسورة الضحى يقسم له ربه وهو الذي أكرمه بما أكرمه به ما ودعه وما تلاه فقال تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ يقول: ما حرمك فتركك وما ابغضك منذ احبك ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي لما عندي من مرجعك إلى خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ من الفلْج - أي الظفر والفوز- في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾ ليعرفه الله ما ابتداه به من كرامته في عاجل امره ومنّة عليه في يتمه وعيلته وضلالته واستنقاذه من ذلك كله برحمته" .[2]

هكذا بدأ الرسول الكريم مهمته الصعبة في مجتمع وثنى مادي، يرتكب الرذائل والمنكرات، ويسجد للأوثان والأصنام، مجتمع سادته مفاهيم فاسدة وأهواء ضالة، وكانت مهمة شاقة وصعبة استمرت منذ أن تحمل الرسالة إلى أن وافاه الأجل ﷺ ثلاث وعشرون سنة : الدور المكي ثلاث عشرة سنة والدور المدني عشر سنوات .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ ١ ص ١٢٨.

(٢) مختصر سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٦٤.

**أما الدور المكي فيمكن تقسيمه إلى مراحل ثلاثة :**

١- مرحلة الدعوة السرية : ثلاث سنوات .

٢- مرحلة إعلان الدعوة واضطهاد أهل مكة للمسلمين : من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣-مرحلة الدعوة خارج مكة وانتشارها من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .[1]

## أولا : مرحلة الدعوة السرية

١- الوحدانية المطلقة، فلا شريك له في ملكه ولا معبود سواه، وما الإنسان إلا عبد لله هو وبقية الكائنات، وأن كل ما في الكون ملك لله الواحد القهار، يخضع لحكم الله وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأسا غير مستصحب معه خلقا آخر كبر أو حقر، ونتيجة لهذه الحقائق فإن الحجارة التي يعبدها العرب أصبحت لا تزيد عن الحجارة التي تبنى بها البيوت أو ترصف بها الطرق .

٢- الإيمان باليوم الآخر فهناك يوم لاشك في قدومه، يلقى الناس فيه ربهم فيحاسبهم حسابا دقيقا على كل ما فعلوه في حياتهم الدنيا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾[2] والنظر إلى الدار الآخرة في كل عمل يأتيه المرء أو يذره من أصول السلوك الصحيح في الإسلام، حيث يتيقن الإنسان أنه محاسب عن كل فعل يقوم به في الدنيا .

٣- تزكية النفس وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل وترك

---

(١) الرحيق ص ٨٤ .

(٢)الزلزلة ٧-٨ .

اموراً اخرى حذر من مغبتها : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) ﴾ .[1]

قال أكثم بن صيفي : إن ما جاء به محمد ﷺ لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً .

٤- حفظ كيان الجماعة المسلمة باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون وذلك يقتضى نصرة المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف وفي سورة المدثر - وهى أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ- تقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (47) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ .[2]

---

(١) الأنعام ١٥١-١٥٣.

(٢) الآيات من سورة المدثر (٣٨-٤٨) ، فقه السيرة ص ٩٨.

وفى بداية الدعوة نزل الأمين جبريل عليه السلام بأمر الصلاة للرسول ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها : افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله أتمها في الحضر أربعا وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين " [١] وبطبيعة الحال قام سيدنا جبريل ببيان كيفية الصلاة ووقتها وتعلمها النبي ﷺ ثم علمها للسيدة خديجة رضي الله عنها ومن دخل في الإسلام بعد ذلك .

بدأ الرسول ﷺ دعوته سرا في السنوات الأولى من الدعوة ولم يكن هذا بسبب الخوف على نفسه فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾ علم أنه رسول الله إلى الناس وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس؛ وإنما كان هذا تشريعا ومنهجا يتبعه الدعاة من بعد، وحتى لا تتعرض الدعوة في بدايتها لحرب من جانب الكافرين والمشركين، ويحفظ النبي ﷺ أرواح من اتبعوه، في جو هادئ ترسم فيه الخطط وينشط الأوائل في دعوة غيرهم إلى الإسلام إلى أن يأذن الله بإعلان الدعوة . [٢]

أما من أسلم في بداية الدعوة بعد السيدة خديجة رضي الله عنها فكان الإمام علي ابن عم رسول الله يقول ابن إسحاق "ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى : علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه وهو يومئذ ابن عشر سنين" . [٣]

وهذا أمر طبيعي فالإمام علي تربى في بيت سيدنا رسول الله ﷺ،

---

(١) الاكتفاء حـ١ ص ٢٧٢.

(٢) فقه السيرة النبوية ص ٦٩.

(٣) ابن هشام حـ١ ص ١٦٦.

أخذه النبي من والده أبي طالب ليتربى في كنفه وذلك تخفيفا من أعباء الحياة عن كاهل عمه كثير العيال يقول ابن إسحاق "كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ومما صنع الله له وأراده من الخير، أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه وكان من أيسر بنى هاشم : يا عباس إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله؛ آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه فقال العباس : نعم فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما عقيلا فاصنعا ما شئتما، قال ابن هشام، ويقال عقيلا وطالبا .

فأخذ رسول الله ﷺ عليا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرا فضمه إليه فلم يزل على مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا، فاتبعه على ﷺ وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه" .[1]

وتكتم الإمام على إسلامه، إلا أن والده أبا طالب أدرك من مشاركة الإمام على للنبي في الصلاة في شعاب مكة أن هناك دينا جديدا يخالف دين الآباء والأجداد؛ لذا وجدنا أبا طالب يستفسر من ابنه على قائلا له : ما هذا الدين الذي أنت عليه، فقال يا أبت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه" .[2]

ومن السابقين إلى الإسلام زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ

---

(١) ابن هشام حـ ١ ص ١٦٦.

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص١٦٧.

فكان أول ذكر أسلم بعد على بن أبي طالب، وكان زيد قد وقع في الأسر في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد وقيل بل وهبه لها فوهبته السيدة خديجة لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه وذلك قبل أن يوحى إليه .

أما حارثة فقد جزع جزعا شديدا على فقد ابنه وفقد الأمل في العثور عليه حتى رآه قوم كانوا يحجون في مكة فرأوا زيدا وعادوا وأخبروا والده بمكانه فأسرع الأب إلى مكة ليفك أسره وسأل النبي ﷺ قائلا له : يا بن عبد المطلب بن هاشم يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير جئناك في ابننا عبدك فأمنن علينا وأحسن إلينا في فدائه .

قال : من هو ؟ قال : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله ﷺ : فهلا غير ذلك ؟ قال : وما هو ؟

قال : أدعوه فأخبره فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحد فوافق الأب .

فدعا الرسول ﷺ زيدا وعرض عليه هذا الأمر فقال زيد : ما أنا بالذي اختار عليك أحدا، أنت منى مكان الأب والعم .

فقال الوالد : ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟

قال زيد : نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار أحدا عليه أبدا، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر فقال : يا من حضر، أشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأورثه، فلما سمع ذلك أبوه طابت نفسه وانصرف، ودعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام فنزلت الآية الكريمة : ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ (الأحزاب ٥) ،فدعي يومئذ زيد

بن حارثة". [1]

ومن السابقين إلى الإسلام أبو بكر الصديق، واسمه عبد الله بن أبي قحافة واسم والده عثمان بن عامر، وسمي عتيقا لأن الرسول ﷺ نظر إليه فقال : هذا عتيق الله من النار[2] وقيل لقب باسم عتيق لحسن وجهه، وقد أسلم ودعا إلى الله ورسوله يقول عنه ابن إسحاق "وكان أبو بكر رجلا مؤلفا - أي محببا لهم - لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه - أي يزوره ويسكن إليه - ويجلس إليه". [3]

نشط أبو بكر في دعوة من يثق به ويطمئن إليه إلى الإسلام وترتب على ذلك دخول خمسة من كبار الصحابة والمبشرين بالجنة في الإسلام وهم :

١- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وقد هاجر سيدنا عثمان الهجرتين وصلى إلى القبلتين وتزوج رقية وأم كلثوم ابنتي النبي ﷺ، وناب عنه النبي ﷺ في بيعة الرضوان لأنه كان غائبا في مكة لمفاوضة أهلها في الحديبية، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين ألف منهم أمير المؤمنين عمر مجلس الشورى وكان الخليفة الثالث بعد الشيخين أبي بكر وعمر، وقد قتل شهيدا في داره على أيدي الثوار الذين تجمعوا من البصرة والكوفة ومصر .

---

(١) الاكتفاء حـ ذ ص ٢٧٦.

(٢) طبقات ابن سعد حـ ٣ ص ١٧٠.

(٣) ابن هشام حـ ١ ص ١٦٨.

٢- الزبير بن العوام بن خويلد وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وزوج السيدة أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين ألف منهم عمر مجلس الشورى، وقد بايع الإمام على ثم شهد معركة الجمل وانصرف منها حين تبين صحة موقف الإمام علي، وقد قتله ابن جرموز غيلة في الطريق وهو يصلي .

٣- عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين ألف منهم عمر مجلس الشورى، كان من أثرياء الصحابة وأوسعهم تجارة، فوضه أعضاء مجلس الشورى في اختيار خليفة للمسلمين والتي انتهت بمبايعة سيدنا عثمان بن عفان .

٤- سعد بن أبي وقاص وهو أول رام في سبيل الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين رشحهم سيدنا عمر للخلافة وهو بطل القادسية وباني مدينة الكوفة ، وقد بايع الإمام علي ثم اعتزل الفتنة التي وقعت بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان .

٥- طلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة، وقد بايع الإمام على ثم اشترك في معركة الجمل والتي استشهد فيها .

هؤلاء هم الخمسة الأوائل الذين أسلموا بإسلام سيدنا أبي بكر ﷺ، وكان الرسول ﷺ يعرف قدر أبي بكر ويذكر له إقباله الشديد على الإسلام وقال في ذلك ﷺ : ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما تلبث حين ذكرته له وما تردد فيه .[1]

(١) ابن هشام حـ ١ ص ١٦٩.

ثم تتابع دخول الناس في الإسلام فممن أسلم في هذه المرحلة المبكرة من عمر الدعوة الإسلامية أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأمين هذه الأمة وقد ولاه الخليفة عمر بن الخطاب القيادة بعد عزل خالد بن الوليد عن قيادة المسلمين في معارك الشام ومات في طاعون عمواس في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب .

وأبو سلمة واسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال وهو أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، أسلم بعد عشرة أنفس وأول من هاجر بامرأته إلى الحبشة والمدينة ومات بعد معركة أحد .

وكذلك أسلم الأرقم بن أبي الأرقم، وكان عاشر عشرة دخلوا في الإسلام واتخذ النبي ﷺ من داره مدرسة يتلو فيها على أصحابه القرآن ويعلمهم العقائد والأحكام وقد توفى في خلافة معاوية بن أبي سفيان .

وممن أسلم في هذه المرحلة المبكرة أيضا عثمان بن مظعون وأخواه قدامه وعبد الله وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وغير هؤلاء ممن دخلوا في الإسلام سرا .

وقد تعددت الأماكن التي كان يدعو فيها النبي ﷺ أصحابه إلى الإسلام فمن هذه الأماكن بيت النبي ﷺ فعن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالس إذ مر به عثمان بن مظعون فتبسم إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : ألا تجلس ؟ قال : بلى ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأسلم كذلك أبو ذر في بيت النبي ﷺ .[1]

ومن الأماكن أيضا التي دعا فيها النبي صلى الله علية وسلم أصحابه سرا إلى الإسلام شعاب مكة فقد لقي النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص في شعب أجياد فأسلم كذلك أسلم خالد بن سعيد في شعب من

---

(١) قراءة في السيرة النبوية ص ٢١٩.

شعاب مكة .[1]

ومن الأماكن التي دعا فيها النبي ﷺ إلى الإسلام وأسلم فيها بعض الصحابة جبل حراء وساحة الكعبة الشريفة يقول عمرو بن عبسة السلمي عن قصة إسلامه : أنه كان في الجاهلية يرى الناس على ضلالة، ولا يرى الأوثان شيئا، ثم سمع برجل يخبر بذلك فأقبل عمرو إلى مكة ليسأل عنه، فأخبر أنه مختف لا يقدر عليه إلا بالليل وهو يطوف بالبيت فلقي رسول الله ﷺ بالبيت يقول : فتلطفت له فدخلت عليه .

فقلت : من أنت ؟ قال : أنا نبي الله . فقلت : وما نبي الله ؟ قال : رسول الله، قلت : آ لله أرسلك ؟ قال : نعم . قلت : بأي شيء أرسلك ؟ قال : بأن يوحد الله وأن لا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرحم . فقلت له : من معك على هذا ؟ قال : حر وعبد، وإذا معه أبو بكر بن أبي قحافة وبلال . قلت : إني متبعك، ابسط يدك لأبايعك، فلقد رأيتني وإني لرابع الإسلام، فأمره رسول الله ﷺ أن يرجع إلى أهله بعد أن أسلم، لأنه لا يزال مستخفيا بالإسلام ولم يؤمر بإظهار الدعوة، وقال له رسول الله ﷺ : فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي .[2]

أخذ عدد المسلمين يتزايد حتى بلغ عددهم الأربعين وفى رواية أخرى خمسين مسلما لذا كان من الضروري اجتماعهم في مكان سرى يتلقون فيه آيات القرآن الكريم وأحكام الدين الجديد بعيدا عن أعين زعماء المشركين وأعوانهم، ومن هنا اتخذ النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم لما تمتعت به من مميزات فهي تقع على الصفا وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، بعيدة عن مراقبة قريش، الأمر الذي يجعلها محاطة بالسرية، ولا تحتاج عملية الوصول إليها أو الخروج منها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٢٣ وقراءة في السيرة ص ٢٢٠.

إلى كبير عناء أو احتياطات معقدة، كما أن الأرقم كان شابا فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي، لا يتوقع أن تبحث في بيوت الصغار من أصحاب رسول الله ﷺ، بل يتجه نظرها وتفكيرها إلى كبار الصحابة ﷺ، إضافة إلى أن الأرقم كان يكتم إسلامه عن قريش، وكانت الدار محاطة بالكتمان التام، ولم يرد أن قريشا فكرت فيه بل أقصى ما توصلت إليه هو شكلها أن يكون اللقاء في دار عند الصفا .[1]

وقد أسلم بدار الأرقم عدداً من صحابة رسول الله ﷺ ومنهم عمار بن ياسر ومهيب بن سنان ومصعب بن عمير وغيرهم .

وفى بيت الأرقم كان الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه ويرشدهم إلى الدين، وكان الوحي قد تتابع وحمى نزوله بعد نزول أوائل سورة المدثر، وكانت الآيات والسور التي تنزل في هذه المرحلة قصيرة ذات فواصل رائعة منيعة وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبح تلوثها بحطام الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأى عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشرى آنذاك .[2]

## ثانيا : مرحلة إعلان الدعوة واضطهاد المشركين للمسلمين

استمرت الدعوة في المرحلة السرية ثلاث سنوات، تعلم فيها السابقون إلى الإسلام مبادئه وأحكامه من خلال الآيات الكريمة التي تتنزل على رسول الله ﷺ سواء في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٢) الرحيق ص ٨٩.

شعاب مكة وساحة الكعبة حتى جاءه ﷺ الأمر بإعلان الدعوة وإظهارها يقول ابن إسحاق (ثم إن الله عز وجل أمر رسوله أن يصدع بما جاءه منه وان يبادي الناس بأمره وان يدعو إليه وكان بين ما أخفي رسول الله ﷺ امره واستسربه إلى أن امره بإظهاره ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه ثم قال الله له : ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [1]، ثم قال : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [2] ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝﴾ . [3]

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، على أن هذا لا يعنى أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية، والواقع أن كثيرا من الآيات المكية كانت تنص على أن القرآن "ما هو إلا ذكر للعالمين" الأمر الذي يدل على أن فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر . [4]

دعا النبي ﷺ أفراد أسرته وأقاربه مرتين في المرة الأولى دعا بني هاشم

---

(١) سورة الحجر ٩٤.

(٢) سورة الشعراء ٢١٤، ٢١٥.

(٣) سورة الحجر ٨٩.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة حـ ١ ص ١٤٣.

فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبو لهب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وانا أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب، فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس .

يتضح في هذا اللقاء عداوة عمه أبي لهب المبكرة للإسلام، وكيف أنه اتخذ موقف العناد والمكابرة ومحاربة الإسلام بكل ما يملك، وعلى العكس من ذلك كان عمه أبو طالب الذي أبدى توددا ومناصرة للرسول وذلك في اللقاء الثاني حيث اجتمع بهم الرسول ﷺ مرة أخرى وقال لهم : " الحمد لله، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، واشهد أن لا اله إلا الله حده لا شريك له " ، ثم قال : " إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا اله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك واقبلنا لنصيحتك واشد تصديقا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وامنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا " .[1]

وهكذا اختلف موقف العمين : أبو لهب المعارض والمعاند لدعوة

---

(١) الرحيق ص ٩٠.

الإسلام، وأبو طالب المساند والمدافع عن ابن أخيه الرسول الكريم ﷺ وذلك بدافع القرابة والعصبية الأسرية .

لقد بدأ الرسول ﷺ بأسرته أولا ، لأن الإنسان مسئول عن نفسه ثم اسرته واقاربه، فكان من الضروري أن يبدأ بهم أولا ، يبصرهم بالدين الجديد ويبين لهم خطورة بقائهم على الشرك وعبادة الأوثان، عسى أن يؤمنوا وبذلك يكون قد أدى واجبه نحوهم بإخراجهم من ضلالة الشرك إلى نور الحق واليقين؛ وقد اختلفت ردود أفعالهم كما سبق أن ذكرنا من معارض يتمثل في أبي لهب ومناصر ومؤيد ويتمثل في أبي طالب .

انتقل الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من مرحلة تبليغ الأسرة والأقارب، إلى بطون قريش وقبائل العرب المقيمة في مكة فوقف ﷺ يوما على الصفا فنادى بأعلا صوته : يا صباحاه، فاجتمع إليه بطون قريش فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته واليوم الآخر .

يقول البخاري لما نزلت "وانذر عشيرتك الأقربين" صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر يا بنى عدى وأخذ الرسول يعدد بطون قريش بأسمائها حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : تبت يدا أبي لهب .[1]

وفى رواية عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لهم : يا معشر قريش انقذوا انفسكم من النار، يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار،

(1) صحيح البخاري حـ٢ ص ٧٠٢.

يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا .[1]

ظلت قريش على وثنيتها وكفرها غير عابئة بالدعوة الجديدة، حتى نزلت الآيات تسفّه أحلامهم وعقولهم وتعيب عليهم عبادتهم للأصنام والسجود لغير الله، يقول ابن إسحاق : "فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرا له، لا يردّه عنه شيء ".[2]

انفجرت مكة بمشاعر الغضب وماجت بالغرابة والاستنكار حين سمعت صوتا يجهر بتضليلهم ويسفه دين الآباء والأجداد ويكشف فساد معتقداتهم التي ورثوها عن أسلافهم وكانت دعوة النبي ﷺ بمثابة صاعقة زلزلت أركانهم وهدمت موروثاتهم، ومن ثم شرعت قريش في التصدي للدين الجديد ومحاربته بكل الوسائل والسبل .

وزعماء قريش حين أعلنوا حربهم ضد الدين الجديد كانوا يدركون ما يحمله الإسلام من مبادئ وأحكام وأن هذا الدين الجديد يجعل العبادة لله وحده والسجود لله وحده وليس للأصنام والأوثان سبيل، كما أن الدين الجديد يعنى الإيمان باليوم الآخر والثواب والعقاب وأن كل فرد مجزى بما قدمت يداه فضلا عن انقيادهم التام لتعاليم الدين الجديد وهذا يعنى سلبهم الكثير من الحقوق التي كانوا يتمتعون بها بالنسبة لقبائل العرب باعتبارهم حماة البيت وما فيه من أصنام وأوثان، كما أن

---

(١) صحيح مسلم جـ١ ص ١١٤.

(٢) الاكتفاء، جـ١ ص ٢٨٠.

الدين الجديد سيسلبهم صنوفا من التمتع بالنساء وشرب الخمر والتعامل بالربا وغيرها من صور الحياة التي حرمها الإسلام .

لقد أعلنتها قريش حربا لا هوادة فيها، حربا استمرت عشر سنوات منذ إعلان النبي ﷺ دعوته على جبل الصفا وحتى هجرته إلى المدينة؛ استخدموا فيها كل ألوان التعذيب والإيذاء والسجن والطرد والقتل؛ ونال النبي ﷺ وهو إمام الصابرين وإمام المجاهدين النصيب الأوفى؛ كما نال أصحابه ومن دخل الدين الجديد نصيبا كبيرا .

## بعض صور من اضطهاد النبي ﷺ :

أشار ابن إسحاق إلى بعض صور الإيذاء التي اتخذتها قريش ضد النبي ﷺ "ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم فأغروا برسول الله سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون" .[1]

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى هذه الاتهامات ومنها قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾، وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾، وقوله تعالى ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

وقبل أن تشرع قريش في إيذاء النبي ﷺ توجهوا إلى أبي طالب الذي

---

(١) الاكتفاء، حـ ١ ص ٢٩٨.

بقى على شركه وتمسكه بدين الآباء والأجداد وذلك ليمنع ابن أخيه من الاستمرار في دعوته؛ إلا أنه وقف موقف المدافع عن ابن أخيه، يحميه ويذود عنه . وأبو طالب من رجالات مكة البارزين وكان معظما في أهله معظما بين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، وكان بقاؤه مع أهل مكة على شركه واحترامه للأوثان من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه .

توجه وفد من رجالات قريش في محاولات ثلاث لعلها تنجح في وقف هذه الدعوة يقول ابن إسحاق "فلما رات قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب، عتبة وشيبه ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب وأبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج والعاصي بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم أو من مشى منهم .

فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه .[1]

هكذا عرض وفد قريش ما أصاب آلهتهم وأوثانهم من الدعوة الجديدة، وكيف أنهم طالبوه بمنع ابن أخيه من دعوته أو تركه

---

(١) الاكتفاء حـ١ ص ٢٨١.

ليفترسه رجالات قريش إلا أن أبا طالب بما أوتى من ذكاء وفطنة ردهم ردا جميلا واستمر النبي ﷺ في دعوته .

وفى المحاولة الثانية لقريش مع أبي طالب عرضوا عليه عرضا جديدا يصفه ابن إسحاق بقوله "ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل كرجل .

قال : والله لبئس ما تسومونني !! اتعطونني ابنكم اغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما يكون أبدا . فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا فقال له أبو طالب : والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذ لأني ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدالك أو كما قال .[1]

وهكذا خاب مسعى قريش في هذا العرض الذي قدمته لأبي طالب في محاولة منها للتخلص من النبي ﷺ .

استمرت الدعوة في مسيرتها وازداد أتباعها والرسول الكريم ﷺ مستمر في دعوة الناس إلى الإسلام، وتتوالى الآيات الكريمة في التشهير بالخرافات والأباطيل التي عششت في عقول أهل مكة؛ ومن ثم كانت المحاولة الأخيرة والتي تحمل في طياتها التهديد والمواجهة ضد أبي طالب . يقول ابن إسحاق "ثم انهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى

---

(١) الاكتفا، جـ ١ ص ٢٨٣.

فقالوا : يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا؛ وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا ثم انصرفوا عنه" .

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه .

وذكر أن أبا طالب حين قالت له قريش هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا للذي قالوا له فابق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول اله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي فأقبل عليه فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .[1]

بهذا الجواب الحاسم من رسول الله ﷺ على عمه أبي طالب والاستحالة المطلقة في ترك الدعوة والتخلي عنها إذ أنها تكليف من رب العالمين وهو ناصره ومدافع عنها، أسقط في يد أبي طالب الذي أخذته الشفقة والرحمة والإعجاب بابن أخيه ومن ثم أعلنها مدوية . اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

وقد فسر ابن كثير موقف أبي طالب بقوله : إن الله تعالى قد امتحن قلب أبي طالب بحب محمد ﷺ حبا طبيعيا لا شرعيا، وكان

---

(١) الاكتفاء حـ١ ص ٢٨٢.

استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولتجرؤا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار .[1]

ولقد تكررت مواقف أبي طالب في مساندة ابن أخيه وحمايته والدفاع عنه ضد اعتداءات مشركي قريش إلا أن أبا طالب مات على شركه، وفي مقابل دفاعه عن الرسول ﷺ وحمايته له في الدنيا؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد خفف عنه العذاب في الآخرة، سأل العباس بن عبد المطلب الرسول قائلا له : يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه يحوطك ويغضب لك ؟ قال : نعم هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار[2] والضحضاح ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين واستعير للنار والمعنى لولا دفاع أبي طالب عن النبي ﷺ لتبوأ أبو طالب مكانه الطبيعي كغيره ممن كذبوا رسول الله ﷺ ولم يؤمنوا به، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لا يملك لأحد من الناس شيئا إلا بإذن الله تعالى وأمر منه .

واصلت قريش إيذائها للنبي ﷺ واستمر هذا الإيذاء طوال عشر سنوات، منذ الجهر بالدعوة إلى أن هاجر ﷺ إلى يثرب وبطبيعة الحال فقد ازداد الإيذاء برسول الله ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب في العاشر من بعثته ﷺ باعتبار أن أبا طالب كان يمثل ردءا وحصنا لرسول الله ﷺ .

لقد استخدمت قريش كل الوسائل والطرق في إيذاء النبي ﷺ ومن صور الإيذاء والتنكيل برسول الله ﷺ .

---

(١) البداية حـ ٣ ص ٤٥-٤٦.

(٢) مسلم حـ ١ ص ٤٤٨٦

### ١- اتهامه بالجنون والسحر :

فقد أشاع المشركون هذه الفرية على رسول الله ﷺ واتهموه بالجنون لعل الناس ينصرفون عنه، وقد جاء القرآن ليسجل ما قالوه ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [١] وفي موضع آخر يقول الله تعالى ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [٢] وقد نفى القرآن صفة الجنون هذه في قوله تعالى ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ . [٣]

فلما لم تنجح صفة الجنون التي ألصقوها بالنبي ﷺ وتؤتى ثمارها ؛ وصفوه بالسحر، وقد اجتمعوا وتشاوروا في ذلك ، يقول ابن إسحاق : "ثم إن الوليد بن المغيرة، اجتمع عليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم؛ وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا " .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقم وأقم لنا رأيا نقول فيه .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا : نقول : كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون، قال : وما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه

---

(١) سورة الحجر آية ٦.

(٢) سورة ص آية ٤.

(٣) سورة القلم آية ٢.

ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا : فنقول ساحر، قال : ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف انه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر؛ جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .

فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فأنتشر ذكره في بلاد العرب كلها .[1]

هكذا دار الحوار بين مشركي مكة، يفتشون ويبحثون عن صفة مذمومة يلصقونها بالنبي ﷺ لعل الناس تنصرف عنه، وحتى صفة السحر التي انتهوا إليها اعترض عليها ونفى أن يتصف الرسول بالساحر، إلا أنهم في النهاية وحتى تجتمع كلمتهم انتهوا إلى صفة السحر وأشاعوه بين العرب .

**٢- الاستهزاء بالنبي وغمزه ولمزه :**

استخدمت قريش هذا السلاح وذلك للحط من شأن صاحب الدعوة والتقليل من مكانته حتى ينصرف الناس عنه، يقول البخاري : إن امرأة قالت لرسول الله ﷺ ساخرة مستهزئة، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين او ثلاثا فأنزل الله تعالى ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ .[2]

وقد بلغ من استهزائهم وكراهيتهم للرسول ﷺ انهم لم يستخدموا

---

(١) الاكتفاء، حـ ١ ص ٢٨٥.

(٢) البخاري حـ ١٨ ص ٣٦٤.

اسمه وهو محمد وإنما أطلقوا عليه اسم مذمم، وإذا ذكروه بسوء قالوا : فعل الله بمذمم وليس هو اسمه ولا يعرف به فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفا إلى غيره ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم يشتمون مذمما وأنا محمد .[1]

وكان أبو جهل الفاسق وهو زعيم المستهزئين يقول مستهزئا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وفيه نزلت الآيات ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .[2]

وفي معرض الاستهزاء بالنبي وبما نزل عليه من القرآن وقف أبو جهل في قومه يسخر من القرآن والملائكة يقول ابن إسحاق (فقال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يا معشر قريش يزعم محمد إنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟!) فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ ﴾ [3] .

---

(1) قراءة في السيرة النبوية ص ٢٤٨.

(2) الأنفال ٣٢-٣٤.

(3) المدثر ٣١.

بل وتمادت قريش في استهزائها وذلك ما أشار إليه ابن إسحاق في حديث الأراشي الذي ابتاع منه أبو جهل الإبل ومطلة بأثمانها ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل استهزاء وسخرية بالرسول لما يعلمون من العداوة بينهما .

وعندما جاء الأراشي إلى رسول الله ﷺ شاكيا، مشى معه إلى أبي جهل في محاولة من النبي لرد حق الأراشي إليه، وقريش ترقب الموقف طمعا في موقف ساخر ومستهزئ برسول الله ﷺ، فلما استرد الأراشي حقه عجبت قريش من ذلك وسألت أبا جهل في ذلك فقال :

ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته حتى ملئت رعبا ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط؛ والله لو أبيت لأكلني[١] وهكذا رد الله على قريش مكيدتها وسخريتها واستخلص الرجل من أبي جهل حقه .

ومر الرسول ﷺ يوما بجماعة من زعماء قريش فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝ ﴾ .[٢]

وهم في أنديتهم ومجالسهم لا يتركون فرصة إلا واستهزءوا برسول الله ﷺ يقول ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط!! سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا .

---

(١) السيرة النبوية ص ١٧١.

(٢) الأنعام آية ١٠.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ثم قال : اتستمعون يا معشر قريش ؟! والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح - أي بالهلاك والقتل إن عصيتم وكذبتم - قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم قبل ذلك ليرفؤه - يسكته - بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا .[1]

ومن كبار المستهزئين الساخرين : الأسود بن عبد المطلب بن أسد، الأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، الوليد بن المغيرة المخزومي، العاص بن وائل السهمي، الحارث بن الطلاطلة الخزاعي ، وقد روى ابو نعيم أن الله تعالى أنزل فيهم : ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ ،فقد روى أن جبريل عليه السلام رمى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمى ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات من ذلك، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين فأنتقض به فقتله ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف فجرى به حماره على نبات خفيف فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فتحرك القيح فيه فقتله .[2]

كذلك كان أبو جهل الفاسق من أكبر المستهزئين برسول الله

---

(١) الاكتفا، حـ١ ص ٢٩٩.

(٢) السيرة النبوية ص ١٧٢.

وبالمسلمين وقد قتل شر قتله في غزوة بدر وشاركه في نفس المصير أمية بن خلف والنضر بن الحارث والأخنس بن شريق وأبيّ بن خلف .

٣- التشكيك في القرآن وإثارة الشبهات حوله :

لم تدخر قريش جهدا في سبيل الصد عن كتاب الله وتشويه صورته في اذهان الناس لعلهم ينصرفون عن الإسلام فهم يقولون عنه : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان : ٥]، وتارة أخرى يقولون : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ [الفرقان : ٤]، وكانوا يقولون: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ ﴾ [النحل : ١٠٣]، وغير هذا من الأقوال الهدف منها الطعن في القرآن وأنه ليس من عند الله وإنما هو كلام بشر وغير ذلك من الترهات والأباطيل .

بل حاول بعضهم تقليد رسول الله ﷺ وهو النضر بن الحارث بن كلدة الذي جاء بقصص عن فارس وملوكها كي يذيعها بين الناس ليصرفهم عن سماع القرآن، يقول ابن إسحاق "والنضر بن الحارث بن كلدة من شياطين قريش ممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس؛ فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكّر فيه بالله ودعا فيه إلى الله وحذّر قومه ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟ والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها . فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ

وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [1]، وانزل ايضا فيه: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [2]، وهو القائل : سأنزل مثل ما أنزل الله فيما ذكره ابن هشام . [3]

وهذا الوليد بن المغيرة قال : أينزل على محمد واترك وانا كبير قريش وسيدها، ويترك ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين - يقصد مكة والطائف - فأنزل الله فيه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ . [4]

والرسول ﷺ لا يدخر جهدا ولا طاقة في ابلاغهم آيات الله ووعده ووعيده يقول ابن إسحاق ( وكان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزأون به : قلوبنا في أكنة لا نفقه ما تقول، وفي أذننا وقر لا نسمع ما تقول، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك، فاعمل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئا ) فانزل الله عليه في ذلك من قولهم : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

---

(١) سورة الفرقان ٥، ٦.

(٢) سورة الجاثيه ٧ ، ٨.

(٣) الاكتفاء حـ ١ ص ٣٤٦.

(٤) الزخرف ٣١-٣٢.

﴿ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [1] أي كيف فهموا توحيدك ربك إن كنت جعلت على قلوبهم أكنه وفي آذانهم وقرا وبينك وبينهم حجابا بزعمهم ؟ أي اني لم افعل، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [2] أي ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثتك به إليهم، ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [3] أي أخطأوا المثل الذي ضربوه لك فلا يصيبون به هدى ولا يعتدل لهم فيه قول، ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [4] أي قد جئت تخبرنا انا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظاما ورفاتا وذلك ما لا يكون، ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ [5] أي الذي خلقكم مما تعرفون فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه .

وبالرغم من عناد قريش وتعنتها وتكذيبها لآيات الله؛ إلا أن بعضهم كان يستمع إليه سرا مبهورا ببلاغته وقوة معانيه وحلاوة نسقه وبديع جرسه يقول ابن إسحاق "وذكر الزهري أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل

---

(١) الإسرا، ٤٥، ٤٦ .

(٢) الإسرا، ٤٧ .

(٣) الإسرا، ٤٨ .

(٤) الإسرا، ٤٩ .

(٥) الإسرا، ٥٠، ٥١ .

بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا .

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة .

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك فتفرقوا .[1]

وهكذا كانت بلاغة القرآن وروعة عباراته وجمله وكلماته ذات تأثير كبير على زعماء قريش وهم أساطين الفصاحة والبلاغة فلا غرو أن أدركوا وتيقنوا أن القرآن ليس من صنع البشر وإنما هو تنزيل من حكيم خبير لكنها الخصومة واللجاجة والعناد والمنافسة على الشرف والسيادة أمور صدت هؤلاء الزعماء عن الإيمان بالقرآن والدخول في دين الله وقد عبر عن ذلك أبو جهل أصدق تعبير، يقول ابن إسحاق "فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى اتى ابا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وانا والذي حلفت به كذلك .

---

(١) الاكتفا، حـ١ ص ٣١٤.

ثم خرج من عنده حتى آتى أبا جهل فدخل عليه فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا ؟! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، فقام عنه الأخنس وتركه.[1]

فمن هذا النص يبدو واضحا سيطرة شهوة الجاه والسلطان والرغبة في الزعامة والسيادة وهذا كله منع زعيما بارزا من زعماء مكة وهو أبو جهل من الإيمان بما نزل على رسول الله ﷺ، وكان الرسول ﷺ حريصا كل الحرص على إسلامهم وإبلاغهم كلام الله حتى أنه انصرف عن ابن أم مكتوم رغبة في إسلام الوليد بن المغيرة يقول ابن إسحاق "ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ورسول الله يكلمه وقد طمع في إسلامه فبينما هو في ذلك إذ مر ابن مكتوم الأعمى فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا وتركه فأنزل الله فيه : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝﴾[2] أي إنما بعثتك بشيرا ونذيرا لم أخص بك أحدا فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصد

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة عبس الآيات ١-١٤.

به لمن لا يريده.[1]

لقد عجز المشركون عن التصدي للقرآن وبلاغته وفصاحته، وفى محاولة يائسة ذهب وفد منهم إلى أحبار اليهود في يثرب ليسألوهم المساعدة في كشف حقيقة الدعوة الجديدة لعلهم يجدون مخرجا وكان الوفد مكونا من النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي معيط "وقالت قريش لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن؛ فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فرووا فيه رايكم . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول واصنعوا في أمره ما بدالكم .

فأقبل النضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط حتى قدما مكة فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد .

أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء، فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رايكم .

فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه عن تلك الأشياء فقال لهم أخبركم بما سألتم عليه غدا ولم يستثن .

---

(1) الاكتفاء حـ ١ ص ٣٥١.

فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها ولا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه : لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا فقال له جبريل ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ .[1]

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين إتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ولجوا فيما هم عليه من الكفر فقال قائلهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون أي اجعلوه لغوا وباطلا واتخذوه هزوا لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم .[2]

**٤- مفاوضات ومساومات من قريش :**

سلكت قريش كل الطرق والسبل فتارة يتهمون النبي ﷺ بالجنون ويسخرون منه، وتارة يلمزونه ويستهزئون به، وتارة أخرى يشككون في القرآن وآياته، فلما فشلت الطرق السابقة لجأت إلى أسلوب المساومة

---

(١) سورة مريم ٦٤.

(٢) الاكتفا، حـ ١ ص ٣١٠.

والمهادنة لعلها تنجح فيما فشلت فيه من قبل .

فعرضوا على النبي ﷺ أن يترك المشركون بعض ما هم عليه ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه "ودوا لو تدهن فيدهنون" فقد ذكرت بعض الروايات أنهم عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم عاما ويعبدون ربه عاما وفى رواية أخرى : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك .

وقد روى ابن إسحاق أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد ابن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمي اعترضوا رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة فقالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ .[1]

لم تيأس قريش من محاولاتها مع النبي ﷺ، ومن ثم استجابت لاقتراح عتبة بن ربيعة وكان سيدا إذ قال يوما وهو جالس في نادى قريش، والنبي ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة - الشرف - في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم،

---

(١) الرحيق ص ٩٦ – سورة الكافرون

فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع

قال : يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تراه ولا نستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه من أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى، قال : أفعل ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ .[1]

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها والقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا

---

(١) سورة فصلت ١-٤.

بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم . (1)

وهكذا شهد عتبة بن ربيعة بروعة القرآن في أساليبه وكلماته وسحر بيانه وسمو معانيه، ولم تقبل قريش من عتبة الحل الوسط الذي عرضه عليهم وهو تركهم للنبي وشأنه .

وفي رواية أخرى استدعت قريش النبي ﷺ لعلها تجد مخرجا مما تعانيه من الدعوة الجديدة، وقد لبى النبي الدعوة وجاءهم في ناديهم مسرعا طمعا في إسلامهم يقول ابن إسحاق : " ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا لمحمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك فإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك أو كما قالوا له .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وأن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا

---

(1) الاكتفاء، حـ ١ ص ٣٠٣.

الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا، فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل على كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم أو كما قال ﷺ ". [1]

هكذا عرضت قريش أفكارها على رسول الله ﷺ ظنا منها أن صاحب الدعوة يبغى مالا أو سلطانا أو به أذى، وكان جواب النبي ﷺ النفي لكل هذه المطالب فهو لا يبغى مالا ولا سلطانا وإنما هي رسالة الإسلام يدعوهم إليها ليخرجهم من ظلمات الشرك والجهالة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الإيمان بالبعث والنشور وأن كل إنسان محاسب عما ارتكبه في حياته الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

واستمرارا في جدالهم وغيِّهم وفي نفس اللقاء سألوا النبي ﷺ أن يحقق لهم عدة مطالب فقالوا له : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي به كلاب فإنه شيخ صدق فنسأله عما تقول : أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك عرفنا به منزلتك وأنه

---

(١) الاكتفاء، حـ ١ ص ٣٠٥.

بعثك رسولا إلينا كما تقول .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل وما انا بالذي يسأل ربه وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا أو كما قال، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ؟

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد اعتذرنا إليك يا محمد وإنا والله لا نترك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله، وقال قائلهم : لن

نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل أو كما قال له، فوالله لا أومن لك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم والله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك . ثم انصرف من رسول الله ﷺ فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه .[1]

من النص السابق يبدو جليا وواضحا تعنت قريش وإصرارها على الكفر ومن ثم طرحت موضوعات بعيدة عن الإيمان والهدف من كل ذلك الجدال والمماطلة دون رغبة صادقة في التعرف على الدين الجديد، وفي قول أحدهم وهو عبد الله بن أمية بن المغيرة دلالة قاطعة على رفضهم المطلق للإسلام وانغلاق قلوبهم وصدهم عن السبيل؛ فقد عرض عبد الله على النبي ﷺ أن يصعد إلى السماء بسلّم ويأتي بأربع ملائكة يشهدون بصدق الرسالة، ومع كل هذا فهو لن يؤمن ويصدق بالإسلام وهذا منتهى الجحود والنكران والإصرار الأكيد على معتقداتهم البالية .

لقد ورد في القرآن أن مشركي قريش اتهموا رسول الله ﷺ بأخذ العلم من مصادر أعجمية قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .[2]

---

(١) الاكتفاء، جـ١ ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) سورة النحل ١٠٣.

وقد بين الصحابي عبد الله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم صبيان عبدان يصقلان السيوف، يقرآن التوراة هما يسار وخير فمر بهما رسول الله ﷺ وهما يقرآن كتابا لهما فقال المشركون إنما يتعلم منهما فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكان يقرآن التوراة بلسانهما وأصلهما من أهل نجران في حين تذهب رواية أخرى أنهما من عين التمر، وتذهب روايات ضعيفة إلى أن اسم القين الأعجمي بلعام أو يعيش . إن الرواية الصحيحة تثبت أن الرسول ﷺ مر بهما مرة واحدة وتفيد أنهما طفلان وكانا يقرآن التوراة بلسانهما أي بغير العربية والغالب إنها العبرانية كما هو معروف عن يهود الحجاز .[1]

ولو افترضنا أنه جلس إليهما عدة مرات كما في الروايات الضعيفة فمن أين لغلامين يصقلان السيوف أن يعلما رسول الله ﷺ نظاما شاملا للحياة ينبثق عن عقيدة مغايرة للنصرانية ؟! ثم لماذا انفرد الرسول ﷺ بمعرفة ما عندهما من العلم وأين مالكهما ابن الحضرمي من ذلك وقد آمن برسالة محمد ﷺ وعنه نقل الخبر الصحيح بشأن غلاميه النصرانيين . وغني عن القول أن لا علاقة للغلامين الأعجميين ببلاغة القرآن المعجزة وهى حجة الله على العرب الفصحاء وعلى من عرف أسرار لغتهم وتذوق حلاوتها إلى يوم الدين فكيف يكون مصدرها أعجميين ؟! .[2]

**٥- إيذاء قريش الرسول ومحاولة قتله :**

بذلت قريش كل جهدها في محاربة الدعوة الجديدة، ولم تترك سبيلا ولا طريقا إلا سلكته لعلها تنجح فيما أرادت؛ فلما كان الفشل نصيبها والخذلان مآلها، لجأت إلى الإيذاء والشتم والضرب بل ومحاولة القتل .

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ١٦٥.

(٢) المرجع السابق حـ١ ص ١٦٦.

ويأتي في مقدمة هؤلاء عمه أبو لهب وامرأته أم جميل أروى بنت حرب، وقد بدأت عداوتها لرسول الله ﷺ مبكرة منذ إعلان الدعوة على جبل الصفا، فقد ورد في بعض الروايات أن أبا لهب أخذ حجرا ليضرب به النبي ﷺ وهو يعلن دعوته على الملأ من قريش عند الصفا، وفي نفس الوقت فقد أمر أبو لهب ابنيه عتبة وعتيبة بتطليق ابنتي رسول الله ﷺ واستجاب الابنان لذلك، وهذا التصرف من جانب أبي لهب وابنيه فيه ما فيه من الإيذاء لشعور الرسول ﷺ فضلا عما لحق ابنتيه من أضرار نفسية ومادية .

وأخذت أم جميل بنصيبها من إيذاء النبي ﷺ، وكانت شديدة العداوة له فكانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلا، وكانت امرأة سليطة اللسان تبسط فيه لسانها وتطيل عليه الافتراء والدس وتؤجج نار الفتنة وتثير حربا شعواء على النبي ﷺ، لذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ويشير ابن هشام إلى أنها حين بلغها ما نزل فيها وفي زوجها أبي لهب أقبلت على النبي ﷺ وهو جالس في ساحة الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، أقبلت عليهما وهى تحمل في كفيها حجارة تريد أن تحصب بها النبي، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذه الحجارة فاه ثم انصرفت، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عنى .[1]

وشارك أم جميل بعض زعماء قريش كأمثال عقبه بن أبي معيط وعدى بن حمراء الثقفي وابن الأصداء الهذلي وهؤلاء كانوا جيرانه، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاه وهو يصلى في بيته، ويرمون

---

(١) ابن هشام حـ١ ص ٧٣٥.

بالأشواك والأحجار في طريقه، فكان ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به على العود فيقف به على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف !! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه فقد روي عن عبد الله بن مسعود : أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم وهو عقبة بن أبي معيط فجاء به فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئا لو كانت لي منعه قال : فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض- أي يتمايل بعضهم على بعض مرحا وبطرا - ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره فرفع رأسه ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم وقال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمي : اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر .[1]

وشارك أبو جهل بدوره في إيذاء النبي ﷺ بل وحاول قتله يقول ابن إسحاق (قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله أو كما قال، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدالهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدا فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله

---

(١) الرحيق ص ١٠٠.

ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو وكان بمكة وقبلته إلى الشام فكان إذا صلى صلى بين الركنين : الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام .

فقام رسول الله ﷺ يصلى، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجر حتى قذف الحجر من يده .

وقامت إليه رجالة قريش فقالوا : مالك أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه تعرض لي دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته - القصره أصل العنق - ولا أنيابه لفحل قط فهمّ بي أن يأكلني . قال ابن إسحاق : فذكر لي رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل لو دنا لأخذه .[1]

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عن رسول الله ﷺ فقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم .[2]

كما تسلط عليه عتبة بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصه وتفل في وجهه إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك واستجيب دعاؤه فذبحه السبع وهو بالزرقاء بالشام .[3]

---

(١) الاكتفا. حـ ١ ص ٣٠٨.

(٢) فتح الباري حـ ١٤ ، ١٧٩.

(٣) الدلائل حـ ٢ ص ٣٣٨.

وروى أحمد في مسنده أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناه الثالثة الأخرى ونائلة وإساف : لو قد رأينا محمدا لقمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله ...

وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم وحصبهم بقبضة من تراب من أصابته منهم قتل يوم بدر كافرا .[1]

هذه الاعتداءات الكثيرة والمتكررة مع إصرارهم على الكفر أصابت النبي بحزن، لكن ذلك الحزن لم يثنه أو يؤخره عن الاستمرار في نشر دعوته، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يزيد من اطمئنان النبي ﷺ بوعده بالنصر وأن الكلمة العليا هي لله فأرسل إليه جبريل والنبي ﷺ جالس حزين قد خضّب بالدماء ضربه بعض أهل مكة فقال له مالك ؟ قال : فعل بي هؤلاء وفعلوا فقال له جبريل : أتحب أن أريك آية ؟ قالك نعم فنظر إلى شجرة من وراء الوادي .

فقال : ادع بتلك الشجرة فدعاها فجاءت حتى قامت بين يديه فقال : مرها فلترجع فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ حسبي .[2]

## بعض صور من اضطهاد صحابة رسول الله ﷺ :

لم يكن إيذاء قريش وعنتها قاصرا على سيدنا رسول الله ﷺ، وإنما امتد إلى السابقين الأوائل من صحابة رسول الله ﷺ وذلك منذ أعلنت قريش حربا شعواء على الدين الجديد يقول ابن إسحاق "ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم

---

(١) السيرة النبوية ص ١٨٢.

(٢) المسند حـ ٤ ، ٢٦٩.

ويفتنونهم عن دينهم" [1] وف رواية اخرى ( فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، منهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم ) . [2]

لم تفرّق قريش بين أشراف المسلمين ذوى الحسب والمكانة في مكة، وبين الأرقاء والمستضعفين والموالي الذين أصابهم الكثير من العذاب، فهذا أبو بكر الصديق ذو المكانة والمنزلة في قريش ناله من الأذى الكثير، فحين وقف أبو بكر خطيبا في ساحة الكعبة يدعو الناس إلى دين الله، اجتمع عليه المشركون وأوسعوه ضربا شديدا، وممن ضربه عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما عرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى منزله ولا يشكون في موته وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة .

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأسه التراب، فمر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فقال أبو بكر : الا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت هذا بنفسك ؟!!

وقد استأذن الصديق أبو بكر الرسول ﷺ في الهجرة إلى الحبشة حين اشتد به العذاب والأذى فأذن له الرسول، تقول السيدة عائشة ﵂ : حين ضاقت عليه مكة واصابه فيها الأذى وراى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ واصحابه ما راى، قد استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له،

(١) الاكتفا. حـ ١ ص ٢٨٣.

(٢) المصدر السابق حـ ١ ص ٣١٦.

فخرج مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنّه اخو بني الحارث بن عبد مناة بن كناته وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال : أين يا أبا بكر ؟ قال : اخرجني قومي وآذوني وضيّقوا عليّ، قال : لم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم فأرجع فأنت في جواري .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنّة فقال : يا معشر قريش إني قد أجرْت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير .

قالت - أي السيدة عائشة - فكفوا عنه وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيأته .

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنّة فقالوا : إنك لم تجر هذا ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم فأمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فمشى ابن الدغنه فقال : يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذى قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

قال - أي أبو بكر - أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : ابن الدغنّة فارددْ علّى جواري، قال : رددته عليك فقام ابن الدغنّة فقال : يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري فشأنكم بصاحبكم .[1]

وهكذا انتصر الإيمان واليقين على جوار ابن الدغنّة وحمايته وصار أبو

(1) الاكتفاء، جـ ١ ص ٣٥٧.

بكر في جماعة المسلمين يتعذب مثلهم . وتشير المصادر إلى أن سيدنا أبا بكر اشترى جماعة ممن كان يعذب في الله تعالى وهم : بلال وأمه وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة وجارية بنى المؤمل والنهدية وابنتها وزنيرة .

وتشير الروايات إلى أن أبا بكر ﷺ كان يعتق المستضعفين من الرقيق المسلم فقال له أبوه أبو قحافة : لو أنك أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ؟ فبين له أبو بكر إنه يريد بذلك وجه الله لا المنعة فنزلت الآية ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝ ﴾ .[1]

وهذا سيدنا عثمان بن عفان وهو من بيت مرموق في مكة ينال نصيبه من الأذى فقد روى ابن سعد أن سيدنا عثمان عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطا وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه [2] ولم يكن هذا الترك مطلقا بل كان عمه يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته لعله يرجع عن الدين الجديد .

وهذا عبد الله بن مسعود الذي جهر بالقرآن في مكة تحديا لكفار قريش يقول ابن إسحاق وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود فيما حدث به عروة بن الزبير قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا قالوا نخشاهم عليك؛ إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن

---

(١) سورة الليل آيات ٥-٢١.

(٢) طبقات ابن سعد حـ ٣ ص ٥٥.

أرادوه، قال : دعوني فإن الله سيمنعني .

قال : فغدا ابن مسعود ﷺ حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قال : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ رافعا بها صوته ﴿الرحمن، علّم القرآن .. ﴾ قال : ثم استقبلهم يقرؤها وتأملوه فجعلوا يقولون : ما قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد .

فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه فقال المسلمون هذا الذي خشينا عليك، فقال : ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا : لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .[1]

وهذا مصعب بن عمير حين علمت أمه بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشا، فتخشف جلده تخشف الحية وحتى حمله أصحابه لشدة ما به من جهد .

ولم يسلم عمر بن الخطاب - بالرغم من شدته وقوته من أذاهم وذلك بعد أن أسلم، فحين دخل في دين الله أراد أن يعلم قريش بإسلامه فسأل : أي قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل به معمر الجمحي فغدا عليه حتى جاءه فقال له : أما علمت يا جميل إني أسلمت ودخلت في دين الله، فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - إلا أن ابن الخطاب قد صبأ وعمر يقول من خلفه : كذبت ولكني أسلمت وشهدت أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له

---

(١) الاكتفاء، حـ١ ص ٣١٣.

وأن محمدا عبده ورسوله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم . قال : وطلح - أي تعب - فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدالكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش - هو العاص بن وائل السهمي - عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمه رجل اختار لنفسه فماذا تريدون ؟ أترون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم !! هكذا خلوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه .[1]

وهذا الزبير بن العوام حين علم عمه بإسلامه كان يعلقه في حصير ويدخن عليه النار ويقول له : ارجع إلى دين الله والأجداد فيقول الزبير : لا اكفر أبدا .

واشتد الإيذاء وعظم على الموالي والمستضعفين حتى نطق بعضهم بكلمة الكفر وعذرهم الله في ذلك قال سعيد بن جبير لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجوعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم افتداء منهم مما يبلغون من جهده وفي مثل هذا أنزل الله تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

(١) الاكتفا، حـ ١ ص ٣٩٩.

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .[1]

وقد اشار ابن مسعود إلى ما كان يفعله المشركون بالمستضعفين يقول : أول من اظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه عمه وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس فما بينهم أحد إلا وقد وافقهم على ما أرادوا إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد .[2]

كان بلال بن رياح مولى لبعض بنى جمح وهو حبشي الأصل وقيل نوبي، أسلم في الرعيل الأول، وكان سيده أمية بن خلف إذا حميت الظهيرة يطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : ولا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى فكان جوابه : أحد أحد .

وروى البلاذري عن عمرو بن العاص قال : مررت ببلال وهو يعذب في الرمضاء ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت وهو يقول : أنا كافر باللات والعزى وأمية مغتاظ عليه فيزيده عذابا فيقبل عليه فيدغت في حلقه فيغشى عليه ثم يفيق .

وفي رواية أخرى قال : جعلوا في عنق بلال حبلا وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة - يعنى جبليها - ففعلوا ذلك وهو يقول أحد أحد، وروى أن بلال قال : أعطشوني يوما وليلة ثم أخرجوني

---

(١) البداية حـ ٣ ص ٦٥.

(٢) الحليه حـ ١ ص ١٤٩.

فعذبوني في الرمضاء في يوم حار .[1]

وعندما رآه سيدنا أبو بكر في هذا العذاب والشقاء ساوم أمية بن خلف على شرائه فوافق ودفع فيه خمس أواق ثم أعتقه، وقد قال بلال لأبي بكر : إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله .

وكذلك لاقى آل ياسر ألوانا وصنوفا من العذاب على يد بنى مخزوم فكانوا يخرجونهم إلى رمضاء مكة عند الظهيرة وعند اشتداد الحر فيعذبونهم، وقد شاهدهم الرسول ﷺ وهم يعذبون فقال لهم : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وقد كانت سمية بنت خياط - أم عمار - نالت من العذاب الكثير حتى طعنها أبو جهل بحربة في قُبلها فماتت، وكذلك مات ياسر والد عمار في العذاب، كما تفننوا في إيذاء عمار حتى أجبروه على أن يتلفظ بالكفر وفيه يقول بعض المفسرين في الآية الكريمة : ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ .[2]

وهذا خباب بن الأرت بن جندلة بن خزيمة، سبى في الجاهلية فبيع بمكة وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وكان يعمل حدادا في صناعة السيوف وهو من السابقين إلى الإسلام فلما علمت قريش بذلك صبت عليه العذاب صبا فكانوا يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ويلوون عنقه بعنف، ويلقونه على الصخور الملتهبة ويضعون فوقه صخرة كبيرة، كما أوقدوا له نارا ووضعوها على ظهره .

وفي صحيح البخاري حدّث خباب قائلا : كنت قيّنا بمكة فعملت

---

(١) أنساب الأشراف جـ١ ص ١٨٦.

(٢) النحل آية ١٠٦.

للعاص بن وائل السهمي سيفا فجئت أتقاضاه، فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ فقلت : لا اكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك قال : إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك فأنزل الله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝ ﴾ .[1]

وسارت بعض القبائل خارج مكة على نفس سياسة التعذيب والقهر والإذلال فقد روى ابن سعد أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم عندما أسلمت هي وزوجها وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها فسألوها إن كانت على دينه فأقرت بإسلامها فأقسموا على تعذيبها وعندما ارتحلوا من مكانهم حملوها على شر ركابهم وأغلظه ثم أطعموها خبزا وعسلا ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها وكرروا ذلك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بإصبعها إلى السماء بالتوحيد ولا تعي ما يقولون من شدة الإعياء والإغماء وأكرمها الله بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سببا في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ .[2]

وهذا أبو ذرى الغفاري عندما سمع بالإسلام جاء إلى مكة والتقى بالنبي ﷺ وأعلن إسلامه، وحين علم المشركون بذلك ضربوه حتى أغشى عليه ولم ينقذه من هذه الشدة إلا العباس عم النبي ﷺ .

ولا شك أن المسلمين على ضعفهم كانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم

---

(١) سورة مريم ٧٧.

(٢) الطبقات حـ ٧ ص ١٥٥.

وقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي بمكة فقالوا : يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؟! قال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ .[1]

ولجأت قريش أيضا في حربها ضد الإسلام إلى الحرب النفسية واستخدمت سلاح الإرهاب والتخويف ضد المسلمين يقول ابن إسحاق "وكان أبو جهل الفاسق الذي يغرى بهم في رجال من قريش إذا سمع بالرجل له شرف ومنعة قد أسلم أنّبه وأخزاه فقال : تركت دين أبيك وهو خير منك لنسفهّن حلمك ولنفيلن - لنخطئنه - رأيك ولنضعن شرفك وإن كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به" .[2]

وبلغ من شدة التعذيب بالمسلمين أن لجأ بعضهم إلى النبي ﷺ يشكون حالهم وما نزل بهم من ضر فقد روى البخاري عن خباب قوله : " شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من

---

(١) سورة النساء آية ٧٧ والسيرة النبوية الصحيحة حـ١ ص ١٥٨.
(٢) الاكتفاء حـ١ ص ٣١٩.

صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " .[1]

### إسلام حمزة بن عبد المطلب :

في هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان، وصرخات المستضعفين من المسلمين ترتفع إلى عنان السماء راجية الله أن يأخذ على أيدي الكفار والمشركين، انبثق نور الحق الذي أضاء سماء المقهورين والمغلوبين على أمرهم وذلك عندما أسلم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ واخوه من الرضاع، وكان فارسا مقداما معدودا بين فرسان قريش وأبطالها وقد تم إسلامه في أواخر السنة السادسة من النبوة .

وقد أشار ابن إسحاق إلى سبب إسلام حمزة بن عبد المطلب بقوله : " وحدثني رجل عن أسلم أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف - أي أبو جهل - عنه فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحا سيفه راجعا من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة .

فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا

---

(١) الفتح حـ ١٤، ١١٣.

عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام !! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فاحتمل حمزة الغضب، ولما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف على أحد معداً لأبي جعل إذا لقيه أن يوقع به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول فرد ذلك علي إن استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله من قوله .

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .[1]

وهكذا كان إسلام حمزة في أول الأمر أنفة وغضبا لما أصاب ابن أخيه رسول الله ﷺ ثم شرح الله صدره وأنار قلبه بالإيمان وصار جنديا من جنود الإسلام حتى استشهد ﷺ في غزوة أحد .

### هجرة المسلمين إلى الحبشة :

في أواسط السنة الخامسة من الهجرة تطور تعذيب قريش للمسلمين وازداد ضراوة حتى صارت إقامة المسلمين بين ظهراني المشركين في مكة صعبة ، وصارت الأخطار والأهوال تحيط بهم صباح مساء وفي هذه الأوقات العصيبة نزلت سورة الكهف ردا على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص ،

---

(١) الاكتفاء، حـ ١ ص ٣٠١.

فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عبادة المؤمنين .

فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين متوكلين على الله ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [سورة الكهف : ١٦] .

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجرى حسب الظاهر دائما ، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر ، ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماما وسينهزم هؤلاء الطغاة المشركون - إن لم يؤمنوا - أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء ، وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين آونة وأخرى - من يقوم بإنقاذ الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون .

ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة ، وتعلن بأن الأرض ليست بضيقة "للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل لا يظلم عنده احد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم من الفتن .[1]

قال ابن إسحاق "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى

---

(١) الرحيق ص ١٠٥ .

أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده احد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا بدينهم إلى الله فكانت أول هجرة في الإسلام" . [1]

**هذا النص يشير إلى دوافع الهجرة والتي يمكننا أن نجملها فيما يلي :**

أولا: تجنب الاضطهادات التي قام بها المشركون والتي لم يستطع المسلمون وقف تيارها .

ثانيا: أن قريشا فرضت على من أسلم حصارا اقتصاديا وضيقت عليهم في أرزاقهم وتجارتهم ، ومن هنا كانت أرض الحبشة ميدانا خصبا لكي يزاول المسلمون أعمالهم التجارية وهم في أمن على معتقداتهم .

ثالثا: أن بقية المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية كبلاد الفرس والروم واليمن ، كانت على علاقات تجارية وثيقة بقريش وهناك احتمال رد من يلجأ من المسلمين إليهم إلى قريش حرصا منهم على العلاقات الودية والتجارية القائمة بين هذه المناطق ومكة .

وقد أوضح القرآن الكريم أن دوافع الهجرة إنما كانت الاضطهادات التي وقعت للمسلمين وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في عدة مواضع منها ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾ .

كان أول من هاجر من المسلمين عشرة هم عثمان بن عفان مع امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعه ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار وأبو سلمة بن

---

(١) الاكتفاء حـ١ ص ٣٢٠ .

عبد الأسد المخزومي ومعه امراته أم سلمة وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب بن نفيل ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، وسهل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر وأبو سبرة بن أبي رهم ثم تتابع المسلمون فرارا بدينهم حتى اكتمل عددهم ثلاثة وثمانون .

وقد أشار ابن سعد إلى أنهم خرجوا متسللين وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة فيهم الراكب والماشي ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا .[1]

عاش المهاجرون في أمن وسلام في أرض الحبشة إلا أن بعض الأنباء الكاذبة ترامت إلى مسامعهم بأن المشركين ها دنوا الإسلام وتركوا أهله أحرارا ، وأن قريشا كفت عن إيذاء المسلمين واضطهادهم ومن ثم رحلوا وعادوا إلى مكة وقبل أن يدخلوها تبينت لهم الحقائق واضحة .

كان مصدر هذه الإشاعة الكاذبة هم زعماء قريش الذين أخرسهم الحق ، وخلب عقولهم بلاغة القرآن ومعانيه وصحة هذه الأنباء ما ورد في الصحيح أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم في جماعة من المسلمين والمشركين ، وخواتيم هذه الصورة قوارع تطير لها القلوب .

فلما اخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ

---

(1) الطبقات جـ ١ ص ٢٠٤ .

ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [1].

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين فما تمالكوا أن خروا لله ساجدين مع غيرهم من المسلمين، فلما نكسوا على رؤوسهم وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم ، ندموا على ما كان منهم ، وأحبوا أن يعتذروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمدا ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير حين قال تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ؟!

ومما لا شك فيه أن هذه افتراءات من مشركي قريش وذلك لمداراة سجودهم ، فالقرآن وحى من عند الله لا تبديل في آياته ولا زيادة ولا نقصان والرسول ﷺ لو كذب على الله - وحاشاه ذلك - باختلاق كلام عليه لحل به العقاب الشديد مصدقا لقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [2].

لقد حاول المشركون أن ينشروا فريتهم هذه ليعكروا على الرسول ﷺ ويشوشوا على الوحي ، وليوهموا الناس بان محمد ﷺ في بعض أحيانه مال إليهم وهيهات فان الحرب التي شنها سيدنا رسول الله ﷺ على الوثنية لم تزدها الليالي إلا ضراما ولم تزده من عبيدها إلا خصاما [3] .

ترتب على هذه الإشاعات الكاذبة أن عاد بعض مهاجري المسلمين من الحبشة فلما تبين لهم الحق بما أذاعته قريش ، عادوا مرة أخرى ومعهم

---

(١) النجم ٥٣-٦١

(٢) الحاقة ٤٤-٤٧

(٣) فقه السيرة ص١٢١

غيرهم واختلفت الروايات في عدد من هاجر فقد أشار ابن إسحاق إلى أن الرسول ﷺ حين وجد أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح اشد مما كان ، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم ، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية وكانوا هذه المرة نيفا وثمانين رجلا وتسع عشرة امراة واشار ابن سعد أن عدد الرجال ثلاثة وثمانين رجلا وعدد النساء إحدى عشرة امراة .[1]

لم تقبل قريش فكرة هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة وخاصة أن المسلمين وجدوا الاستقرار والأمن هناك ومن ثم أرسلت رجلين من خيرة رجالها محملين بالهدايا والتحف للنجاشي وبطارقته في محاولة منها لإعادة هؤلاء المسلمين إلى مكة يقول ابن إسحاق: " فلما رأت قريش من أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، انتمروا بينهم أن يبعثوا منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ثم بعثوهما إليه وقالوا لهما :ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي منهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم" [2] .

وقد تعاون رسولا قريش ومعهم البطارقة في تبليغ النجاشي رسالة قريش وضرورة إعادة هؤلاء المهاجرين إلى مكة ، إلا أن النجاشي غضب لذلك وقال : لا ها الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان

---

(١) الطبقات ج١ ص٢٠٧

(٢) الاكتفاء ج١ ص٣٢٤

في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم واحسنت جوارهم ما جاوروني .

وهو موقف إنصاف من النجاشي للمسلمين ، إذ رفض تسليمهم لمندوبي قريش قبل أن يسمع قولهم وحجتهم ومن ثم في ضوء ذلك يكون رد فعل النجاشي ، وأبلغ المسلمون برغبة النجاشي في الاجتماع بهم ، وحضر البطارقة بأناجيلهم وتم اللقاء بين النجاشي ورجال دولته وبين المسلمين المهاجرين يمثلهم في الحديث أمام النجاشي جعفر بن أبى طالب الذي قال : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وامرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ثم عدّد عليه أمور الإسلام .

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، وعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا واحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال

جعفر : نعم قال : فاقراه عليّ - فقرأ عليه صدرا من كهيعص فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا ولا يكادون" .[1]

هكذا فشل المندوبان في مهمتهما إلا أن هذا الفشل لم يمنع عمرو بن العاص أن يحرّض النجاشي مرة أخرى لعله ينجح في مسعاه يقول ابن إسحاق : "فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه عنهم غدا بما استأصل به خضراءهم ، فقال له عبد الله بن ربيعة وكان أبقى الرجلين فينا : لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا .

قال : والله لأخبرنهم أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ثم غدا عليه فقال : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فسلهم عما يقولون فيه ، فأرسل إليهم ليسألهم عنه فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون عن عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله ما قال الله وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب نقول فيه الذي جاء به نبينا يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فاخذ منها عودا ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فاخذ منها عودا ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

---

(1) الاكتفا، ج1 ص327

فتناخرت - أي أصدرت أصواتا منكرة - بطارقته حوله حين قال ما قال فقال : وإن نخرتم والله فأنتم شيوم بأرضي آمنون، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، فما أحب أن لي دبرا من ذهب ، واني آذيت رجلا منكم ويقال دبرا وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام .

ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علي ملكي فاخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فأطيعهم فيه ، فخرجا - أي ابن ربيعه وعمرو- من عنده مقبوحين فردوا عليهما ما جاءا به" .[1]

بهذا الحوار ، انتهت محاولة قريش بالفشل الذريع ، وعاد الرسولان القرشيان يجران أذيال الخيبة والعار ، واستقر المسلمون في دار هجرتهم الجديدة حتى عادوا بعد ذلك إلى يثرب .

يشير النص السابق إلى حقيقة هامة وهي العلاقة الوطيدة بين المسيحية الحقة التي نزلت على سيدنا عيسى بن مريم والإسلام الذي نزل على رسول الله ﷺ فقد كان النجاشي على دين سيدنا عيسى عليه السلام ، وكان مخلصا وصادقا في نصرانيته ، ولقد كان من مقتضى إخلاصه هذا أن لا يتحول عنها إلى ما يخالفها وأن لا ينتصر لمن يختلف عقيدتهم عما جاء به الإنجيل وما جاء به سيدنا عيسى عليه السلام .

أي فلو صحت تقولات أولئك الذين يزعمون انتمائهم إلى عيسى بن مريم وتمسكهم بالإنجيل من أن عيسى ابن الله وأنه ثالث ثلاثة لتمسك النجاشي - الذي كان من أخلص الناس لنصرانيته - بذلك ولرد على المسلمين كلامهم وانتصر لرسل قريش فيما جاءوا من اجله ، ولكنا رأينا النجاشي يعلق على ما سمعه من القرآن وترجمته لحياة عيسى بن مريم

---

(1) الاكفاء ج١ ص ٣٢٨

بقوله : " إن هذا والذي جاء به عيسى بن مريم ليخرج من مشكاة واحدة ، يقول ذلك على مسمع من بطارقته وعلماء الكتاب الذين من حوله" .

وهذا يؤكد ما هو بديهي الثبوت من أن الأنبياء كلهم إنما جاءوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا حولها بعضهم عن بعض قيد شعره ، ويؤكد لنا أن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم ليس إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا من عند أنفسهم كما قال الله تعالى . (١)

ومما يبعث على العجب والإكبار لموقف المهاجرين بيانهم لعقيدتهم في عيسى عليه السلام بصراحة ووضوح رغم مخالفتها للنصرانية السائدة في الحبشة فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين من تسليمهم لقريش فأحسن الله عاقبتهم وأمنهم في دار هجرتهم . (٢)

## إسلام عمر بن الخطاب :

لا شك في أن إسلام سيدنا عمر بن الخطاب كان نصرا كبيرا وفتحا مبينا للمسلمين المجاهدين في مكة وخزيا وإحباطا للمشركين من رجالات قريش ، أما عن عمر ونسبه فهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ويكنى أبا حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله ، وقد أنجب العديد من الأبناء والبنات في مقدمتهم ابنه عبد الله وعبد الرحمن وحفصة زوجة النبي ﷺ ، وكان والده الخطاب فظا غليظا في تربية ابنه عمر يقول عمر" لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان ، وكان والله ما علمت فظا غليظا ثم أصبحت إلى أمر أمة محمد ﷺ" . (٣)

---

(١) فقه السيرة النبوية ص٩٤

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج١ ص١٧٥

(٣) طبقات ابن سعد ج٣ ص٢٢٦

لقد سلك عمر في الجاهلية مسلك أقرانه في معاداة الإسلام والمسلمين ، بل وكان شديد الوطأة عليهم يعذبهم ويسخر منهم ، وقد استجاب الله لدعاء نبيه ﷺ في ان ينصر الله الإسلام بأحد العُمَرين "عمر بن الخطاب أو أبى جهل بن هشام" يقول ابن سعد : " أن النبي ﷺ قال : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ، قال" فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب .[1]

ويبدو أن هذه الشدة الظاهرة من عمر وقسوته لم تكن إلا غلافا لقلب مهيء للإيمان ، إذ أنه أحس برقة شديدة حين شاهد بعض مهاجري المسلمين إلى الحبشة يقول ابن إسحاق : " حدث عبد الله بن عامر عن امه ، أم عبد الله بنت أبى حثمة قالت : والله إنا لنرتحل إلى ارض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا ، إذ اقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ، قالت : وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا ، فقال : انه للانطلاق يا أم عبد الله ؟! فقلت : نعم والله لنخرجن في ارض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا . فقال : صحبكم الله !! ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته علينا . قال : أطمعت في إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب !!

فهذا الحوار يشير إلى تبدل في مشاعر عمر ، إلا أن عبد الله بن عامر استبعد فكرة إسلامه لما كان يصدر عن عمر من أفعال وقسوة ضد المسلمين ، والظاهر أن عمر كانت تصطرع في نفسه مشاعر

---

(١) الاكتفا، ج١ ص٣٣٤

متناقضة : احترامه للتقاليد التي سنها الآباء والأجداد واسترساله مع شهوات السكر واللهو التي ألفها ، ثم إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم الأذى في سبيل عقيدتهم ثم الشكوك التي تساوره كأي عاقل في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره .[1]

في هذا الصراع الذي ملأ نفس عمر من الخير والشر نراه يتسلل سرا إلى الحرم ويقف خلف أستار الكعبة والنبي ﷺ قائم يصلى وقد استفتح سورة الحاقة فجعل عمر يستمع إلى القرآن ويعجب بأسلوبه ، قال : فقلت . أي في نفسي . هذا والله شاعر كما قالت قريش قال : فقرأ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ قال : قلت إنه كاهن ، قال :﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام في قلبي .[2]

كان هذه أول وقوع نواة الإسلام في قلبه ، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية والعصبية التقليدية والتعاظم بدين الآباء هي غالبة على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه فبقى مجدا في عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة .

حتى حان وقت إسلامه وكرامة الله ، وإنقاذه من جهالة المشركين وضلالهم وذلك إثر حادثة وصفها ابن إسحاق بقوله : "وكان إسلامه فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد ، وهم مستخفون بإسلامهم من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه من بني عدى بن كعب قد أسلم ، وكان يستخفي بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب به الأرت يختلف إلى فاطمة بنت

(١) فقه السيرة ص ١٢٥

(٢) الرحيق ص١١٧

الخطاب يقرنها القرآن .

فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من اصحابه ، قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من اربعين بين رجال ونساء مع رسول الله ﷺ عمه حمزة وأبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب في رجال من المسلمين .

فلقيه نعيم فقال : أين تُريد يا عمر ؟ قال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفة أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر !! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً !! افلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم امرهم . قال : أي أهل بيتي ؟ قال : ختنك . الصهر . وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما .

فرجع عمر عائدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب معه صحيفة فيها "طه" يقرءهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمة - الصوت الخفي - التي سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد اخبرت أنكما بايعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم أسلمنا وامنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك !!

فلما راى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى وقال لها : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقراون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها، قال : لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها .

فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا آخى إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها "طه" فقراها فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال : يا عمر والله إني لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك" فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا السيف فرجع وهو فزع فقال : يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف :

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله ﷺ : إئذن له فأذن له الرجل . ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فاخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟! فوالله ما أرى ان تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة !! فقال عمر : يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله قال : فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد اسلم ، فتفرقوا من مكانهم وقد عزوا في انفسهم حين أسلم عمر ومع إسلام حمزة وعرفوا

انهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم .[1]

كان إسلامه ﷺ في ذي الحجة من سنة ست من النبوة وذلك بعد إسلام حمزة ﷺ بثلاثة أيام وكان عمره حينئذ ستا وعشرين سنة .

هكذا أعلن عمر إسلامه أمام الرسول ﷺ ، وفرح المسلمون بذلك فرحا شديدا ، ولان عمر بن الخطاب من الشخصيات القوية ذات الهمة العالية والتي لا تبالي بما يصيبها في سبيل ما آمنت به فقد تعددت الروايات في كيفية إعلان عمر خبر إسلامه على الملأ من قريش فقد روى ابن إسحاق عن بعض آل عمر قال : قال عمر لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتى آتيه فاخبره انى قد أسلمت .

قال : قلت أبو جهل وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ، فخرج إليّ فقال : مرحبا واهلا بابن أختي ما جاء بك ؟ قلت : جئتك أخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به ، فضرب الباب في وجهي وقال" قبحك الله وقبح ما جئت به !! [2]

وفي رواية أخرى عن ابن عمر قال : لما اسلم عمر قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ قيل له : جميل بن معمر الجمحى ، فغدا عليه وغدوت اتبع اثره انظر ما يفعل وانا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له : أما علمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ؟! فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش . وهم في أنديتهم حول الكعبة . ألا ان ابن الخطاب قد صبأ قال : يقول عمر من خلفه : كذبت ولكنني أسلمت وشهدت أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا

---

(١) الاكتفاء، ج١ ص٢٣٣

(٢) نفس المصدر ج١ ص ٣٤٠

عبده ورسوله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم . قال وطلح - أي تعب - فقعد وقاموا على راسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حبرة وقيمص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . قال : فمه رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم ؟! هكذا خلوا عن الرجل ، فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه .

فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة : يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ جزاه الله خيرا ، قال : أي بني ذلك العاص بن وائل السهمي لا جزاه الله خيرا .[1]

ومن ناحية أخرى فقد آمن عمر ويتعين أنه على الحق ومن ثم أراد أن يشاركه المسلمون فرحته بهذا الإسلام وإعلانه على الملأ من قريش دون خوف أو وجل فقد روى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب لأي شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام وقلت . أي حين أسلمت . يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال : بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجناه في صفين حمزة في أحدهما وأنا في الآخر له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ .[2]

وكان ابن مسعود ﷺ يقول : ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة

---

(١) الاكتفا. ج١ ص٣٣٩ .

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٦، ٧ .

حتى أسلم عمر وعن صهيب الرومي ﷺ قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعي إليه علانية وجلسنا حول البيت حلقا وطفنا بالبيت وانتصفنا ممن غلظ علينا ورددنا بعض ما يأتي به ، وعن ابن مسعود ﷺ قال : مازلنا أعزّة منذ أسلم عمر[1] وعن ابن عباس قال : لما أسلم عمر نزل جبريل فقال : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر .

**المقاطعة :**

بدأ صوت الإسلام يعلو في مكة ، وأقبل الكثير من أهل مكة على الدخول في الدين الجديد ، يضاف إلى ذلك إسلام سيدنا حمزة وسيدنا عمر وما في إسلامهما من نصرة وعز للإسلام ، ولم تنجح محاولات قريش المستميتة بالنسبة للنبي ﷺ في صرفه عن هذه الدعوة ، بل وفكروا في قتله بصرف النظر عن دفاع أبى طالب عنه ، مما دفع أبو طالب إلى دعوة بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف إلى نصرة الرسول ﷺ وحمايته فاقبلوا جميعا تلبية لهذا النداء من امن منهم بدافع عقيدته ومن لم يؤمن منهم بدافع عصبيته الأسرية عدا أبو لهب الذي ناصر قريشا في حربها ضد النبي ﷺ .

هذه الأمور مجتمعه دفعت قريشا إلى استخدام سلاح القطيعة يقول ابن إسحاق" فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وان النجاشي قد منع من الجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على إلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في

---

(1) الرحيق ص121

صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم .[1]

هكذا صعّدت قريش عداوتها للإسلام ونبي الإسلام فلا زواج ولا بيع أو شراء أو مخالطة ولا كلام حتى يحققوا أهدافهم الخبيثة وهى قتل الرسول ﷺ ، أما كاتب هذه الصحيفة فكما يقول ابن القيم "يقال كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ويقال نضر بن الحارث والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده .[2]

استمرت المقاطعة ثلاثة أعوام منع المسلمون من البيع والشراء فكان المشركون لا يتركون طعاما يدخل مكة ولا بيعا إلا بدروه فاشتروه " كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام قوتا لعياله فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ حتى لا يدركوا معكم شيئا ، وقد علمتم ما لي ووفاء ذمتي فأنا ضامن من لا خسار عليكم فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يده شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا .

وروى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال : خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول ، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ورضضتها بالماء فتقوت بها ثلاثا .[3]

في هذه الشدة المهلكة أنفق النبي ﷺ ماله وكذلك زوجته السيدة

---

(1) الاكتفا. ج1 ص 341

(2) زاد المعاد ج2 ص46

(3) فقه السيرة 127

خديجة وأبو طالب وصاروا إلى حد الضر والفاقة واشتد عليهم البلاء والجهد ، اللهم إلا ومضة من رحمة يرق بها قلب أحدهم فيهرب إليهم بعض الطعام إلا أنه يجد عنتا وشدة من أبي جهل يقول ابن إسحق "وقد كان أبو جهل فيما يذكرون لقي حكيم بن خزام معه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة وهي مع رسول الله ﷺ في الشعب فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ فقال له أبو البختري : طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأيتها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه فشجه ووطنه وطأ شديدا وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشتمون بهم . [1]

لم يتوان النبي ﷺ ولا المسلمون في تبليغ الدعوة وخاصة في مواسم الحج وذلك بالرغم من الشدة المعيشية التي كانوا يحيونها في شعب أبي طالب ، وقد كسب الإسلام أنصارا كثيرا في هذه المرحلة وكسب إلى جانب ذلك أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا وشرع بعضهم في إبطال هذه المقاطعة الجائرة ونقض الصحيفة المشئومة .

يقول ابن إسحاق " ثم إنه قام في نقض الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ولم يبل أحد فيها أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث وذلك انه ابن أخي نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبني هاشم واصلا ، وكان ذا شرف في قومه ، فكان فيما بلغني يأتي ليلا بالبعير قد أوقره طعاما

---

(١) الاكتفا، جـ١ ص٣٤٣

حتى إذ اقبله في فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يأتي به قد اوقره برا فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن امية بن المغيرة وامه عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا زهير : ارضيت ان تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ، أما إني أحلف بالله ان لو كانوا أخوال ابن الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا .

فقال : ويحك يا هشام ، فماذا أصنع ؟ إنما انا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها . قال : قد وجدت رجلا قال : فمن هو ؟ قال : أنا، قال له زهير : ابغنا ثالثا .

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه !! قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد قال : قد وجدت ثانيا ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنا ثالثا ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية قال : ابغنا رابعا .

فذهب إلى البختري بن هشام وقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن ابى امية والمطعم بن عدي وأنا معك . قال : ابغنا خامسا .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمي له القوم .[1]

---

(1) الاكتفا. ج١ ص ٣٥٩

هكذا أدرك بعض نفر من قريش ظلم هذا الإجراء الاقتصادي وأذى استمر ثلاث سنوات ومدى ما يعانيه المسلمون من مشقة وجهد ومن ثم اتفقوا على نقض الصحيفة ورسموا الخطة المثلى في تنفيذ ذلك .

يقول ابن إسحاق "فاتعدوا خطم الحجون - اي مقدمه - ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك فاجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير عليه حله ، فطاف بالبيت سبعا ثم اقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم !! والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الأسود : أنت والله اكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، قال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها . وقال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر قضى بليل تشوور فيه بغير هذا المكان ، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، وقام المطعم إلى الصحيفة يشقها فوجد الأرضة قد اكلتها إلا باسمك اللهم" .[1]

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال لعمه أبى طالب : يا عم إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما هو لله إلا اثبتته فيها ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان ، قال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : فوالله ما يدخل عليه احد ، ثم خرج إلى قريش فقال :

---

(١) الاكتفا. ج١ ص٣٦٠ .

يا معشر قريش إن ابن أخي اخبرني كذا وكذا فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا ، وان كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخي ، قال القوم : رضينا فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ ، فزادهم ذلك شرا ، فعند ذلك صنع الرهط في نقض الصحيفة ما صنعوا " .[1]

وهكذا تم نقض الصحيفة وخرج النبي ﷺ ومن معه من الشعب ، بعد أن رأى المشركون آية من آيات صدقه ونبوته ، ولكنهم ازدادوا شرا وبطرا وعتوا وفجورا وزعموا أن ما حدث هو سحر وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [2].

واصل النبي ﷺ نشاطه في تبليغ الدعوة دون كلل أو ملل، وهو صابر محتسب ويرجو في قرارة نفسه إسلام قومه وغيرهم من البشر رحمة بهم وشفقة عليهم من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، إلا أنه وجد إنكارا وصدودا ، فهذا ركانة بن عبد يزيد بن هاشم يدعوه النبي ﷺ إلى الإسلام ويريه آية من آيات الله إلا أنه ظل على وثنيته وشركه يقول ابن إسحاق "كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب أشد قريشا فخلا يوما برسول الله ﷺ في بعض شعاب مكة فقال له : يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ قال : لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك فقال رسول الله ﷺ : افرأيت إن صرعتك اتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم ، قال : فقم حتى أصارعك ، فقام إليه ركانة يصارعه فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئا . ثم قال : عد يا محمد فعاد

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٣٦١ .

(٢) سورة القمر : ٢ .

فصرعه ، فقال : يا محمد إن ذا للعجب أتصرعني !! قال رسول الله ﷺ : واعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري .

قال : ما هو ؟ قال : ادعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني . قال : ادعها فدعا بها فأقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقال لها : ارجعي إلى مكانك فرجعت إلى مكانها، فذهب ركانة إلى قومه فقال : يا بنى عبد مناف ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط ثم أخبرهم بالذي رأى وصنع .[1]

وهكذا اعتبر ركانة آية تحرك الشجرة وعودتها إلى مكانها إنما هو من قبيل السحر فضلا عن انتصار النبي ﷺ بالرغم من شهرة ركانة وقوته البدنية وأنه لا يوجد في العرب من يصرعه وكل هذا بسبب ما ران على قلبه من ظلمات الشرك وعبادة الأوثان وإنها لا تعمى الأبصار وإنما تعمى القلوب التي في الصدور .

وقف مشركو مكة بالمرصاد لكل من استجاب للدعوة الجديدة سواء أكان من أهل مكة أم من خارجها فهذا وفد نصارى نجران بعد لقائهم بالنبي ﷺ ترصدتهم قريش حين علمت بإيمانهم فانهالوا عليهم سبا وتقريعا يقول ابن إسحاق "ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى يقال أنهم من أهل نجران حين بلغهم خبره من الحبشة .

فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما

---

(١) الاكتفا، ج١ ص ٣٧٢ .

كان يوصف لهم في كتابهم من أمره .

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا لهم : خيّبكم الله من ركب !! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه !! ما نعلم ركبا أحمق منكم، فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا .

فقال : والله أعلم فيهم نزلت هذه الآيات ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾ .(1)

## عام الحزن :

في العام العاشر من بعثته فقد النبي ﷺ عمه أبا طالب وزوجه السيدة خديجة والاثنان كانا سندا له في تبليغ دعوته ، فأما أبو طالب وبالرغم من بقائه على الشرك إلا أنه بحكم العصبية الأسرية كان يدافع عن النبي ﷺ ويحميه في كثير من الأحيان من أذى قريش التي كانت تقدّر مكانة أبى طالب باعتباره شيخ بنى هاشم .

توفي أبو طالب بعد الخروج من الشعب بستة اشهر وقيل في السنة العاشرة من البعثة وقيل في رمضان وذلك قبيل وفاة السيدة خديجة بثلاثة أيام .

---

(1) سورة القصص٥٢-٥٥ .

وقد أدركت قريش ان أبا طالب في مرضه الأخير هذا أوشك على الموت فسعت إليه حتى تكتب تعاقدا بينها وبين ابن أخيه محمد يقول ابن إسحاق " ولمّا اشتكى أبو طالب وبلغ قريشا ثقله قالت قريش بعضها لبعض : أن حمزة وعمر قد اسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فيأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فانا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

فمشوا إلى أبي طالب فكلموه ، وهم أشراف قومه ، عتبة وشيبة ابنا ربيعه وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم فقالوا : يا أبا طالب إنك حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال " يا بن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله ﷺ : نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك عشر كلمات ، قال : تقولون لا اله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه، فقال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن أمرك لعجب .

ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا .[1]

وهكذا أبت قريش أن تعلن التوحيد وترك عبادة الأوثان ، إلا أن أبا طالب وهو على فراش المرض ناصر ابن أخيه وأيده في موقفه مما

---

(١) الاكتفاء ج١ ص٣٩١ .

أطمع النبي ﷺ في إسلامه فقد ذكر ابن إسحاق تعليق أبي طالب على موقف قريش السابق بقوله "والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا، فلما قالها طمع رسول الله ﷺ فيه فجعل يقول له : أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فلما رأى أبو طالب حرص رسول الله ﷺ عليه قال : يا ابن أخي لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعا من الموت لقلتها لا أقولها إلا لأسرّك بها .

فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه فقال : يا ابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها ، فقال رسول الله ﷺ : لم أسمع .[1]

وفي رواية أخرى " لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ يا عم قل لا اله إلا الله كلمة اشهد لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟!

فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله إلا الله .[2]

وهكذا مات أبو طالب على شركه بالرغم من انه كان حصنا لرسول الله ﷺ من أذى قريش وتعنتهم وظل يناصره إلى آخر رمق في عمره بحكم العصبية الأسرية إلا أنه مات على ملة آبائه وأجداده . لقد كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقله ولم يتمكن من تغييرها فهو شيخ كبير

---

(١) الاكتفاء ج١ ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه .

وقد سأل العباس الرسول ﷺ قائلا له : ما أغنيت عن عمك فانه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وعن أبى سعيد الخدرى انه سمع النبي ﷺ . وذكر عنده عمه . فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه .

وبعد وفاة أبى طالب ، انتقلت السيدة خديجة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وقد اختلفت الروايات في تاريخ وفاتها فقيل بعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو شهر وخمسة أيام أو بثلاثة أيام وقيل غير ذلك ، وقيل إن ذلك كان في رمضان من السنة العاشرة من المبعث وقبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، وكان عمر السيدة خديجة حين توفيت خمسة وستين عاما والرسول ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره .

ومنذ أن جاءها النبي ﷺ من غار حراء يبلغها بما وقع له ، حتى صدقته وآمنت به ووقفت تسانده في الشدائد والأزمات ، وتخفف عنه كيد وأذى قريش ، تؤازره وتساعده على مواجهة كل تلك الصعاب والشدائد التي عاشها النبي ﷺ في تلك الفترة الصعبة من عمر الدعوة الإسلامية ، لذا أحبها النبي ﷺ في حياتها وبعد مماتها وكان يقول ﷺ : آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها ، وفي رواية عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه

ولا نصب .[1]

في خضم هذه الشدائد والحزن الذي ملأ قلبه الشريف وذلك لإصرار قريش على كفرها وصدها عن سبيل الله بل وإيذائها النبي بالضرب والسب جاءه جبريل ليخفف عنه ، فعن انس بن مالك قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة ، فقال له مالك ؟ فقال له : فعل بي هؤلاء وفعلوا فقال له جبريل : أتحب أن اريك آية ؟ قال : نعم فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال : ادع بتلك الشجرة فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه ، فقال : مرها فلترجع فأمرها فرجعت إلى مكانها فقال رسول الله ﷺ : حسبي .[2]

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : لقد أخفت في الله عز وجل وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليله (ثلاثون متواليات) ومالي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال (شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت إبطه) ولم يكن لنا ظرف نضع الطعام فيه .[3]

## ثالثا : مرحلة الدعوة خارج مكة وانتشارها حتى هجرته ﷺ

هذه هي المرحلة الثالثة منذ أن نزل الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ وقد سبقها مرحلتان :

المرحلة السرية واستمرت ثلاث سنوات

(١) الاكتفاء. ج١ ص٣٩٠ .

(٢) الاكتفاء. ج١ ص ٣٩٠ .

(٣) قراءة في السيرة النبوية ص ٢٦٥ .

ومرحلة إعلان الدعوة واستمرت سبع سنوات عانى فيها النبي ﷺ والمسلمون اشد المعاناة من عنف قريش وإيذائها ، واستخدامها لكل صور التعذيب البدني والنفسي لعلها تنجح في صرف المسلمين عن الدين الجديد ، والمسلمون يزدادون كل يوم تمسكا بعقيدتهم موقنين بالنصر في نهاية الأمر .

**الرحلة إلى الطائف :**

في شهر شوال من العام العاشر من بعثته ، خرج النبي ﷺ قاصدا الطائف وهى تبعد عن مكة حوالي ستين ميلا ، يصحبه في رحلته مولاه زيد بن حارثة ، راجيا دخول قبيلة ثقيف في الإسلام ونصرتها للدين الجديد بعد أن خذله أهل مكة وحاربوا الدعوة بكل السبل .

توجه النبي ﷺ إلى بعض زعماء ثقيف عارضا عليهم الإسلام يقول ابن إسحاق" فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وإشرافهم وهم أخوة ثلاثة : عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير . . وعند احدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاء هم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه .[1]

وبطبيعة الحال عرض النبي ﷺ الإسلام وما فيه من مبادئ وأحكام بأسلوب هادئ لين، إلا أن انغلاق القلوب وانطماس البصائر دفعت هؤلاء الزعماء للرفض فضلا عن التهكم والسخرية ، فقال له أحدهم : هو يمرط - اي ينزعها ويرمى بها - ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك وقال الآخر: أما وجد أحدا يرسله غيرك !! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا،

---

(١) الاكتفاء، ج١ ص٣٩٥ .

لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على ما ينبغي لي أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم فيما ذكر لي : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيذئرهم - يجرئهم - ذلك عليه .[1]

وبالرغم من هذه المعارضة السيئة لزعماء ثقيف إلا أن الرسول ﷺ مكث عشرة أيام في الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام فما ازدادوا إلا بطرا وأشرا بل وسلطوا غلمانهم وصبيانهم لإيذاء الرسول ﷺ فرموه بالحجارة حتى سال الدم الشريف من عقبيه "اغزوا - أي أهل ثقيف - به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس . قال موسى بن عقبة : قعدوا له صفين على طريقه ، فلما مرّ رسول الله ﷺ بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة حتى أدموا رجليه ، وزاد سليمان التيمى أنه ﷺ كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون .[2]

في هذه اللحظات الصعبة الشاقة على النفس ، الممتلئة ألما وحزنا على إصرارهم على كفرهم فضلا عن مبالغتهم في الإيذاء والسخرية تطلع الرسول ﷺ إلى السماء وهو يدعو راجيا عفو الله ورحمته ورضاه قائلا : ( اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملّكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب

(١) الاكتفا،ج١ ص٣٩٥ .

(٢) المصدر السابق ج١ ص٣٩٥ .

فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ).

وربما يتوهم من اطلع على ظاهر سيرة هجرته عليه الصلاة والسلام إلى الطائف ، أنه ﷺ قد غلب على أمره هناك وأن الضجر قد نال منه ، وأنه ربما استعظم كل تلك المحن والمشاق التي أصابته لذا توجه إلى الله بذلك الدعاء بعد أن أطمأن قليلا في بستان ابني ربيعة ، ولكن الحقيقة أنه عليه السلام قد استقبل تلك المحن راضيا ، وتجرع تلك الشدائد صابرا محتسبا وما قاله النبي ﷺ في دعائه كله رجاء وأمل أن ينال رضا الله ولا يهم بعد ذلك ما أصابه من إيذاء وضرر .

في هذا الجو المكفهر ، جلس النبي ﷺ في جوار بستان يقول ابن اسحق " قال ابن عقبة : فخلص . أي الرسول . منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل في ظل حبله . شجرة العنب . وهو مكروب موجع ، فلما رآه ابنا ربيعة ، تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما نصرانيا يقال له عداس فقالا له : خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ، ففعل عداس ثم اقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : بسم الله ثم أكل فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال له رسول الله ﷺ : من أي البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال : نصراني وانا من أهل نينوى فقال له رسول الله ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

قال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ : ذاك أخي كان نبيا وانا نبي ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه

ويديه وقدميه ، فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي . قالا : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه [1] .

عاد الرسول ﷺ من رحلته إلى الطائف وهو مهموم وحزين لإخفاقه في إسلام أهل الطائف ، فضلا عن هذه المقابلة السيئة والمعاملة الفظة التي لاقاها من أهلها ، وقد ذكر النبي ﷺ بعد ذلك أن رحلته إلى الطائف كانت أشد عليه مما لاقاه في غزوة أحد .

وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني وقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت منهم . فناداني ملك الجبال فسلّم علي فقال : يا محمد ذلك لك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - جبلان حول مكة - فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا [2] .

يا لروعة الإيمان والرحمة في قلب النبي ﷺ ، فهو ﷺ لم يبال بالدماء تسيل من عقبيه ولا بسخرية أهل الطائف منه ، وإنما كل همه إسلامهم

---

(١) الاكتفا . ج١ ص ٣٩٧ .

(٢) الاكتفا . ج١ ص٣٩٨ .

ودخولهم في دين الله ، فلما عرض عليه ملك الجبال أن يخسف بهم الأرض رفض لعل الله يخرج من أصلابهم ومن ذرياتهم من يوحّد الله ؟!!

ولاشك أن حوار النبي ﷺ مع ملك الجبال الذي عرض عليه تدمير الطائف بسبب كفرهم إنما هو دعم لقلب النبي ﷺ وتثبيته في مواجهة الصعاب والمشاق، وهناك دعم آخر حدث له أثناء إقامته بوادي نخلة قرب مكة وقبل أن يدخلها إذ أقام عدة أيام ، استمع خلالها الجن لقراءة الرسول ﷺ فآمنوا به ، وهذا دعم آخر بصدق رسالته ، فإذا كان أهل الطائف قد كذبوه وسخروا منه فإن الجن قد آمنوا به وصدقوه وهذا يعني أن رسالته عامة للبشر والجن على حد سواء، يقول ابن إسحاق : "وفي انصراف رسول الله ﷺ راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف مر به النفر من الجن الذي ذكر الله تعالى في كتابه بنخلة قد قام من جوف الليل يصلي ، فمر به أولئك النفر من الجن وهم سبعة نفر من أهل نصيبين فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا فقص الله خبرهم عليه ﷺ قال عز من قائل :﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

وحقا كان هذا الحادث نصرا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو ، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث

---

(١) الأحقاف ٢٩-٣١ .

كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ وان أي قوى من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها .

أمام هذه النصرة وأمام هذه البشارات ، انقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف وصمم على دخول مكة واستئناف نشاطه في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد[1] .

ويبدو أن أخبار رحلة النبي ﷺ قد بلغت أسماع كفار قريش الذين تربصوا به شامتين حاقدين لإنزال الأذى به ، ومن ثم أرسل النبي ﷺ إلى بعض الزعماء طالبا النصرة والجوار ، ولم يستجب إلى هذا النداء سوى المطعم بن عدي ، يقول الكلاعي " إن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته سار حتى أتى مكة ثم بعث إلى الأخنس ابن شريق ليجيره فقال له : أنا حليف والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال : إن بني عامر لا يجير على بني كعب فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته وخرجوا حتى أتى المسجد ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله [2] ، وقيل أن أبا جهل سأل مطعما : أمجير انت أم متابع - أي مسلم- ؟ فقال : بل مجير ، قال : قد أجرنا من أجرت .

هذا الموقف النبيل لمطعم بن عدي في حماية الرسول ﷺ ، وقد سبق له أن شارك في نقض الصحيفة الظالمة كل هذا جعل النبي ﷺ يقول فيما بعد في أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدي حيا ثم

---

(1) الرحيق ص ١٤٥ .

(2) الاكتفاء ج١ ص٣٩٨ .

كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له .

## الإسراء والمعراج :

لقد سبقت الإشارة إلى ما كان يعانيه النبي ﷺ على أيدي كفارها من تعذيب وسخرية ومحاولة قتل ، فلما توجه إلى الطائف لعله يجد النصرة والمنعة وينشر الإسلام هناك ، واجه من إيذاء أهلها وسخريتهم الكثير ، ولقد ظهر في دعائه الذي ناجى به ربه بعد أن جلس يستريح في بستان ابني ربيعة ما يتعرض له كل إنسان من الشعور بالضعف والحاجة إلى النصير وذلك هو مظهر عبودية إنسان لله تعالى ، وظهر في التجائه ذلك شيء من معنى الشكاية إليه سبحانه وتعالى والطمع منه في عافيته ومعونته ، ولعله خشي أن يكون الذي يلاقيه إنما هو بسبب غضب من الله لأمر ما ، لذلك كان من جملة دعائه قوله : إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي .

فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريما من الله تعالى له ، وتجديدا لعزيمته وثباته ، ثم جاءت دليلا على أن هذا الذي يلاقيه عليه الصلاة والسلام من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلى عنه أو انه قد غضب عليه ، وإنما هي سنة الله مع من أحبهم وهى سنة الدعوة الإسلامية في كل عصر وزمن [1] .

وفي نفس الوقت كانت هذه المعجزة ابتلاء وتمحيص للمؤمنين وبيان لقدرة الله وعظمته يقول ابن إسحاق : وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من الله في قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق وكان من أمر الله على

---

(1) فقه السيرة النبوية ص١١٢ .

يقين ، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد[1] .

هي رحلة أرضية من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ومنه عرج به ﷺ إلى السماوات العلا ليرى من آيات ربه الكبرى وقد اختلف في توقيتها بين العلماء فمنهم من قال إنها كانت في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة ، ومنهم قال إنها كانت بعد المبعث بخمس سنين ومنهم من قال إنها كانت ليلة السابع والعشرين من شهر رجب في السنة العاشرة من النبوة وقد أرخ الزهري ذلك قبل خروجه إلى المدينة بسنة وغير ذلك من الأقوال .

وكما اختلف في توقيتها ، اختلف في طبيعتها ، هل الإسراء والمعراج بالروح فقط أم بالروح والجسد معا وهذا ما رجحه جمهور العلماء ، والواقع أنها كانت بالروح والجسد معا يقول ابن حجر في شرحه على البخاري : إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسده وروحه وإلى هذا ذهب جمهور من علماء الحديث والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك [2] .

وقد أيد واقع الأحداث ذلك إذ استعظم مشركو قريش ذلك وتعجبهم للخبر وسرعة تكذيبهم له ، إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه لما استدعى الأمر منهم اي تعجب أو استعظام أو استنكار لأن المرئيات في النوم لا حدود لها ، بل

---

(١) الاكتفاء ج١ ص٣٧٧ .

(٢) فتح الباري ج٧ ص١٢٦ .

يجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر، ولو كان الأمر كذلك لما سألوه عن بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدي [1] .

روى هذه الحادثة عدد من الصحابة منهم عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعائشة زوجة النبي ﷺ ومعاوية بن أبي سفيان وأم هانئ بنت أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزهري وقتادة وغيرهم من أهل العلم .

ومجمل هذه الحادثة انه أسرى برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس راكبا البراق صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام فنزل هناك وصلى بالأنبياء إماما ، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا وبقية السماوات وفي كل سماء كان يلتقي النبي ﷺ بأحد الأنبياء ، ثم رفع إلى سدرة المنتهى ، ثم صعد به إلى البيت المعمور ، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله قد دنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى وفرضت الصلاة .

لقد حدث للنبي ﷺ أمور كثيرة في تلك الرحلة المباركة ومنها انه أتى له بإنائين في أحدهما خمر والآخر لبن ، فاخذ إناء اللبن وترك إناء الخمر فقال له جبريل" هديت للفطرة وهديت أمتك أما انك لو أخذت الخمر لغوت أمتك" .

ورأى مالكا خازن النار وهو لا يضحك وليس على وجهه بشر أو بشاشة ، ورأى أكلة أموال اليتامى ظلما لهم مشافر كمشافر الإبل

---

(١) فقه السيرة النبوية ص١١٤ .

يقذفون في أفواههم قطعا من النار ، ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يتحركون من مكانهم بسببها ، ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن يأكلون من الغث المنتن ويتركون الطيب السمين وغير ذلك من المشاهد التي ذكرها النبي ﷺ .

فلما عاد رسول الله ﷺ إلى مكة وفي الصباح اخبر قريشا بالخبر ، يقول ابن إسحاق ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فاخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر العجيب المنكر . البين ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة ، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ [١]

وفي تحدي من قريش لرسول الله ﷺ طالبوه بما يؤيد كلامه ويصدقه فأخبرهم النبي ﷺ فلما خرج إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يا محمد فإنا لم نسمع بمثل هذا قط ؟ قال : آية ذلك إني مررت بعير بني فلان بوادي كذا فأنفرهم حس الدابة فند لهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان . جبل بناحية تهامة . مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياما ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء - أي تنزل من عقبة قرب مكة - ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى زرقاء[٢] .

وبالرغم من تحقق قريش من هذه الوقائع إلا أنها سدرت في غيها وكذبها ، وتوجه فريق من كبار الكفار إلى أبي بكر يستفسرون منه عن

---

(١) الاكتفا ، ج١ ص ٣٧٩ .

(٢) الاكتفا ، ج١ ص٣٨٣ .

هذه الحادثة مع استنكارهم لها فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك !! يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ؟ فقالوا : بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ؟! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد ما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم ، قال : يا نبي الله فصفه لي فإني قد جئته .

فقال رسول الله ﷺ : فرفع لي حتى نظرت إليه فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر ويقول ابو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا قال : صدقت أشهد أنك رسول الله .

حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وأنت يا أبا بكر الصديق فيومئذ سماه الصديق [١] .

إن هذه الرحلة المباركة ، والربط بين مكة وبيت المقدس والعروج إلى السماوات العلا لدلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسيته عند الله تعالى وفيه دلاله واضحة على العلاقات الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد لله عليهما الصلاة والسلام وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به كما فيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من أطماع أعداء الإسلام [٢]، ويمكن القول بأن حادثة الإسراء

---

(١) المصدر السابق جا ص٣٨٠ .

(٢)السيرة النبوية ص ٢٤٠ .

كانت تطمينا ومواساة لرسول الله ، وفتنة للكافرين الذين زاد عنادهم وكفرهم ولبعض ضعفاء الإيمان ممن زلزل الحادث إيمانهم فكفروا ولم يعودوا إلى حظيرة الإيمان حتى قتلوا [1] .

## عرض الإسلام على القبائل :

بذل الرسول ﷺ كل ما استطاع من جهد وطاقة في سبيل تبليغ رسالة ربه ، إلا أن قريشا رفضت الدعوة وانصرفت عنها بل وآذت النبي ﷺ وأصحابه وعذبتهم بكل ألوان التعذيب مما جعل بعض أصحابه يفرون بدينهم إلى الحبشة ، وخرج النبي ﷺ بنفسه إلى الطائف لعله يجد أذانا صاغية وقلوبا منفتحة للإسلام إلا أنه وجد إعراضا وصدودا بل وسخرية وإيذاء ، فما كان منه ﷺ إلا أن عرض الإسلام على القبائل والشخصيات في مواسم الحج لعله يجد مستجيبا للإسلام يقول ابن إسحاق : " فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ويخبرهم انه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به " [2] .

ولم تتركه قريش يبلغ دعوة ربه ، بل كانت تحرض القبائل والأشخاص على رفض الدين الجديد فهذا أبو لهب يترصد خطوات النبي ﷺ يحرض القبائل ويدعوها إلى التمسك بدين الآباء والأجداد قال ربيعة بن عباد الدؤلي : إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أُبيّن

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج١ص١٩٢ .

(٢) الاكتفاء ج١ ص ٤٠٠ .

عن الله ما بعثني به ، وخلفه رجل أحول وضئ له غدير كأن عليه حلة عدنية فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان إن هذا يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

قال ربيعة : فقلت لأبى : من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما قال ؟! قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب [1].

ثم تابع النبي ﷺ نشاطه في الدعوة إلى الله فأتى كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا واتى قبيلة كلب فرفضوا أيضا وكذلك بنى حنيفة فرفضوا وفزارة وغسان وقبائل سليم وعبس وبنو النضر وعذرة والحضارمة وغيرهم .

وممن عرض النبي عليهم الإسلام بنو عامر في الموسم وقد اشترطوا أن يرثوا الحكم والسيادة من بعده يقول ابن إسحاق" أن رسول الله ﷺ أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس : والله لو أنى اخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، ان يكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . قال : افنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك [2] .

وفي رواية أخرى أن احد بني عامر حاول الاعتداء على الرسول

---

(1) المصدر السابق ج١ ص٤٠ .

(٢) الاكتفاء ج١ ص ٤٠٣ .

الكريم ﷺ فكسر الله رجله ، وذكر الواقدي أيضا من حديث جهم بن أبي جهم أن رسول الله ﷺ وقف على بني عامر يدعوهم إلى الله فقام رجل منهم فقال له : عجبا لك والله ، أعياك قومك ثم أعياك إحياء العرب كلها حتى تأتينا وتتردد علينا مرة بعد مرة ؟! والله لأجعلنك حديثا لأهل الموسم .

ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالسا فكسر الله عز وجل ساقه فجعل يصيح وانصرف رسول الله ﷺ عنه [1].

وأبى بنو محارب الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ بل وحاول بعضهم قتله "وأتى رسول الله ﷺ بني محارب بن خصفة بعكاظ فوجدهم في محالهم فيهم شيخ منهم وهو جالس في أصحابه ، فنزل رسول الله ﷺ عن راحلته ودعا إلى الله وطلب المنعة حتى يبلغ رسالة ربه ، فرد على رسول الله ﷺ أقبح الرد وقال له عجبا لك ؟! يأبى قومك أن يتبعوك وتأتي إلى محارب تدعوهم إلى ما ليس عليه آباؤهم !! اذهب فانه غير متبعك رجل من محارب آخر الدهر . ويقبل إليه سفيه منهم فقال : يا محمد ما في بطن ناقتي هذه إن كنت صادقا ؟! فلعمري إنك لتدعي من العلم أعظم مما سألتك عنه ، تزعم أن الله يوحي إليك ويكلمك ، فأسكت عنه رسول الله ﷺ ، وأقبل إليه رجل منهم يقال له سلمة بن قيس ، وكان رسول الله ﷺ جالسا قريبا من منزلهم ، فأراد أن يطرحه في البئر فقام رسول الله ﷺ فتنحى عن البئر فجعل سلمة يقول : لو وقعت في البئر استراح منك أهل الموسم .

وأخذ رسول الله ﷺ بزمام راحلته يقودها وهم يرمونها بالحجارة حتى توارى عنهم وهو يقول : اللهم إنك لو شئت لم يكونوا هكذا ، وإن

---

(1) نفس المصدر ص ٤٠٤ .

قلوبهم بيدك وأنت أعلم بهم ، فإن كان هذا عن سخط بك علي فلك العتبى ولا حول ولا قوة إلا بك [1] .

واصل النبي ﷺ مسيرته في تبليغ الدعوة دون كلل أو ملل يقول ابن إسحاق : فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة ، ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده [2] .

ومن الشخصيات البارزة التي التقى بها النبي ﷺ ووفدت على مكة الطفيل بن عمرو الدوسى وكان رجلا شريفا شاعرا كريما ، فاستقبله كفار مكة وقالوا له : يا طفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد فرق جماعتنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وأخيه وإنما يخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه ، فمازالوا به حتى عزم على ألا يسمع من النبي ﷺ شيئا ولا يكلمه وحشا أذنه قطنا خوفا من أن يبلغه شيء من قوله . وغدا الطفيل إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ عند الكعبة فقام قريبا منه ، فأبى إلا أن يسمع الطفيل بعض آيات القرآن الكريم ، فأعجب الطفيل ما سمع فقال في نفسه : إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ما يمنعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذي يأتي به حسنا قبلته وان كان قبيحا تركته .

فلما انصرف الرسول ﷺ إلى بيته تبعه الطفيل حتى إذا دخل النبي

---

(1) الاكتفاء. ج1 ص40 .

(2) نفس المصدر السابق ج1 ص41 .

ﷺ بيته دخل معه ، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام وتلا عليه القرآن .

فقال : والله ما سمعت قولا قط أحسن من هذا ولا أمرا أعدل منه وقال : يا رسول الله : إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لا آية ، فدعا له فصار فوق سوطه نور ، فرجع إلى دوس ودعاهم إلى الإسلام ثم عاد إلى مكة يطلب من النبي ﷺ أن يدعو لهم بالهداية فدعا لهم وقال له : أرجع إلى قومك فادعهم وأرفق بهم ، فلم يزل بهم الطفيل حتى ذهب بثمانين بيتا من دوس إلى النبي ﷺ بالمدينة في السنة السابعة من الهجرة [1] .

## بيعة العقبة الأولى :

في العام الحادي عشر من بعثته ﷺ ، وبينما هو يعرض الإسلام على القبائل في الموسم التقى بستة من رجال يثرب من قبيلة الخزرج في منى فعرض عليهم الإسلام يقول ابن إسحاق : فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعوده له ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج قال : أمن موالي يهود؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن [2] .

ومن العوامل المؤثرة التي شجعتهم على الاستماع ثم الدخول في الإسلام أن هؤلاء الفتية كانوا يسمعون اليهود المقيمين معهم في يثرب يتحدثون عن نبي قد قرب زمانه وأنهم سوف يتبعونه، وكان ممن صنع

---

(١) قراءة في السيرة النبوية ص٢٩٤ .

(٢) الاكتفاء ج١ ص٤١٣ .

الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غلبوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه مثل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله تعالى قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا [1].

ولعل استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها وقعة بعاث قبل سنتين فقط من هذا اللقاء ، لعل ذلك كان سببا هيأه الله تعالى لإسلامهم ، وكذلك فإن قتل رؤسائهم في بعاث خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول في الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة ، وكذلك فإن الأنصار كانوا يحاورون يهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم [2] .

عادت الطلائع الأولى من مسلمي الأنصار إلى يثرب ونشطوا في تبليغ الدعوة حتى فشا الإسلام في يثرب ، وفي الموسم التالي أي موسم الثاني عشر من بعثته ﷺ ، وفد على مكة اثنا عشر رجلا من أهل يثرب منهم خمسة من الستة السابقين ، يضاف إليهم سبعة رجال من الخزرج والأوس

---

(١) الاكتفاء ج١ ص ٤١٣ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج١ ص١٩٧ .

فالتقى بهم الرسول الكريم ﷺ فأسلموا يقول عبادة بن الصامت : كنت من حضر العقبة الأولى وكنا اثنا عشر رجلا ، بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء - هي البيعة المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ - وذلك قبل أن تفرض الحرب ؛ على الا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتانا نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف .

قال : فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئا (فأصبتم بعد في الدنيا فهو كفارة له وان سُترتم عليه إلى يوم القيامة) فأمركم إلى الله أن شاء عذب وان شاء غفر[1] .

انتهت البيعة وأرسل النبي ﷺ أحد أصحابه السابقين إلى الإسلام ومن شباب الإسلام وهو مصعب بن عمير العبدرى ليعلم المسلمين في يثرب قواعد الإسلام .

أقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة أحد زعماء الأنصار يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا فيها رجال ونساء مسلمون ، ونجح مصعب في أداء مهمته ، ودخل في الإسلام كثير من الأنصار وعلى رأسهم اثنان من زعماء الأنصار هما "سعد بن معاذ وأسيد بن حضير " .

هكذا بدت بشائر النصر تظهر في يثرب بعد سنين عجاف من الصبر

---

(١) الاكتفاء ، ج١ ص ٤١٣ .

والألم والمحن التي لا تنتهي تحملها النبي ﷺ وأصحابه في صبر وثبات ويقين بنصر الله ، سنين طويلة يعانى فيها النبي ﷺ من حياة لا راحة فيها ولا استقرار ، تتربص به قريش في كل دقيقه لقتله وتصب عليه ألوانا من المحن والشدائد فلا ينقص ذلك من عزيمته ولا يضعف شيئا من قوته وسعيه وكان ﷺ يقول لأهل الموسم : " هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشا منعوني أن ابلغ كلام ربى " ، كذلك خاطب النبي ﷺ الناس في الحجاز : " يا أيها الناس قولوا لا اله إلا الله تفلحوا " وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئا وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم وأبو لهب يصيح : إنه صابئ كاذب يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى [1] .

## بيعة العقبة الثانية :

في السنة الثالثة عشرة من مبعثه ﷺ ، خرج وفد من الأنصار بلغ عدده ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وذلك ضمن وفد أهل يثرب قاصدين مكة للحج ، وفي مكة جرت اتصالات سرية بينهم وبين سيدنا رسول الله ﷺ ، وتم الاتفاق على أن يكون اللقاء عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى في أوسط أيام التشريق وأن يكون اللقاء ليلا بعيدا عن أعين مشركي قريش .

توجه النبي ﷺ إلى الاجتماع ومعه عمه العباس وابن عمه علي وأبي بكر الصديق ، وقد وقف أبو بكر وعلي على طرفي الشعب يراقبان المكان ، ودخل النبي ﷺ والعباس إلى جمع الأنصار ، وقد وصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الصحابي كعب بن مالك وكان ممن شهد هذه

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج١ ص١٩٣ .

البيعة : " فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بني مازن بن النجار ، وأسماء بنت عدي بن عمرو أم منيع إحدى نساء بني سلمة ، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر أخيه ويستوثق له" [1] .

وكان حضور العباس هذا الاجتماع ليستوثق من صدق الأنصار وما يترتب على هذه المبايعة من أخطار ضد النبي ﷺ ، لذا وجدناه يبادر القوم بالحديث قائلا : يا معشر الخزرج . وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها . أن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومه ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده ؟!

فقلنا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم [2] . وفي رواية الإمام احمد عن جابر : قلنا يا رسول الله على

(1) الاكتفا، ج1 ص421 .

(2) المصدر السابق .

ما نبايعك ؟ قال :

١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل

٢) وعلى النفقة في العسر واليسر

٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٤) وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم في الله لومه لائم .

٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم ، وتمنعوني مما تمنعون منه انفسكم وازواجكم وأبناءكم ولكم الجنة .

وهنا أخذ أحد زعماء الأنصار البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزرنا . أي النساء أو الأنفس . فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة .

واعترض الحديث أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا ونحن قاطعوها يعني اليهود فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم [١] .

وقبل أن تتم البيعة وقف احد الأنصار وهو العباس بن عبادة بن نضلة اخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ، قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة واشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الأن دعوه فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والأخرة ، وإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

---

(١)الاكتفا. ج١ ص٤٢١ .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة، قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه .[1]

هكذا تمت بيعة العقبة الثانية وهى تختلف عن بيعة العقبة الأولى من حيث أن عدد المبايعين من أهل المدينة في المرة الأولى كانوا اثني عشر فردا أما الثانية فكانوا بضعة وسبعين فردا وامرأتان ، وهذا يشير إلى جهود الداعية مصعب ابن عمير ومن معه ممن أسلموا في نشر الإسلام حتى جاء هذا العدد الوفير في بيعة العقبة الثانية ، والأمر الثاني أن البنود المنصوص عليها في البيعة الأولى خالية من الإشارة إلى الجهاد بالقوة ولكنها في البيعة الثانية تضمنت الإشارة بل التصريح بضرورة الجهاد والدفاع عن رسول الله ﷺ والدعوة إلى الإسلام بكل وسيلة .

لقد كانت البيعة الأولى إذن بيعة مؤقتة بالنسبة لاقتصارها على تلك البنود فقط وهى البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد أما البيعة الثانية فقد كانت الأساس الذي هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بناء عليه ، لذا فقد كانت شاملة للمبادئ التي ستتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته في مكة لكن الله عز وجل ألهم رسوله ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب[2] .

بعد أن بايع القوم الرسول ﷺ ، طلب منهم النبي ﷺ أن ينتخبوا من بينهم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم فتم الانتخاب وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٤٢٣ .

(٢) فقه السيرة النبوية ص ١٢٤ .

أما قريش فقد علمت بأخبار هذه البيعة بين مسلمي يثرب والرسول ﷺ وحين تأكدت من إتمامها ذهب وفد منهم إلى حجاج يثرب يقول معبد بن كعب عن أخيه عن أبيه وكان حاضرا هذه البيعة : " فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا فقالوا : يا معشر الخزرج انه قد بلغنا إنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين ظهورنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنا والله ما من حي في العرب ابغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه وصدقوا لم يعلموه وبعضنا ينظر إلى بعض .

وفي رواية أخرى أن وفد قريش توجه إلى عبد الله بن أبي بن سلول، فقال مثلما قال كعب من القول فقال لهم: إن هذا لأمر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته كان فانصرفوا عنه [1] .

هذه التأكيدات من جانب حجاج يثرب لم تقتنع بها قريش - بل أخذت تتحسس الأخبار والمعلومات حتى تيقنت من صدقها وكان اليثربيون قد غادروا مكة ، فخرجت فرسان قريش لعلها تلحق بهم ، ولم يظفروا إلا بسعد بن عبادة حيث قيدوه بالحبال وعادوا به إلى مكة وهم يضربونه يقول ابن إسحاق : " وإما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع - النسع : الشراك الذي يشد به الرحل - رحله ثم اقبلوا به حتى ادخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته - شعر الرأس المجتمع - وكان ذا شعر كثيف [2] . ولم ينقذه من هذا الموقف الصعب إلا جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية حين استجار بهما .

---

(١) الاكتفاء. ج١ ص ٤٢٤ .

(٢) الاكتفاء. ج١ ص٤٢٥ .

هذه هي بيعة العقبة الثانية التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة ويتعصب له ويغضب من ظالمه وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان ، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالا ، ويتركوا عليها أثارا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر [1] .

## أوائل المهاجرين إلى المدينة :

أدركت قريش خطورة مبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية وما يترتب على ذلك من فتح جبهة جديدة تناصر الإسلام والمسلمين وتعادى أهل مكة ومعتقداتها الباطلة ، ومن ثم ازدادوا في عتوهم وظلمهم وإيذائهم للمسلمين يقول ابن سعد في طبقاته يروى عن عائشة رضي الله عنها : لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه فقد جعل الله له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ، ونالوا ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة فقال : قد أخبرت

---

(١) الرحيق ص ١٧٢ .

بدار هجرتكم وهى يثرب ، ومن أراد الخروج فليخرج إليها فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك [1] .

لقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها ، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، وثالثه بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة ، لكن شيئا من ذلك لم يعق موكب الهجرة فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة [2] .

أذن الرسول ﷺ لأصحابه في مكة بالهجرة إلى يثرب فرارا بدينهم إلا أن قريشا وقفت بالمرصاد لكل من حاول الهجرة تمنعهم وتؤذيهم ، وقد لاقى الكثير منهم مشقة وعنتا ومن هؤلاء أبو سلمة بن عبد الأسد يقول ابن إسحاق : فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش من بني مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم مكة من ارض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من اسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا .

قالت أم سلمة : لما اجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمه في حجري ، ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟!

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها

---

( ١) طبقات ابن سعد ج١ ص ٢١٠ .

( ٢) السيرة النبوية الصحيحه ج١ ص٢٠٢ .

إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده !! وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبي سلمة إلى المدينة ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني [1] .

وهذا يدل على مدى ما بلغته قلوب هؤلاء المشركين من القسوة وتحجر العاطفة حتى مزقوا شمل هذه الأسرة لا لسبب إلا أنهم آمنوا بالله وحده ، وبعد سنة من العذاب عانته أم سلمة سمحوا لها باسترداد ابنها واللحاق بزوجها في المدينة .

وممن وجد عنتا من قريش الصحابي صهيب الرومي فقد جرده المشركون من كل ماله حتى يأذنوا له بالهجرة إلى المدينة يقول ابن إسحاق : وذكر لي أن صهيبا حين أراد الهجرة قال كفار قريش : أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذي بلغته ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك !! والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي ؟

قالوا : نعم . قال : فإني قد جعلت لكم مالي فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب [2] .

وهذا عمر بن الخطاب اتفق مع اثنين من الصحابة على الهجرة وهما هشام بن العاص بن وائل وعياش بن أبى ربيعة ، ونجح عمر وعياش في الهجرة إلى يثرب أما هشام فقد منعته قريش وحبسته .

فلما وصل عمر وعياش إلى قباء لحق بهما أبو جهل وأخوه الحارث واخبرا عياش بان أمه قد نذرت ألا تمس رأسها بمشط حتى تراه و لا

---

(1) الاكتفاء ج1 ص430 .

(2) الاكتفاء ج1 ص437 .

تستظل من شمس حتى تراه ، وقد انخدع عياش بهذا الحديث الكاذب وذلك بالرغم من تحذير عمر له ، إلا أنه استجاب وعاد معهما وفي الطريق قيداه بالحبال وحين دخلا به مكة على هذا الحال قالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا .

تتابع المسلمون مهاجرين إلى يثرب كبلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر ، وهاجر عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى ابنة أبي حثمة ثم عبد الله بن جحش ومعه أخوه أبو احمد وجميع أهله وتتابع الصحابة بعد ذلك حتى لم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ومن حبس أو فتن يقول ابن إسحاق : " وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ولم يتخلف معه احد بمكة من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق ، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا فيطمع أبو بكر إن يكون هو" [1] .

## المؤامرة الكبرى :

استشعرت قريش مدى الخطر المحدق بها وخاصة بعد أن نجح كثير من المسلمين في الهجرة إلى يثرب ، ولم يبق بمكة إلا سيدنا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى ومن حبس من مستضعفي المسلمين ، واخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقي الذي اخذ يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي .

فقد كانوا يعلمون ما في شخصية رسول الله ﷺ من قوة التأثير مع

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٤٣٨ .

كمال القيادة والإرشاد وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله ، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة ، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية سنين طويلة .

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة لطرق التجارة التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام ، وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويا فضلا عن تجارة أهل الطائف ، هذه التجارة الضخمة لن تحقق أهدافها إلا من خلال الطريق الأمن وهذا الأمن بيد أهل يثرب فإذا كانت دولة إسلامية بيثرب فهو الخطر بعينه على أهل مكة وتجارتها ومكانتها .

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهم ، فصاروا يبحثون عن انجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد وركيزته الأساسية هو حامل لواء دعوة الإسلام سيدنا رسول الله ﷺ [1] .

دعت قريش إلى اجتماع هام في دار الندوة وقد تحقق ذلك في يوم الخميس الموافق ٢٦ من صفر سنة أربع عشرة من البعثة الموافق الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ هجرية أي بعد شهرين ونصف من بيعة العقبة الكبرى، اجتمع زعماء قريش لتدارس الموقف واتخاذ القرار الحاسم لمواجهة هذا الخطر ، وكان من ابرز هذه الشخصيات المجتمعة :

١) أبو جهل بن هشام عن قبيلة بنى مخزوم .
٢) جبير بن مطعم وطعيمة بن عدي والحارث بن عامر من بنى نوفل بن عبد مناف .
٣) شيبه وعقبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب عن بنى عبد شمس بن

---

(١) الرحيق ص ١٧٦ .

عبد مناف .

٤) النضر بن الحارث عن بنى عبد الدار .

٥) وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام عن بنى أسد ابن عبد العرى .

٦) نبيه ومنبه ابنا الحجاج عن بني سهم .

٧) وامية بن خلف عن نبي جمح [1] .

وانضم إلى هذا الجمع إبليس في هيئة شيخ جليل يقول ابن إسحاق : " فاجتمعوا في دار الندوة وهى دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها يتشاورون ما يصنعون من أمره " .

فاعترض لهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بت - البت : الطيلسان من الخز وغيره ، ووقف على باب الدار في اليوم الذي اتعدوا له ويسمى يوم الزحمة ، فلما رأوه واقفا على بابها قالوا : من الشيخ : قال : شيخ من أهل نجد بالذي اتعدتم له فحضر معكم يسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدكم منه رأيا ونصحا . قالوا : أجل فادخل فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش وغيرهم [2] .

اجتمع الملأ من قريش ، وبدءوا يتشاورون ويتحاورون ، وقد أورد ابن إسحاق هذا الحوار بقوله : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا ، فاجمعوا فيه رأيا فتشاوروا ثم قال قائل : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

---

( ١) المرجع السابق ص١٧٧ .

( ٢) الاكتفاء ج١ ص ٤٣٨ .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا امرنا والفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، الم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال لما يأتي به ؟! والله لو فعلتم ذلك ما آمنتم أن يحل على حي من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه ، ثم يسير بهم أليكم حتى يطأكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد ، أديروا فيه رأياً غير هذا . فقال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم .

فقال الشيخ النجدي: القول ما قاله الرجل ، هو الرأي لا رأى غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له [1] .

هكذا انتهى اجتماع المشركين بعد تبادل الرأي والمشورة وانتهوا إلى هذا الرأي الخطير وهو اغتيال الرسول ﷺ وبذلك يتخلصون من

---

(١) الاكتفا، ج١ ص ٤٣٩ .

الدعوة وصاحبها واستراحوا إلى هذا الراي واطمئنوا إليه وقد باركه إبليس زعيم الشياطين ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠).

**الهجـرة :**

لم يعلم الرسول الكريم ﷺ بالمؤامرة وأبعادها حتى جاءه جبريل عليه السلام بالأمر من الله بالهجرة قائلا له : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .

أسرع النبي ﷺ بالتوجه إلى الصديق أبى بكر ليخبره بأمر الهجرة والإعداد لها ورسم الخطة المثلى للإفلات من كيد المشركين يقول ابن إسحاق : " حدث عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه ، أتانا بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها .

فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث ، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريرة فجلس عليه رسول الله ﷺ وليس عند ابى بكر إلا أنا وأسماء فقال رسول الله ﷺ : أخرج عنى من عندك ، فقال يا نبي الله إنما هما ابنتاي وما ذاك فداك أبي وأمي ؟!

فقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : الصحبة

قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك أن أحدا يبكى من الفرح حتى

رأيت أبا بكر يبكى يومئذ [1] .

في هذا اللقاء بين الرسول الكريم ﷺ والصديق أبى بكر تم وضع اللمسات الأخيرة للوصول سالمين إلى المدينة معتمدين على الله واثقين بحفظ الله لهما . فالصديق أبو بكر كان قد أعد من قبل راحلتين للسفر ، واستأجرا دليلا ماهرا عارفا بطرق الصحراء ودروبها وهو عبد الله بن أريقط وكان مشركا ، كما أن النبي ﷺ أمر عليا بالمبيت في فراشه للتمويه على المشركين فضلا عن إرجاع ودائع أهل مكة التي كانت في حوزة النبي ﷺ ، واقتضت الخطة الاتجاه جنوبا تجاه اليمن والاختباء في جبل ثور لأن البحث سوف يتركز في بداية الأمر في الطرق الموصلة إلى المدينة شمالا ، كما أمر أبو بكر ابنه عبد الله بنقل الأخبار والمعلومات من أندية قريش نهارا وإبلاغها للرسول وصاحبه ليلا ، حتى لا يتتبع أحد أثره فقد أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة يرعى الأغنام نهارا ويأتي بها ليلا إلى الغار ليطعم النبي ﷺ وأبو بكر منها وفي نفس الوقت تطمس أقدام الأغنام آثار تحركات عبد الله بن أبي بكر .

وفي معسكر المشركين ، أخذ المشركون في الاستعداد بالسيوف وغيرها نهارا لتنفيذ مؤامرتهم ليلا يقول ابن إسحاق : " فلما كانت عتمه من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه . المعروف من أخلاق العرب أنهم كانوا لا يغتالون خصمهم في داره وإنما الراجح أنهم انتظروه حتى يخرج . فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، وكان رسول

---

(1) الاكتفا ، ج١ ص٤٤٣ .

الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام .

فاجتمعوا له ومنهم أبو جهل فقال وهو على بابه : إن محمدا يزعم انكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ، وان لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها !!

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فاخذ حفنة من تراب في يده ثم قال : نعم أنا الذي أقول ذلك أنت احدهم .

واخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه ، وجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ ﴾ (يس : ٦-٩) .

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمدا . قال خيبكم الله !! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وضع على رأسه ترابا وانطلق لحاجته أفلا ترون ما بكم ؟! فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يطلعون فيرون علينا في الفراش متسجيا برد رسول الله ﷺ فيقولون : والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن الفراش ، فقالوا : والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا .

فكان مما أنزل الله من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا اجمعوا له قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ

﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال:٣٠). [١]

هكذا فشلت مؤامرة قريش ، مما زاد في حنق المشركين وغضبهم أن الرسول الكريم ﷺ خرج من بينهم بعد أن وضع التراب على رءوسهم استهزاء بهم وسخرية منهم ، فانطلقوا في كل صوب واتجاه بحثا وتفتيشا يقول ابن اسحق : " وشق على قريش خروج رسول الله ﷺ عنهم وجزعوا لذلك فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم ، ولما انتهى إلى فم الغار ، وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بعشاش بعضها على بعض بعد أن دخل رسول الله ﷺ فيما ذكروا ، قال قائل منهم : ادخلوا الغار فقال أمية بن خلف : وما إربكم إلى الغار ، إن عليه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد" [٢] .

لقد اقترب المشركون من غار ثور مما جعل الصديق أبو بكر يقول للنبي ﷺ : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

حقا لقد حفظ الله نبيه وصاحبه وأحاطهما بجنود من عنده وأعمى أبصار المشركين عن العثور عليهما يقول زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وانس بن مالك يحدثون أن النبي ﷺ لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت في وجه الغار وأمر الله عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم فتقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين فرجع فقال

---

( ١) الاكتفا، ج١ ص٤٤٠ .

( ٢) الاكتفا، ج٤٤٤ .

لأصحابه : ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه احد [1] .

مكث الرسول ﷺ وصاحبه الصديق أبو بكر في غار ثور ثلاثة ايام حتى إذا هدأت قريش في البحث والطلب شرعوا في السير وإمعانا في التمويه على قريش وإخفاء خبر هذا التحرك ، توجه النبي ومعه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة يقودهم الدليل عبد الله بن أريقط في اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجهوا غربا نحو الساحل حتى إذا وصلوا إلى طريق لم تألفه الناس ، اتجه شمالا على مقربه من شاطئ البحر الأحمر وسلكوا طريقا لم يكن يسلكه احد إلا نادرا .

وفي الطريق إلى يثرب حدثت بعض المعجزات التي حفظت الركب الشريف من عدوان المعتدين وآيات باهرات تؤكد حفظ الله لنبيه ومن معه . ومن ذلك محاولة سراقة بن مالك إلقاء القبض على النبي وإعادته إلى مكة حتى يفوز بجائزة قريش وهى مائة ناقة ، وقد حكى سراقة بن مالك ما حدث له في محاولته الفاشلة قال سراقة : فبينما أنا جالس في نادي قومي أقبل رجل منا حتى وقف علينا وقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا علي آنفا ، إني لأراهم محمدا وأصحابه .

قال : فأومأت إليه ، يعني أن أسكت ثم قلت : إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم ، قال : لعله ثم سكت .

فمكثت - أي سراقة . ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي ، وبسلاحي فأخرج لي من دبر حجرتي ، ثم اخذت قداحي التي أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لامتي ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أمره لا يضره ، وكنت أرجو أن ارده

---

(1) المصدر السابق .

على قريش فأخذ المائة .

فركبت على أثره فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي اكره : لا يضره ، فأبيت إلا ان اتبعه فركبت في أثره فبينما فرسي يشتد عثر بي فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ فركبت في أثره فلما بدا لي القوم عثر بي فرسي وذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه ، ثم أنتزع يديه عن الأرض وتبعهما دخان كالإعصار فعرفت حين رأيت ذلك انه قد منع منى وانه ظاهر .

فناديت القوم : أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ : قل له : ما تبتغي ؟ قال : تكتبوا لي كتابا يكن آية بيني وبينك . قال : اكتب يا أبا بكر ، فكتب لي كتابا في عظم أو في رقعة أو في خزفة ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت فلم اذكر شيئا حتى كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجت ، ومعي الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة . ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب فدخلت في كتيبه من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته والله لكأني انظر إلى ساقه في غرزه كأنها جماره - يريد بياضها فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لي أنا سراقة بن جعشم فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ادن ، فدنوت فأسلمت [1].

وفي رواية عن سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول

---

(1) الاكتفا، ج1 ص453 .

الله ﷺ قال لسراقة بن مالك : كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ قال : فلما أُتي عمر ﷺ بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما .

وكان سراقة رجلا أزب - الكثير الشعر - كثير شعر الساعدين وقال له : ارفع يديك فقل : الله اكبر ، الحمد الله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيا من بنى مدلج ، ورفع بها عمر ﷺ صوته [1] .

وفي الطريق أيضا عرج الوفد الكريم على خيمة أم معبد وهي امرأة من بني كعب من خزاعة وكانت امرأة قوية تطعم وتسقي عابري السبيل ، فسألوها لحما وتمرا ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك وكان القوم مرملين مستنين - مرملين : نفد زادهم فافتقروا ومستنين : أصابهم الجدب - فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك . قال : أتأذنين أن أحلبها ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبا فاحلبها .

فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها في شاتها فتفاجت - التفاج : المبالغة في تفريج ما بين الرجلين - عليه ودَرَّت واجْتَرَّت ودعا بإناء فحلب فيه ثجا حتى علاه لبنها ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم ، ثم حلب منه ثانيا بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها فقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن - يتمايلن من الضعف - فلما رأى أبو معبد اللبن ( عجب وقال : من أين لك هذا اللبن )

---

(1) المصدر السابق ج1 ص456 .

يا أم معبد، والشاء عازب حيال ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا، قال: صفيه لي يا أم معبد، فوصفته أم معبد في عبارة بليغة .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا [1] .

**الوصول إلى قباء :**

وصل الرسول الكريم صلى الله عليه ومن معه إلى قباء في الثامن من ربيع الأول في السنة الرابعة عشر من بعثته التي توافق الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ هجرية وكان المسلمون في يثرب وضواحيها يخرجون كل يوم يترقبون وصول الوفد المبارك ، حتى إذا ظهر الوفد على مرأى البصر من قباء رآه أحد اليهود صرخ بأعلى صوته معلنا وصول الرسول الكريم ومن معه يقول ابن إسحاق : حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة توكفنا - ترقبنا وانتظرنا - قدومه فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك في أيام حارة .

حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من يهود وقد راى ما كنا نصنع وإنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا ، فصرخ بأعلى صوته :

يا بني قيله هذا جدكم قد جاء . فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو

---

(١) الاكتفاء ج١ ص ٤٥٦ .

في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك ، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك [١] .

تجمع الناس من كل حدب وصوب تعلوهم الفرحة والابتهاج بقدوم رسول الله ﷺ ناجيا بنفسه من بطش المشركين ، وأحاطوا به في تعظيم وإجلال أو كما يقول ابن القيم .

وسمعت الوجبه والتكبير في بنى عمر بن عوف ، وكبر المسلمون فرحا بقدومه وخرجوا للقائه فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله والسكينة تغشاه [٢] .

نزل الرسول الكريم ﷺ ضيفا على كلثوم بن الهدم مدة أربعة أيام أسس فيها مسجد قباء وصلى المسلمون فيه وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة ، وخلال هذه الأيام الأربعة وصل علي بن أبى طالب مهاجرا من مكة بعد أن أدى الأمانات التي عهد بها إليه رسول الله ﷺ يقول ابن إسحاق : وأقام علي بن أبى طالب بمكة ثلاث ليالي وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منه لحق برسول الله ﷺ فنزل معه .

تحرك الركب النبوي ودخل المدينة يوم الجمعة فصلى بالمسلمين الجمعة في بني سالم بن عوف ، واحتشد أهل المدينة لسماعهم النبأ العظيم بمجيء رسول الله ﷺ وخرجت النساء والأطفال ومن قبلهم الرجال والشبان ليكونوا في استقبال رسول الله ﷺ وأنشدت بنات الأنصار هذه الأبيات فرحا وسرورا :

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٤٥٨ .

(٢)زاد المعاد ج٢ ص ٥٤ .

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وتسارعت كل جماعة وقبيلة ليكون لها شرف استضافة رسول الله ﷺ وكان جواب رسول الله ﷺ اتركوا زمام الناقة فإنها مأمورة حتى بركت الناقة أمام دار بني مالك بن النجار يقول ابن إسحاق : "حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده ، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ بن عفراء فلما بركت ورسول الله ﷺ لم ينزل ، فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول ثم تجلجلت ورزمت ووضعت جرانها - تحلحلت : تحركت ، ورزمت : أقامت من الكلال ، والجران : ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن خلفها - فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحلة فوضعه في بيته " [1]، وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه ﷺ بدار أبي أيوب سبعة اشهر .

بوصول رسول الله ﷺ المدينة تبدأ صفحة حديده ناصعة ومشرقة في سيرة رسول الله ﷺ ومسيرة الدعوة الإسلامية ، صفحة تتسم بالمنعة والقوى إذ صار للمسلمين دولة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة ، ومن المدينة انطلقت جيوش الحق تدك حصون الشرك والضلال ، وتنشر النور في كل مكان بادئه بشبة الجزيرة ، ثم انطلقت بعد ذلك إلى أنحاء الأرض تنشر الحب والخير والنماء .

---

(١) الاكتفاء جا ص ٤٦١ .

# الفصل الرابع

# الرسول في المدينة

دخل الرسول الكريم ﷺ المدينة في يوم الجمعة الموافق ١٢ ربيع الأول من العام الرابع عشر من بعثته ٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢م، لتبدأ صفحة جديدة في تاريخه ﷺ وتاريخ مسيرة الإسلام ، صفحة وضاءة مشرقة تحققت فيها عزة الإسلام ، وارتفع صوت الحق ، وبدأت الخطوات الأولى لبناء الدولة الإسلامية ، وذلك بالرغم من الحروب التي خاضها المسلمون ضد مشركي قريش ومن دخل في دائرتهم من اليهود والمنافقين وغيرهم ، استمرت هذه الفترة طوال عهد رسول الله ﷺ بالمدينة وهي عشر سنوات قضاها الرسول ﷺ وصحبه في وضع اللبنات الأولى للدولة الإسلامية ، ووضع التشريع الإسلامي من خلال آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة موضع التنفيذ وتوضيح العلاقات المتعددة بين المسلم وربه والمسلم وأسرته ومجتمعه والدنيا بأسرها ، ولم ينتقل الرسول الكريم ﷺ إلى جوار ربه إلا وقد ترك المسلمين على المحجة البيضاء ليلها كنهارها وترك فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا أبدا كتاب الله وسنته .

وقبل أن نتناول سيرته ﷺ في المدينة نلقي الضوء على أوضاع يثرب حين هاجر إليها الرسول الكريم ﷺ .

## يثرب قبل الإسلام :

سميت يثرب بالمدينة وطيبه وطابه ، فقد روى مسلم عن جابر أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أن الله تعالى سمى المدينة طابه وفي رواية عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال : " إنها طيبة يعني المدينة - وأنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة ".[١] كما وردت في بعض أحاديث الرسول ﷺ باسم المدينة ففي رواية البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال .[٢]

وقد فسر ابن حجر سبب كراهة تسمية المدينة بيثرب لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة أو من الثرب وهو من الفساد وكلاهما مستقبح وكان الرسول ﷺ يحب الاسم الحسن ويكره القبيح .

تقع المدينة شمالي مكة في منقطة بركانية وأما عن حدودها فهي تشغل رقعة واسعة من الأرض يحدها شمالا أُحد وجنوبا جبل عير وهذه المسافة تقدر باثني عشر ميلا ، ويخترق المدينة وادي بطحان الذي يجري من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ثم يجتمع في وادي العقيق وتصب في وادي بطحان عدة وديان فرعية تجري من الجنوب وأهمها رانونا ومذينيب ومهزور ، وبجانب هذه الوديان هناك عدد كبير من الآبار يستخدمها سكان هذه المدينة في الزراعة والشرب .[٣]

وقد امتاز هذا الموقع الفريد للمدينة بتحصن طبيعي ففي غربها حرة الوبرة - الحرة أو اللابة منطقة سوداء من الحجارة المحترقة يمتنع فيها المشي بالأقدام ومشى الإبل والخيل - وفي الناحية الشرقية توجد

---

(١) صحيح مسلم جراح ١٠٠٧ .

(٢) فتح الباري ج٣- ٧١٣٣ .

(٣) الدولة في عهد الرسول ج ١ ص ٢١ .

حرة واقم ، أما الناحية الشمالية فهي الناحية الوحيدة المكشوفة وهي التي حصنها النبي ﷺ يوم الأحزاب ، أما بقية الجهات فكانت محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة ، وهي بدورها تعوق أي تحركات للعدو المهاجم للمدينة .(١)

وأما بالنسبة للنظام السياسي للمدينة فلم تكن هناك حكومة تسيطر على أهل المدينة وإنما النظام القبلي هو السائد في المدينة حيث يعيش الأفراد في نطاق عشائرهم وقبائلهم وبجوار مزارعهم وهم متضامنون في السراء والضراء ، كما وجدت في المدينة ثمان وسبعون أطما - الأطم بناء عال كان يستعمل برجا للمراقبة والحماية - وبرزت عدة شخصيات في المدينة ممن كانوا يحتلون مكانة بارزة في عشائرهم من أمثال "البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حزم وغيرهم" ، كما تمتعت المرأة في مجتمع المدينة بمكانة مرموقة مما دفع عمر بن الخطاب إلى القول بعد هجرته إلى المدينة : " كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار " (٢) .

وأما عن حياتهم الاقتصادية فكانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية ويأتي البلح والشعير في مقدمة الإنتاج الزراعي ، واختلفت الملكية الزراعية فهناك قلة كانت تملك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وأما غالبية السكان فكانوا يمتلكون الأراضي يزرعونها ، كما اعتمدت الزراعة على مياه الوديان التي تغزر في الشتاء والربيع بعد نزول الأمطار وتشح في الصيف ، ونظرا لقلة الإنتاج الزراعي مع كثرة السكان فقد كانوا يستوردون كثيرا من المنتجات من خارج المدينة كالقمح والحمص والسمسم وغيرها من الحاصلات الزراعية .

---

(١) السيرة النبوية ص ١٧٨ .

(٢) الدولة في عهد الرسول ص ٢٣ .

وأما الصناعة فكانت بدائية ، وقامت النساء بدور مهم في هذا المجال إذ قمن بالغزل والنسيج وخياطة الثياب التي تحتاجها الأسرة وأما بقية الصناعات الأخرى فقد قام سكان المدينة من اليهود بالنصيب الأوفى منها حيث كانوا صناعا وصياغا وغيرها من الحرف .

ومن مظاهر ضعف النشاط الاقتصادي في المدينة عدم وجود سوق كبيرة فيها وإنما البيع والشراء كان يتم في مساحات صغيرة تعتبر أسواقا كما كانت تجرى في البيوت ، وبجانب ذلك فلم تكن المدينة ممرا للقوافل التجارية القادمة من اليمن والمتجهة إلى الشام وبالعكس وإنما كانت التجارة تمر بالساحل ، أو تمر في المناطق الواقعة في شرقي المدينة وهذا جعل المدينة منطقة معزولة نسبيا مما انعكس أثاره على المستوى الاقتصادي للمدينة [1] .

أما عن الجانب الثقافي والديني لأهل المدينة ، فلم تكن القراءة والكتابة منتشرة بين سكانها ولقلة الكتابة بينهم ، كان ينظر إلى من يعرف القراءة والكتابة نظرة إجلال وتقدير ويطلقون عليه لقب الكامل ، وممن كانوا يعرفون القراءة والكتابة في هذه الفترة أبي بن كعب وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وبشير ابن سعد وغيرهم .

وفي الجانب الديني قبل الإسلام كان أهل المدينة يحجون إلى البيت الحرام إلا أنهم كانت لهم تقاليدهم وطقوسهم فكانوا لا يسعون بين الصفا والمروة ويقفون المواقف كلها مع بقية الناس إلا أنهم لا يحلقون رؤوسهم وعند عودتهم من الحج لا يدخلون بيوتهم من أبوابهم بل يتسورون حيطانها .

وكان صنم مناه معظما لدى أهل المدينة ، وهذا الصنم يقع في قديد بالمشلل قرب البحرة منتصف المسافة تقريبا بين مكة والمدينة فقد

---

(١) الدولة في عهد الرسول ج ١ ص ٢٨ .

كانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ، ولم يكن احد اشد إعظاما له من الأوس والخزرج ، وكانوا بعد حجهم إلى مكة يأتونه فيحلقون رؤوسهم ويقيمون عنده لا يرون لحجهم تماما إلا بذلك [1] .

وكانت عشائر الأوس والخزرج لها أصنامها الخاصة بها كما كان لبعض الأشخاص أصنام خاصة بها فيروى ابن إسحاق أن عمرو بن الجموح كان سيدا من سادات بنى سلمة وشريف من أشرافهم وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة كما كان الأشراف يصنعون .

وبالرغم من انتشار الأصنام وعبادتها بين سكان المدينة إلا أنه وجدت قلة قليلة رفضت عبادة الأصنام واستنكرت السجود لصنم لا ينفع ولا يضر ومن هؤلاء أبو الهيثم بن التيهان واسعد بن زرارة وغيرهم .

واجه النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ثلاث فئات من السكان وهم :

أ- **المهاجرون :** وهم هؤلاء الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فرارا بدينهم من بطش مشركي قريش ، وكانت ظروف المدينة بالنسبة لهم تختلف عن ظروفهم في مكة، فهم في مكة وان كانت تجمعهم كلمة جامعة وكانوا يسعون إلى هدف واضح هو نصرة الدين الجديد ونشره بين الناس إلا أنهم كانوا مقهورين أذلاء مطرودين ، لم يكن لهم من الأمر شيء وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين فلم يكونوا يستطيعون أن يقيموا مجتمعا إسلاميا جديدا ، لذلك نرى السور المكية تقتصر على تفاصيل المبادئ الإسلامية وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد على حدة وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق واجتناب الرذائل والدنايا .

أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم ولم يكن

---

(١) الدولة في عهد الرسول ج١ ص ٢٩ .

عليهم سيطرة أحد من الناس فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران وبمسائل المعيشة والاقتصاد وبمسائل السياسة والحكومة وبمسائل السلم والحرب ومسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة ، وقد آن لهم أن يكونوا مجتمعا جديدا ، مجتمعا إسلاميا يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، ويمتاز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني ويكون ممثلا للدعوة الإسلامية [1] .

ب- **الأنصار :** وهم قبيلتا الأوس والخزرج وقد أطلق عليهم القرآن الكريم لقب الأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وهو تعبير عن مواقفهم الدينية والسياسية ، ويذكر النسابون أن أغلب أهل المدينة من الأزد وأنهم هاجروا من اليمن بعد تهدم سد مأرب واستقروا في المدينة ثم صارت لهم الغلبة فيها وهم في لهجاتهم وثقافتهم عند ظهور الإسلام لا تختلف كثيرا عن باقي أنحاء شبة الجزيرة ، وتذكر كتب الأنساب أن الأزد لما استقروا في المدينة كانوا كتلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج .

وقد تكونت قبيلتا الأوس والخزرج من عدة عشائر وبطون ، والواقع أن التجمع العشائري كان أساس الروابط والتنظيمات في المدينة فأفراد العشيرة مرتبطون بعدة روابط وثيقة كالإرث والتقارب في خطط السكنى [2] ، كما وقع بين القبيلتين حروب كثيرة وظلت هذه الحروب قائمة إلى قبيل حرب بعاث التي انتصرت فيها الأوس .

ولاشك أن وقائع أيام العرب بين الأوس والخزرج ولدت شعورا بالمرارة عند الطرفين ورغبة قوية في العيش بهدوء وسلام ، وهذا الشعور كان يرافق استقبال يثرب للإسلام حاملا معه بشائر التآخي والسلام ، وقد عبرت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أثر الحروب والمنازعات في إقبال أهل

---

(1) الرحيق ص ١٩٨ .

(2) الدولة في عهد الرسول ص ٣٦ .

المدينة على الإسلام بقولها : كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا قدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام [1] .

**جـ- اليهود :** وهم يشكلون قسما رئيسيا في المدينة ، وهؤلاء اليهود نزلوا بيثرب في القرن الأول الميلادي زمن الاضطهاد الآشوري والروماني وحين نزلوا بيثرب اصطبغوا بالصبغة العربية سواء في الزى أو اللغة والحضارة ، وقامت بينهم وبين العشائر العربية علاقة زواج ومصاهرة إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الدينية والجنسية ولم يندمجوا في القبائل العربية بل كانوا يفتخرون بديانتهم اليهودية ويفتخرون ويتعالون على العرب بذلك .

وكان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين . وهذه القبائل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة كانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في حي خاص بهم وذلك بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وبنو قريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة بينما كان بنو النضير يسكنون العالية بوادي بطحان على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، أما بنو قريظة فكانوا يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة [2] .

كان اليهود مهرة في فنون الكسب والمعيشة ، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب ، وكانوا يعملون أعمالا أخرى ويتعاملون بالربا فكانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم ثم كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وبساتينهم وزروعهم .

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة ج1 ص ٢٣١ .

(2) السيرة النبوية ص ١٩٨ .

وفي نفس الوقت كانوا أصحاب دسائس ومؤامرات، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ويألبون بعض القبائل على بعض فلا تزال هذه القبائل في حروب متواصلة .

لقد وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف العداء الشديد ، وحاربوها دون هوادة إلا من رحمه الله منهم وأسلم ومما يدل على تعنتهم وحقدهم الشديد على الإسلام ما روى في إسلام عبد الله بن سلام ، وكان حبرا من أحبار اليهود ومن أبرز علمائهم ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة في بنى النجار جاء مستعجلا وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ولما سمع ردود النبي ﷺ آمن به على الفور ثم قال له :

" إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجاءت اليهود ودخل عبد الله بن سلام البيت فقال رسول الله ﷺ : أي رجل فيكم عبد لله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وسيدنا وابن سيدنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال رسول الله ﷺ : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك مرتين أو ثلاث فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه فقال ابن سلام : يا معشر اليهود اتقوا الله الذي لا اله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق فقالوا : كذبت " [1] .

وصل الرسول ﷺ المدينة ليتعامل مع فئات مختلفة من البشر فالمهاجرون غرباء على المدينة ، وأغلبهم خرجوا من مكة بدون مال أو متاع والأنصار متناحرون فيما بينهم بسبب الحروب والفتن التي وقعت بينهم وأخيرا اليهود المعادين للجميع وأصحاب المال والضياع .

استطاع الرسول الكريم بعون من الله أن يؤلف بين المهاجرين

---

(١) الرحيق ص ٢٠٢ .

والأنصار ، وكون منهم جماعة متجانسة متعاونة يجمعها إيمان واحد قوي عميق بالإسلام وغاية سامية واحدة هي نشر الإسلام بين البشر ومواصلة الدعوة حتى يكون الأمر كله لله أي لدين الله ، وهذه الأمة المجاهدة لا تنشر الإسلام بالسيف أو بالقوة بل تنشره بالدعوة السلمية والكلمة الطيبة والأسوة الحسنة فلا تستعمل القوة إلا إذا صادفت سياسيين يقفون عقبة في سبيل وصول كلمة الإسلام إلى الناس فهؤلاء لابد من حربهم لا لنشر الدين بل لتيسير نشره .

وقبل انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الأمة الإسلامية في جزيرة العرب قد تحولت إلى قاعدة لأكبر قوة معنوية وعسكرية عرفها التاريخ إلى ذلك الحين ، فكيف كان من الممكن أن يتم هذا بدون تخطيط دقيق؟ وكيف يقال إن الحضارة الإنسانية لم تعرف التخطيط إلا في العصر الحديث ؟ فماذا يكون التخطيط إذا لم يكن تخطيط الرسول ﷺ هو نموذجه الأكمل [1].

بدأ الرسول ﷺ بناء الدولة الجديدة باتخاذ عدة خطوات تأتى في مقدمتها بناء المسجد :

**(أ) بناء المسجد :**

يقول ابن إسحاق : ونزل عليه رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان وسأرضيهما منه فأتخذه مسجدا .

فأمر به رسول الله ﷺ ان يبنى وعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه فعمل المهاجرون والأنصار ودأبوا فقال قائل من المسلمين :

---

(1) دراسات في السيرة النبوية ص ٤٨ .

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل [1]

كان المكان الذي أسس عليه المسجد فيه شجر غرقد ونخل وقبور قديمة لبعض المشركين فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت وبالنخيل والشجر فقطعت وصفت في قبلة المسجد وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع ومن الجانبين مثل ذلك أو دونه ثم بنوه باللبن ، وكان رسول الله ﷺ يباشر البناء مع أصحابه وينقل معهم الحجارة بنفسه وجعل قبلته إلى بيت المقدس وجعل عمده الجذوع وسقفه وقيل له : ألا تسقفه، فقال : عريش كعريش موسى خشيبات وثمام - نبت ضعيف قصير- الشأن أعجل من ذلك ، أما أرضه فقد بقيت مفروشة بالرمال والحصباء .

وقد ظل مسجد رسول الله ﷺ على هذا الشكل دون أي زيادة أو تغيير فيه مدة خلافة أبي بكر ﷺ، ثم زاد فيه عمر ﷺ بعض التحسين ولكنه بناه على بنائه في عهد النبي ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا ثم غيره عثمان ﷺ فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة والجص [2] .

وما إن فرغ المسلمون من بناء المسجد الذي استغرق بناؤه اثنا عشر يوما، حتى شرعوا في بناء عدة حجرات متواضعة مبنية باللبن وسقفها بالجريد والجذوع وهي حجرات أزواجه ﷺ ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها الرسول ﷺ من بيت أبي أيوب . وكانت أول خطبه خطبها رسول الله ﷺ في المسجد أن قال : " أما بعد ، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ، الم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وافضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ثم لينظرن قدامه فلا يرى إلا جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من

---

(١) الاكتفاء، ج١ ص ٤٦١ .

(٢) فقه السيرة ص ١٤٢ .

النار بشق تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبه، فان بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "[1] .

لم يكن في مسجد رسول الله ﷺ أول ما بنى منبر يخطب عليه للناس بل كان يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلاه ، فلما اتخذ للرسول ﷺ منبر وعدل إليه ليخطب عليه ، خار ذلك الجزع وحن حنين النوق العشار ، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده فرجع النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكن وهذا من دلائل نبوته [1].

ومما يتصل بوظائف المسجد ، اتخاذ الأذان ، وكان ذلك في السنة الأولى من هجرته على الأرجح يقول ابن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم وكان هذا الحي من الأنصار الذين تبوؤوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها بغير دعوة فهمٌ رسول الله أن يجعل بوقا كبوق يهود الذي يدعون به لصلاتهم ثم كرهه فأمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد اخو بالحارث من الخزرج النداء فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله انه طاف بي هذه الليلة، طائف ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقلت : يا عبد الله اتبيع هذا الناقوس؟ قال : وما تصنع به؟ قلت : ندعوا به إلى الصلاة قال : افلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت : وما هو؟ قال : نقول : الله اكبر الله اكبر ، أشهد أن لا اله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد

---

(١) السيرة النبوية ص٢٧٩ .

أن محمدا رسول الله ، اشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح ، الله اكبر ، الله اكبر ، لا اله إلا الله .

فلما اخبر بها رسول الله ﷺ، قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فأنه اندى - أي أبعد - صوتا منك ، فلما أذّن بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول : يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى فقال رسول الله ﷺ : فلله الحمد [1] .

لقد لعب المسجد دورا هاما في حياة المسلمين فلم يكن فقط للعبادة وأداء الصلوات وإنما كان مأوى لضعفاء وفقراء المهاجرين الرجال العزاب الذي لم يتمكنوا من الحصول على منازل خاصة بهم كما كان مكانا لتعليم المسلمين أمور دينهم وساحة لإنشاد الشعر دفاعا عن الدعوة الإسلامية ومقرا لاستقبال الرسل والسفراء الذين يفدون على رسول الله ﷺ بالمدينة وفيه كان يجتمع النبي ﷺ بأصحابه لدراسة سيرة الإسلام والتشاور فيما يعّن للمسلمين من أمور ، وأحيانا تنصب في المسجد خيمة لعلاج جرحى المسلمين كما حدث في غزوة الأحزاب [2].

**(ب) المواخاة :**

من تنظيمات الرسول ﷺ بعد بناء المسجد، هو ربط المهاجرين والأنصار برباط الإخاء يقول ابن القيم : ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر فلما أنزل الله

---

(١) الاكتفا، ج١ ص ٤٦٦ .

(٢) السيرة النبوية ص ٢٩٨ .

عز وجل : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [1] رد التوارث دون عقد الأخوة .

وقد قيل انه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنيين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار [2] .

وفي رواية ابن إسحاق : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال فيما بلغنا : تآخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخي ، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب أخوين [3] .

يذكر السمهودي أن المؤاخاة تمت في الأشهر الأولى من الهجرة ، وأشار إلى اختلاف الرواة في تحديدها بين الشهر الخامس والسابع ولم يشر إلى حادثة دفعت إلى تنفيذها وإنما اقتصرت على ذكر اسمها وهي المؤاساة أن يتوارثوا بعد المؤاخاة دون الأرحام ، ومن الطبيعي أن الجانب الرابح في الميراث هم المهاجرون إذ لم تكن لهم أملاك يورثونها أما الأنصار فكانت لهم الأموال .

إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير التآخي والمحبة المبادلة ، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

---

(1) الأنفال آية ٧٥ .

(2) زاد المعاد ج٢ ص٥٦ .

(3) الاكتفا ، ج١ ص٤٦٤ .

على أن التآخي أيضا لابد أن يكون مسبوقا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها ، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة ذو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم خصوصا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية .

ومن اجل ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابة العقيدة الإسلامية التي جاءهم بها من عند الله تعالى والتي تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح [1] .

لقد بذل الأنصار كل جهدهم في معاونة إخوانهم المهاجرين وحاول الأنصار أن يقاسمهم المهاجرون أموالهم إلا أن المهاجرين تعففوا وحاولوا أن يكسبوا قوتهم بعرق جبينهم فانطلق كثير منهم يضرب في ميدان التجارة وكانوا بارعين فيه ، واتجه البعض الأخر إلى الزراعة يعمل في أرض الأنصار مزارعة مع ملاكها وحاول كل مهاجر أن يجد له عملا يتكسب منه حتى لا يكون عالة على غيره فالإسلام دين عمل ولا مكان فيه لخامل أو كسلان فعن أبي هريرة قال : قالت الأنصار - أي للرسول ﷺ - اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل ، قال : لا ، قالوا : أفتكفوننا المؤنة ونشرككم في الثمرة ، قالوا : سمعنا واطعنا"[2] .

وروى البخاري أنهم - أي المهاجرون - لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالا فاقسم مالي نصفين ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، قال : بارك الله لك في أهلك ومالك وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا

---

(١) فقه السيرة النبوية ص ١٤٨ .

(٢) البداية والنهاية ج٣ ص ٢٢٨ .

ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو ثم جاء يوما وبه اثر صفرة فقال النبي ﷺ : مهيم ؟ قال : تزوجت ، قال : كم سقت إليها ؟ قال : نواة من ذهب [1] .

وهكذا كان الإخاء تُمحى فيه كلمة أنا ويتحرك الفرد فيه بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها فلا يرى لنفسه كيانا دونها ولا امتداد إلا فيها ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا للإسلام وان تسقط فوارق النسب واللون والوطن فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الإخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ، وكانت عواطف الإيثار والمؤانسة تمتزج في هذه الإخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال [2] .

**(ج) الصحيفة :**

وهي دستور وضعه الرسول ﷺ لجماعته في المدينة ليحدد لها نظام العمل في شئون الجماعة الداخلية والخارجية ، لم يمل الصحيفة إملاء ، بل كانت ثمرة مناقشات ومشاورات بين الرسول ﷺ وأصحابه ، من المهاجرين والأنصار وكل من هاجر إلى المدينة من العرب ، ومن ثم كتبت وأصبحت دستورا للجماعة الجديدة [3] .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم [4] .

تضمنت الصحيفة مجموعة من البنود توضح العلاقة بين المهاجرين

---

(١) البخاري ج١ ص٥٥٣ .

(٢) فقه السيرة ص ١٤٩ .

(٣) دراسات في السيرة النبوية ص ٥٥ .

(٤) الاكتفاء ج ١ ص٤٦٤ .

والأنصار وبين المسلمين بصفة عامة ومن يسكنون معهم من اليهود في المدينة لتكون دستورا يلتزم به كل طرف وبنودها :

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم :

١- أنهم امة واحدة من دون الناس .

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم - الرابعة : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها - يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٣- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحا - المفرح : هو المثقل بالدين كثير العيال - بينهم أن يعطوه بالمعروف فداء أو عقل .

٤- وأن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم أو ابتغى دسيعة - العظيمة - ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

٥- وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

٦- ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر .

٧- ولا ينصر كافرا على مؤمن .

٨- وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

٩- وأن من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

١٠- وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١١- وأن المؤمنين يبيء - يرجع بعضهم على بعض - بعضهم على بعض بما نال من دمائهم في سبيل الله .

١٢- وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣- وانه من اعتبط - أي قتله بلا جناية - مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود — القصاص — إلا أن يرضى ولي المقتول .

١٤- وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

١٥- وانه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولا يؤويه وانه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذنه صرف ولا عدل .

١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل والى محمد ﷺ [١] .

ونصوص هذه المعاهدة كما يظهر لنا تحقق الأمن والسكينة والكرامة الإنسانية لأفراد المجتمع وتدل على أن الرسول ﷺ كان يهدف إلى أن يقيم مجتمعا متعاونا متكافلا على البر والتقوى في السلم والحرب وأن يقضى على كل ما يضر المجتمع أو يشيع فيه الفوضى والاضطراب، كما تعطى المعاهدة للفرد والحرية في العقيدة وفي الرأي في الإقامة والرحيل بشرط ألا يضر الفرد بغيره ، وأعلنت المعاهدة الحرب على قريش وعلى من يجيرها أو ينصرها وأحلت دماءها وأموالها ودعت إلى تكاتف أهل المدينة في وقت الحرب لدفع المغيرين عنها .

وهكذا تفسح الأمة الإسلامية صدرها لغيرها من الأديان الأخرى بان يعيش في كنفها ويكون له مثل ما لها من الحقوق والواجبات ما دام لا يضر بمصلحة الأمة أو يؤدى إلى إيذانها [٢] .

ومن ناحية اخرى فقد كان في المدينة وخارجها أقوام من اليهود ، وكان من الضروري تنظم علاقة المجتمع المسلم بهم وتحديدها وبيان مسئولية كل جماعة ، ومن ثم تضمنت الصحيفة بنودا تنظم هذه العلاقة ومن أهم ما ورد فيها :

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٤ .

(٢) السراج المنير ص ٩٦ .

١) أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم كذلك لغير بنى عوف من اليهود .
٢) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
٣) وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
٤) وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
٥) وانه لم يأثم امرؤ بحليفه .
٦) وان النصر للمظلوم .
٧) وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .
٨) وان يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة .
٩) وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل والى محمد رسول الله ﷺ .
١٠) وانه لا تجار مع قريش ولا من نصرها .
١١) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قتلهم .
١٢) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم [١] .

هذه المبادئ والقواعد التي قررها الرسول ﷺ تنطق برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة لنشر السكينة في ربوعها والضرب على أيدي المعتدين ومدبري الفتن أيا كان دينهم وقد نصت بوضوح على أن حرية الدين مكفولة فليس هناك أدنى تفكير في محاربة طائفة أو إكراه مستضعف بل تكاتفت العبارات في هذه المعاهدة على نصرة المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق الخاصة والعامة واستنزل تأييد الله على أبر ما فيها واتقاه كما استنزل غضبه على من يخون ويغش .

واتفق المسلمون واليهود على الدفاع عن يثرب إذا هاجمها عدو وأقرت

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٦ .

الخروج من المدينة لمن يبتغى تركها والقعود فيها لمن يحفظ حرمتها، ويلاحظ أن الرسول ﷺ في هذه المعاهدة أشار إلى العداوة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة ، وأعلن رفضه الحاسم لموالاتهم وحرم إسداء أي عون لهم [1] .

عاش الرسول صلوات الله وسلامه عليه في المدينة عشر سنوات في جهاد متصل وعمل مستمر لإرساء قواعد الإسلام وحمايته من أذى المعتدين وكيد الكائدين ، وقد تعددت القوى المعادية للإسلام وتنوعت الجبهات المتربصة بالمسلمين ويمكننا أن نحدد هذه القوى فيما يلي :

أولا : المشركون في شبة الجزيرة .

ثانيا : اليهود والمنافقون .

ثالثا : مكاتبة الملوك والجهاد ضد الروم .

### الجهاد :

وقبل أن نتناول هذه القوى المعادية بشيء من التفصيل نشير إلى تشريع الجهاد الذي جاء تلبية لمطالب المسلمين واحتياجاتهم للذود عن عقيدتهم وحمايتها فضلا عن حماية قاعدة الإسلام وعاصمته وأعنى بها المدينة المنورة .

الإسلام دين يعتبر السلام من أهم أسسه ، وقد تردد ذكر السلام ومشتقاته في القران الكريم وأن الله هو السلام والجنة دار السلام والدين اسمه الإسلام ، فالقاعدة الأساسية في الإسلام هو السلام والدعوة الدينية هي سلمية : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ ﴾ [3] .

---

(1) فقه السيرة ص١٩٩ .

(2) البقرة آية ٢٥٦ .

(3) النحل آية ١٢٥ .

أما الحرب فهي حالة شاذة تحتمها بعض الظروف والأحوال وتتمثل هذه الظروف في عداوة أعداء الإسلام للمسلمين فهم متربصون بهم يريدون فتنتهم واجتثاث : ﴿ الإسلام وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝ ﴾ [1] .

اختلفت الحرب في الإسلام عنها في الجاهلية ، فبينما كانت في الجاهلية بغرض السلب والنهب والسيطرة على الماء والكلأ وإعلاء شأن القبيلة كانت في الإسلام في سبيل الله أي بغرض ديني فهو جهاد مقدس وواجب ديني لخدمة مثل أعلى وفي سبيل الله رب العالمين والله الأوحد الذي دينه دين الحق فالجهاد في الإسلام من أجل الحق والعدل : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝ ﴾ [1] .

ومن هذا نستخلص أن الجهاد يعنى إعلاء كلمة الله وإقامة المجتمع الإسلامي وبذل الجهد بالقتال نوع من أنواعه وأما غايته فهو إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة ، وأما المراحل التي مر بها تشريع الجهاد فقد كانت أربع مراحل :

١- مرحلة الصبر دون القتال بمكة .

٢- مرحلة الإذن بالقتال بعد الهجرة .

٣-مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال .

٤- مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين .[2]

لقد كان الجهاد ضرورة أوجبتها الظروف التي كانت تمر بها الدعوة

---

(1) الأنفال ٣٩ - ٤٠ .

(٢) زاد المعاد جـ ٣ ص ٧١ .

الإسلامية فالمسلمون المهاجرون من مكة إلى المدينة عانوا شتى أنواع الاضطهاد والتعذيب على أيدي المشركين فقد صادروا حرياتهم وعقائدهم وآذوا أبدانهم وحاولوا إكراههم على الكفر وترك الإسلام بعد أن شرح الله صدورهم له ولكنهم تحملوا في سبيل إيمانهم ما لا يستطيع أحد أن يتحمله على المدى الطويل .

ثم بعد ذلك كان تآمر قريش في دار الندوة على قتل رسول الله ﷺ ومحاولة تنفيذ ذلك ليلة الهجرة وتعقبه أثناء هجرته ورصدهم الأموال لمن يقتله أو يأتي به حيا أو ميتا ، وذلك إعلان صريح بالعداوة للدعوة وصاحبها .

وهكذا لم يكن الرسول ولا المسلمون هم الذين ابتدءوا بالقتال وإنما الحقيقة أن أعداءهم هم الذين أكرهوهم على القتال حيث لم تكن وسيلة لتأديب المعتدين وإلزامهم سبيل الصواب سوى أن تتحقق الحماية لإتباع الإسلام وذلك برد كيد أعدائه وما ذلك إلا بالجهاد والقتال .

وبعد الهجرة والانتقال إلى المدينة كانت الدولة الإسلامية مطالبة بحماية أتباعها في المدينة ثم تخليص أتباعها الذين يحبسهم أعداؤها وفي نفس الوقت فالدعوة الإسلامية ليست دعوة محلية أو إقليمية وإنما هي دعوة إلى الناس كافة أي أن المسلمين مطالبون بتبليغها إلى البشرية جمعاء ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [1] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [1] ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [2] .

ولا شك أن الدول والممالك المحيطة بشبه الجزيرة لها عقائدها ونظمها وسوف تقف من هذه الدعوة الجديدة موقف المعارض والمحارب حتى لا تصل الدعوة إلى شعوبها ومن ثم كان الجهاد ضرورة اقتضتها

---

(١) سورة سبأ آية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

مسيرة الدعوة .

قال ابن القيم " لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وايده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم فقد قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [1]

وقد وردت الأحاديث الشريفة في الحث على الجهاد وبيان مكانة المجاهد فمن ذلك قوله ﷺ (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله ، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بان يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع اجر وغنيمة ) وقال ﷺ ( غدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها )[2] وقال ﷺ (جاهدوا في سبيل الله فان الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجى الله به من الهم والغم ) [3] وقال ﷺ : ( مقام أحدكم في سبيل الله خير من عبادة أحدكم في أهله ستين سنة ، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة ، وجاهدوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة ) [4]، وغير ذلك من

---

(١) زاد المعاد ج٣ص ٧٠و سورة الحج آية ٣٩ .

(٢) البخاري ج٦/١١ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ج٥ ص٣١٤ .

(٤)أخرجه أحمد في المسند ج٢ص٤٤٦ .

الأحاديث الشريفة التي تبين مكانة الجهاد والمجاهدين في التشريع الإسلامي .

## أولا : موقف الرسول من مشركي العرب

لقد خاض الرسول ﷺ العديد من المعارك ضد قريش وحلفائها فهي أي قريش الخصم الألد للدعوة الإسلامية فقد قاومتها وعذبت المسلمين حتى اضطرتهم للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة بعد ذلك ، وظلت العدو الأكبر للإسلام والمسلمين حتى تم فتح مكة في العام الثامن من الهجرة ، وقبل أن نشرع في توضيح موقف الرسول ﷺ من قريش وحلفائها نشير إلى بعض المصطلحات التي وردت في كتب السيرة : فهناك الغزوات وهي البعوث العسكرية التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ، وهناك السرايا وهي البعوث العسكرية التي اختار الرسول ﷺ واحدا أو أكثر من أصحابه لقيادتها وأخيرا البعوث وهي التي أرسل فيها الرسول ﷺ واحدا أو عددا قليلا من أصحابه لا يزيدون على العشرة للقيام بمهمة عسكرية أو سياسية محددة ، وتدخل في هذه البعوث الجماعات التي كان الرسول يبعث بها للدعوة إلى الإسلام أو تعليم الناس مبادئه ، وقد يحدث فيها قتال وقد لا يحدث لكنها ليست عسكرية في الأصل والغاية [١] .

قد غزا النبي ﷺ بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيها تسعا هي بدر واحد والمريسيع والخندق وقريظة وخبير وفتح مكة وحنين والطائف ، أما عدد السرايا وهي التي أناب النبي ﷺ غيره من الصحابة في قيادتها فقد بلغت سبعا وأربعين سرية [٢] .

لم يهدأ لقريش بال بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وقد سبقه إليها

---

(١) دراسات في السيرة النبوية ص ١٢٤ .

(٢) المغازي ج١ ص٧ .

كثير من المسلمين وهنا أدركت الخطر المحدق بتجارتها وهي عماد حياتهم المتجهة إلى الشام والقادمة منها وكانت تمر بالمسالك القريبة من المدينة ومن ثم أخذت على عاتقها الاتصال بعبد الله بن أبي بن سلول المشرك بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة وأوشك أن يكون ملكا على يثرب لولا هجرة النبي ﷺ إليها ، كتبوا إليه يقولون : إنكم أويتم صاحبنا وانا نقسم بالله لنقاتلنه أو لتخرجنه ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتليكم ونستبيح نساءكم وقد استجاب عبد الله بن أبى لهذا النداء الخبيث حتى يحقق أطماعه في الرئاسة والزعامة وبدأ يعد أنصاره للقتال لولا يقظة رسول الله ﷺ وحسن معالجته للأمور إذ قال لهم : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، وما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وأخواتكم ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا [1] .

بل وامتد تهديد قريش ووعيدها لمن توجه إلى البيت الحرام من أهل المدينة فهذا سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرا فنزل على أمية بن خلف بمكة فقال لامية :انظر لي ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت فخرج به فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال : هذا سعد، فقال له أبو جهل : الا اراك تطوف بمكة أمنا وقد أويتم الصباة وزعمتم انكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه طريقك على أهل المدينة [2] .

وهذا يعني أن قريشا متربصة لكل مسلم قادم من المدينة تريد إيذاءه والفتك به ، وهذا سعد بدوره ينبه أبا جهل للمخاطر التي تتعرض لها تجارة قريش لو نزل به أذى .

---

(١) الرحيق ص ٢١٥ .

(٢) صحيح البخاري ج٢ ص٥٦٣ .

استمرت قريش في تهديدها للمسلمين والتلويح بقوتها وعددها وعدتها فقد أرسلت إلى المسلمين في المدينة تهددهم وتتوعدهم قائله : لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم ، هذه التهديدات المتكررة والمتواصلة جعلت المسلمين في المدينة على حذر وتربص مستعدين لقريش ومن دخل في حلفها في كل لحظة حتى أن الرسول ﷺ كان في حراسة مجموعة من أصحابه فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال : من هذا ؟ قال : سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ فقال : وقع في نفسي خوفا على رسول الله ﷺ فجئت احرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام وظلت هذه الحراسة مستمرة حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ ، فقال النبي ﷺ : يا أيها الناس انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل [1] .

كان على المسلمين اتخاذ موقف إيجابي إزاء هذه الأخطار المحدقة بهم والتهديدات المتكررة وحتى لا يطمع احد في غزو المدينة ، فكانت السرايا والغزوات التي وطد بها الرسول ﷺ قوة المسلمين وهيبتهم واثبت بها القوة المتحركة للمسلمين في المدينة التي يجب على قريش وعلى القبائل غيرها حول المدينة أن تعمل حسابها فلا يفكرون في العدوان على المسلمين أو مهاجمتهم في وطنهم الجديد ولعل الرسول ﷺ كان يريد أن تشعر قريش أيضا بقوة المسلمين حتى تقلع عن غيها فلا تتمادى في فتنة المسلمين ولكي تفكر في إيقاف هذه العداوة المعلنة على المسلمين خاصة

---

(١) الرحيق ص ٢١٧ .

وأن المسلمين يستطيعون حينئذ بموقعهم الاستراتيجي بين مكة والشام أن يصيبوها في مقتل في احد مواردها الاقتصادية وهي تجارتها المتجهة إلى الشام أو القادمة منها [1] .

لقد سبقت معركة بدر الكبرى مجموعة من السرايا والغزوات . . وهذه الطلائع كانت تهدف إلى تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام وهي ضربة خطرة لاقتصاد قريش يضاف إلى ذلك عقد المحالفات والموادعات مع القبائل التي تسكن المنطقة لضمان تعاونها أو حيادها على الأقل وأخيرا إظهار قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين [2] .

**ونوجزها فيما يلي :**

١- **سرية سيف البحر** في رمضان من السنة الأولى للهجرة :

وقائدها حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المهاجرين وأما وجهتها فكانت ساحل البحر من ناحية العيص وذلك لاعتراض قافلة لقريش بقيادة أبي جهل إلا أن مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفا لقريش والمسلمين – حجز بين الفريقين .

٢- **سرية المهاجرين** في شوال من السنة الأولى للهجرة :

وقائدها عبيدة ابن الحارث بن المطلب في ستين من المهاجرين وأما وجهتها ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة على عشرة أميال من الجحفة والتقى بالمشركين بقيادة أبي سفيان وترامى الفريقان بالنبل ولم يقع قتال .

٣- **سرية الخرار** في ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة :

وقائدها سعد بن أبي وقاص في عشرين من المهاجرين ووجهتهم الخرار من أرض الحجاز لاعتراض قافلة قريش إلا أن القافلة سبقتهم وأفلتت وعاد المسلمون إلى المدينة .

---

(١) السراج المنير ص ١٠٦٥ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص ٣٤٥ .

٤- **غزوة ودان (أو الأبواء) سنة ٢ من الهجرة :**

خرج الرسول ﷺ بنفسه متجها إلى الأبواء في صفر من السنة الثانية من الهجرة لاعتراض عير قريش ، يقول ابن إسحاق : " وخرج غازيا في صفر على رأس إثني عشر شهرا من مقدمه المدينة حتى بلغ ودان وهي غزوة الأبواء يريد قريشا وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذي وادعه منهم مخشى بن عمرو الضمري وكان سيدهم في زمانه ذلك ، ثم رجع الرسول ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدا فأقام بها " (١) .

وهذه الغزوة وإن لم يحدث فيها قتال، إلا أن الرسول ﷺ ضم حليفا جديدا للمسلمين وهم بنو ضمرة إذ كتب الرسول ﷺ لهم معاهدة ليضمن ولاءهم وعدم انضمامهم لقريش، وأما نص الكتاب : " هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وان لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بل بحر صوفة ، وان النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه " (٢).

٥- **غزوة بواط سنة ٢ من الهجرة :**

قاد الرسول ﷺ المسلمين وكان عددهم مائتين وذلك في شهر ربيع الأول من السنة الثانية لاعتراض عير قريش ، يقول الواقدى : " ثم غزا بواط - وبواط حيال ضبة من ناحية ذي خشب في ربيع الأول على راس ثلاثة عشر شهرا يعترض لعير قريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفا وخمسمائة بعير ثم رجع ولم يلق كيدا " (٣) .

٦- **غزوة سفوان وتسمى بدر الأولى سنة ٢ هجرية :**

حيث أغار احد الأعراب ومعه جماعة من أتباعه في شهر ربيع الأول

---

(١) الاكتفاء ج٢ ص٣ .

(٢) الرحيق ص٢٢٠ .

(٣) المغازي ج١ ض ١٢ .

من السنة الثانية من الهجرة على مراعى المدينة وسرق بعض الماشية ، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين من أصحابه لمطاردتهم حتى بلغ واديا يقال له سفوان من ناحية بدر إلا أنه لم يدركهم .

٧- **غزوة ذات العشيرة** ( سنة ٢ هجرية) :

قاد الرسول ﷺ في جمادى الأولى مائتين من أصحابه لاعتراض عير قريش المتجهة إلى الشام إلا أنها أفلتت ولم يقم قتال إلا أن النبي ﷺ وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم عاد المسلمون سالمين إلى المدينة .

ونلاحظ أن هذه الحملات والسرايا سواء التي خرج فيها رسول الله ﷺ أو لم يخرج فيها لم يحدث فيها قتال أو سفك دماء أو استيلاء على الأموال ومصادرتها وإنما حدث في بعضها موادعة بنى ضمرة وبنى مدلج مما يوطد سلطان المسلمين في هذه الأماكن ويؤدى إلى إحكام الحصار الاقتصادي حول قريش .

ومن ناحية أخرى فقد أظهرت هذه الحملات قوة المسلمين واستعدادهم للرد السريع على من يحاول الإغارة على المدينة كما حدث في إغارة كرز الفهرى على سرح المدينة ، ولاشك أنها أشاعت الرهبة في نفس قريش وحملتها على اخذ الحذر والحيطة من المسلمين [1] .

٨- **سرية نخلة** سنة ٢ هجرية :

وكانت في رجب سنة ٢ من الهجرة وتعد سرية استطلاع إذ اختار الرسول ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي قائدا لمجموعة من المسلمين وقال له : قد استعملتك على هؤلاء النفر فأمض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي ثم امض لما فيه قلت : يا رسول الله أي ناحية؟ فقال : اسلك النجدية، قال - أي عبد الله بن جحش - فانطلق حتى إذا كان ببئر ابن ضميرة نشر الكتاب فقرأه فإذا فيه : سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله

---

(١) السراج المنير ص١٠٧ .

وبركاته ولا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك وامض لأمري فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش ، فلما قرأ عليهم الكتاب قال : لست مستكرها منكم أحدا فمن كان يريد الشهادة فليمض فإني ماض لأمر رسول الله ﷺ ومن أراد الرجعة فمن الآن فقالوا : نحن سامعون ومطيعون لله ولرسوله ولك فسر على بركة الله حيث شئت "[1] .

وصل الركب الإسلامي إلى نخلة فمرت عير لقريش تحمل زبيبا وتجارة وفي القافلة عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة ، وبالرغم من أن كتاب رسول الله ﷺ لعبد الله بن جحش خلا من الأمر بالقتال إلا أنهم تشاوروا في أمرهم وقد تحيروا وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب وهو من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال ، وان تركوا القافلة تمر أفلتت ودخلت مكة ، وأخيرا اتفق رأيهم على حربهم ، وصوب احد المسلمين سهامه إلى عمرو بن الحضرمي فقتله وفر نوفل بن عبد الله ، أما عثمان بن عبد الله وحكم به كيسان فقد وقعا في الأسر فضلا عن استيلاء المسلمين على القافلة وما فيها من تجارة وعادوا بهم إلى المدينة .

يقول الواقدى عن سليمان بن سحيم قال : ما أمرهم رسول الله ﷺ بالقتال في الشهر الحرام ولا غير الشهر الحرام ، إنما أمرهم أن يتحسسوا إخبار قريش ، قالوا وسقط في أيدي القوم وظنوا إن قد هلكوا وأعظم ذلك من قدموا عليه فعنفوهم ولاموهم والمدينة تفور فور المرجل [2] وزاد الموقف سوءا أن النبي ﷺ امتنع عن قبول العير وأوقف التصرف في الأسيرين .

ومن ناحية أخرى فقد وجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام

---

(١) المغازي ج١ ص ١٤ .

(٢) المغازي ج ١ص ١٦ .

المسلمين بأنهم قد احلوا ما حرم الله وذلك باعتدائهم على القافلة وقتل احد أفرادها في الشهر الحرام حتى نزل الوحي حاسما ومؤيدا لمسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (١) .

أن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مبرر لها فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام واضطهاد أهله، فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة فأصبح انتهاكها معرة وشناعة!؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم؟! وقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم شهر حرام أو بلد حرام عن المضي في خطتهم الأصلية وهي سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (٢) .

وهكذا أوضحت الآيات بان جرم المشركين في حق المسلمين اكبر واشد من الحرب في الشهر الحرام ومن ثم سرى عن المسلمين واخذ الرسول العير والأسيرين فافتدتهما منه قريش .

وقد تعرض الشبهة للبعض فيظن أن تعرّض المسلمين لقوافل المشركين يشبه أعمال قطاع الطرق ، فرد هذه الشبهة بان المسلمين كانوا في حالة حرب مع قريش فإضعافها اقتصاديا وبشريا من مقتضيات الحرب ، هذا فضلا عما قامت به قريش من مصادرة أموال المسلمين عند هجرتهم من مكة ومازالت حالة الحرب حتى الوقت الحاضر تسمح بضرب

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٧ .

(٢) فقه السيرة ص٢٣٢ ، آية ٢١٧ سورة البقرة .

الطاقات البشرية والاقتصادية للعدو[1] .

**غزوة بدر الكبرى ( شهر رمضان سنة ٢ هجرية ) :**

وتسمى غزوة بدر أيضا : العظمى ، وبدر القتال ، ويوم الفرقان كان المسلمون يترقبون قوافل قريش كنوع من أنواع الحروب ضد قريش ، وفي غزوة العشيرة في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة ، خرج النبي ﷺ لملقاة قافلة قريش القادمة من مكة والمتجهة إلى الشام ، إلا أن القافلة أفلتت وعاد المسلمون يترقبون عودتها ، وفي نفس الوقت أرسل النبي ﷺ طلحه بن عبيد الله وسعيد بن زيد لاستجلاء أخبار هذه القافلة عند حدود الشام فوصلا إلى الحوراء ومكثا بها حتى مرت بهما عير قريش عائدة إلى مكة فأسرعا وأخبرا النبي ﷺ بقرب عودة القافلة .

وأما القافلة فكانت من أضخم القوافل التي خرجت إلى الشام إذ بلغت قيمة راس المال المستخدم فيها خمسين ألف دينار من الذهب ، وكان معظم المال لآل أبو أحيحة سعيد بن العاص سيد بنى عبد شمس ولآل مخزوم ولامية بن خلف سيد بنى جمح بن هصيص وكذلك للحارث بن نفيل وتلك هي اكبر بطون قريش التي كانت قد سادت مكة بالمال أما رئيس القافلة فكان أبو سفيان بن حرب بن أمية ابن عبد شمس .

بلغت أنباء عودة القافلة النبي ﷺ فندب المسلمين إليها قائلا : هذه عير قريش ، فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربا[2] .

إذن لم يستنفر الرسول ﷺ كل الناس ، بل طلب أن يخرج معه من كان ظهره جاهزا ولم يأذن لمن اراد أن يأتي بظهره من علو المدينة ،

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٣٤٨ .

(٢) الاكتفاء ج٢ ص١٤ .

ولم يعاتب أحدا تخلف عن الخروج .

بلغ عدد المسلمين مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر بعضهم من المهاجرين وأكثرهم من الأنصار وفي نفس الوقت لم تستعد جماعة المسلمين الاستعداد الكافي ولم تأخذ أهبتها إذ ظنوا أنهم خرجوا لاعتراض القافلة فلم يكن معهم إلا فرسان أحدهما للزبير بن العوام والآخر للمقداد بن الأسود ، يضاف إلى ذلك سبعون بعيرا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد وكان الرسول ﷺ والإمام على ومرثد بن أبى مرثد يعتقبون على بعير واحد .

إما قافلة قريش وقائدها أبو سفيان فكانوا يتوجسون سرا وكانوا يتحسسون الأخبار عن طريق العيون وغيرها حتى علموا بخروج المسلمين من المدينة بقيادة رسول الله ﷺ فأسرع أبو سفيان وأرسل ضمضم بن عمرو الغفاري لاستنفار قريش بالخروج للدفاع عن القافلة ، وأسرع ضمضم متوجها إلى مكة وقد جدع انف بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث .

أحدثت هذه الضجة رجه عنيفة في مكة ، وإعصار يموج بالغضب والحقد ، ضد المسلمين وتحمس كل سادات قريش للخروج في هذه الجيش الذي قررت قريش إرساله لحماية العير ، وكلام سادة مكة يدل على أنهم قدروا أهمية إنقاذ العير ، ومما قاله زمعة بن الأسود : " واللات والعزى ما نزل بكم امر أعظم من هذا : أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعترضوا لعيركم فيها حرائبكم - جمع حريبة وهي مال الرجل الذي يعيش منه - فأوعبوا ولا يتخلف منكم احد ، ومن كان لا قوة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمد لا يروعكم بهم إلا وقد دخلوا عليكم " .

والواقع أن القرشيين جميعا تحمسوا للخروج لحماية القافلة فخرج

الكبراء وحملوا الفقراء ومنهم من حمل عشرين رجلا على عشرين بعيرا وتحمل نفقاتهم ومنهم من حمل عشرة أبعر ، ومنهم من تبرع للحملة بخمسمائة دينار ، كما أخرجت قريش ما عندها من كافة أنواع الأسلحة[1].

ولم يتخلف احد من قريش عن الخروج إلا أبا لهب يقول ابن إسحاق : واوعيت - اجتمعت - قريش فلم يتخلف من اشرافها احد إلا أن أبا لهب تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكانت عليه لأبي لهب اربعة آلاف درهم فاستأجره بها على أن يجزئ عنه بعثه[2]

ومن حاول من سادة قريش التخلف ، تعرض للاستهزاء والسخرية فهذا أمية بن خلف عزم على البقاء في مكة لأنه كان شيخا جسيما ثقيلا "فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة فيها نار ومجمر - العود - حتى وضعها بين يديه ثم قال : يا أبا علي استجمر فإنما انت من النساء!! فقال : قبحك الله وقبح ما جئت به ثم تجهز وخرج مع الناس [3] .

بلغ عدد جيش المشركين في بداية السير نحو ألف وثلاثمائة محارب معهم مائة فرس وستمائة درع فضلا عن سبعمائة وخمسين جملا وكل هذا الحشد بقيادة أبى جهل ، وفي الطريق رجع بنو زهرة وقد سبقتهم في عدم الاشتراك في الخروج بنى عدى ، وأصبح الجيش المكي حوالي ألف مقاتل .

اما العير فقد نجح أبو سفيان بالإفلات بها من الوقوع في أيدي المسلمين حين اقترب من ماء بدر يقول ابن إسحاق : " ثم تقدم أبو سفيان العير حذرا حتى ورد الماء فقال لمجدي بن عمرو : هل احسست

---

(١) دراسات في السيرة النبوية ص١٥٣ .
(٢) الاكتفا . ج٢ ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق ج٢ ص١٧ .

أحدا ؟ قال : لا إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شن لهم ثم انطلقا .

فأتى أبو سفيان مناخهما فاخذ ابعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النوى ، وقال : هذه والله علائف يثرب !! فأسرع إلى أصحابه فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها وترك بدرا بيساره [1] .

بلغت أنباء إفلات القافلة وتحركات المشركين النبي ﷺ ومن ثم جهز المسلمين فأعطى لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي وكان أبيض اللون وقسم جماعة المسلمين إلى كتيبتين :

١) كتيبة المهاجرين وحمل لواءها علي بن أبي طالب .

٢) وكتيبة الأنصار وحمل لواءها سعد بن معاذ .

وعين الزبير بن العوام قائدا على الميمنة والمقداد بن الأسود على الميسرة ، أما الساقه فيرأسها قيس بن أبي صعصعة ، وبطبيعة الحال كانت القيادة العامة للجيش الإسلامي لرسول الله ﷺ .

تغيّر الموقف بالنسبة للمسلمين فإن رسول الله ﷺ خرج وأصحابه قاصدين العير أي أن احتمال الحرب كان بعيدا عن أذهان الكثيرين من المسلمين والآن قد بدت احتمالات اللقاء المسلح فقد وجد رسول الله ﷺ أنه ينبغي أن يتفاهم مع أصحابه جميعا على الأساس الجديد وطرح الأمر على الجماعة للتشاور فيه وإعلان رأيها بصراحة موضحا لهم إبعاد المعركة وخطورة تحركات جيش مكة في المنطقة ، إذ أن هذا تدعيما لمكانة قريش العسكرية وامتدادا لسلطانها السياسي وإضعافا لكلمة المسلمين وتوهينا لهم وبعد كل هذا فأنه من المحتمل أن يواصل الجيش المكي مسيرته نحو المدينة حتى يضرب المسلمين في عقر دارهم .

عرض الرسول ﷺ الأمر على المسلمين بصفة عامة فقام سيدنا أبو

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص١٧ .

بكر فأحسن الكلام وكذلك سيدنا عمر بن الخطاب ، أما المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام . . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - أقصى موضع بناحية اليمن - لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه [1]، سعد الرسول ﷺ بكلام المهاجرين الثلاثة ، لكنه كان يريد بالاستشارة معرفة موقف الأنصار وهم أغلبية الجيش وخاصة أن بيعة العقبة لم تكن تلزم الأنصار بالقتال خارج المدينة وهنا أدرك الأنصار رغبة النبي ﷺ في معرفة رأيهم فوقف سعد بن معاذ وقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ، قال : فقد أمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله : فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال : سيروا وابشروا فان الله تبارك وتعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم [2] .

تحرك المسلمون والمشركون صوب بدر دون أن يعلم احد الطرفين بمكان الأخر ، وكانت بدر سوقا للعرب تجتمع فيه لتبادل المتاجر ، ولم تكن من كبار الأسواق كسوق عكاظ ، ولكنها كانت موضع ماء يتلاقى عنده الناس ويبتعد عن المدينة نحو ٢٨ فرسخا أي حوالي ١٥٠ ميلا .

---

(١) الاكتفاء ، ج٢ ص ١٩ .

(٢) الاكتفاء ، ج٢ ص١٩ .

بث المسلمون عيونهم لاستطلاع الأخبار وأرسل النبي ﷺ ثلاثة من المهاجرين وهم على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من المسلمين لاكتشاف المنطقة وجمع الأخبار وعند ماء بدر القوا القبض على غلامين من خدم المشركين يستقيان فاحضروهما إلى النبي ﷺ الذي قام باستجوابهما وقال لهما : اخبراني عن قريش فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى ، قال : كم القوم ؟ قالا كثير . قال :ما عدتهم؟ قالا : ما ندرى . قال : ما ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعة ويوما عشرا ، قال الرسول ﷺ : القوم ما بين التسعمائة والألف ، ثم قال لهما : من فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود و أبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن ود .

فاقبل الرسول ﷺ على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها [1] .

أما معسكر المشركين فقد دب في صفوفهم الشقاق وخاصة بعد أن علموا بنجاة القافلة ورغبة أبي سفيان في عودة جيش المشركين إذ بعث إليهم قائلا : إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا ، إلا أن الحمية والعصبية الجاهلية والغرور دفعت أبا جهل إلى الإصرار على البقاء عند ماء بدر إذ قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا وكان موسما للعرب لهم به سوق كل عام فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب

---

(١) الاكتفا،ج٢ص ٢١ .

وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا [1] .

كما اعترض على لقاء المسلمين بعض سادة الجيش المكي ومنهم حكيم بن حزام الذي لقي عتبة بن ربيعة وقال له : يا أبا خالد ما اعلم أحدا لسير أعجب من سيرنا ، أن عيرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغيا عليهم فقال عتبة : لأمر حُمّ ولا رأي لمن لا يطاع هذا شؤم ابن الحنظلية - يقصد أبا جهل [2] .

وفي رواية أخرى أن عتبة وقف خطيبا في جموع المشركين يحثهم على العودة دون قتال قائلا لهم : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بان تلقوا محمدا وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان أصابوه فذاك الذي أردتم ، وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون [3] .

لكن هذا الصوت العاقل تراجع أمام عنف أبي جهل وإصراره على البقاء في بدر والقتال وفي الليلة التي سبقت المعركة انزل الله مطرا ، فكان وبالا على المشركين إذ تلبدت الأرض من تحت أقدامهم وإعاقتهم من الحركة ، بينما كان المطر بشرة خير للمسلمين إذ ثبتت الأرض من تحت أقدامهم وأنعش به نفوسهم وثبت به قلوبهم وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [4] .

---

(1) المصدر السابق ج٢ ص٢٢ .

(2) المغازي ج١ ص٥٢ .

(3) الاكتفاء ج٢٢٦ .

(4) الأنفال آية ١١ .

لقد تحرك الجيش الإسلامي حتى وصل ماء بدر ، وهناك أشار احد الصحابة وهو الحباب بن المنذر على المكان الأمثل لمعسكر المسلمين وقال للرسول ﷺ : يا رسول الله أرايت هذا المنزل ، امنزل انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الراي والحرب والمكيدة ؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، قال : يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فأنهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فساروا حتى أدنى ماء إلى القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية [1] .

كما أشار سعد بن معاذ على النبي ﷺ ببناء عريش قائلا له : يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن اشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله عز وجل بهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير ثم بنى لرسول الله ﷺ عريش كان فيه [2] .

وقبيل بدء المعركة حرص المشركون على معرفة قوة المسلمين وعددهم وعدتهم فأرسلوا عمير بن وهب الجمحى ليتعرف على قوة المسلمين فاستجال بفرسه حول المعسكر فصوب في الوادي وصعد يقول:

---

(١) الاكتفاء. ج٢ ص٢٣ .

(٢) الاكتفاء. ج٢ ص٤٤ .

عسى أن يكون لهم مدد أو كمين ثم رجع فقال : لا مدد ولا كمين القوم ثلاثمائة إن زادوا قليلا ومعهم سبعون بعيرا ومعهم فرسان ثم قال : يا معشر قريش البلايا - جمع بلية وهي الناقة أو الدابة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت - تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم !! ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعي!! والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منا رجل ، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير في العيش بعد ذلك !! فارتأوا رأيكم !! [1] وبالرغم من هذا التحذير فان قريشا استمرت في عنادها وضلالها .

اصطف الفريقان في صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية من الهجرة الموافق ١٣ مارس سنة ٦٢٤ م وحين رأى الرسول ﷺ جموع المشركين توجه إلى ربه بالدعاء قائلا : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم احنهم - أي أهلكهم - الغداة .

ثم خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان رجلا شرسا سيئ الخلق فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه فاطن - أطار - قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تسخب - تسيل - رجله دما ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر يمينه واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض [2] .

وخرج ثلاثة من قادة المشركين وهم عتبة بن ربيعه وأخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة طالبين المبارزة ، فخرج لهم من صفوف المسلمين

---

(١) المغازي ج١ ص ٦٢ .

(٢) الاكتفا ، ج٢ ص٢٧ .

حمزة ابن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث وتمت المبارزة وانتصر المسلمون وقتل الثلاثة من المشركين مع إصابة عبيدة بن الحارث ببعض الجراح ثم اشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس وسيوف الحق تطيح برؤوس الكفر والرسول ﷺ يحرض أصحابه على الصبر والثبات ومواجهة الأعداء قائلا لهم : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر إلا ادخله الله الجنة وقوله ﷺ : أقدموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال : نعم ، قال : بخ بخ ، قال رسول الله : ما يحملك على قول بخ بخ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : فانك من أهلها ، فاخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركضـا إلى الله بغيـر زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضه النفاد
غيـر التقى والبـر والرشـاد

فمازال يقاتلهم حتى استشهد .

وفي صبيحة يوم السابع عشر من رمضان نظم الرسول ﷺ جيشه في صفوف كصفوف القتال وهو أسلوب جديد في القتال يخالف ما جرت عليه عادة العرب من القتال بأسلوب الكر والفر وهو الأسلوب الذي اتبعه المشركون في بدر ، ولا شك أن نظام الصفوف يقلل من خسائر المسلمين ويعوض عن قلة عددهم أمام المشركين وفيه مزية السيطرة على القوة بكاملها وتأمين العمق للجيش حيث تبقى دائما بيد القائد قوى

احتياطية يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان [1] .

وهكذا انطلق المسلمون يواجهون الموت بصدورهم واثقين من نصر الله وشدوا على المشركين واخذوا في اقتطاف رءوسهم وامدهم الله بالملائكة لينصرهم على عدوهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [3]، وفي قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [4] .

في هذه المعركة الحاسمة فقدت قريش بعض زعمائها وسادتها وعلى رأسهم أبو جهل راس الكفر الذي أحاط به بنو مخزوم يمنعونه من المسلمين حتى قتل منهم ستة عشر رجلا قبل أن يصل إليه المسلمون ، واستطاع نفر من الأنصار وفي مقدمتهم معاذ بن عمرو بن الجموح الذي ضرب رجل أبى جهل فقطعها ثم أعقبه معوذ وعوف ابنا عفراء وهما من الأنصار فضربا أبا جهل وأثخنوه بالجراح وتركوه وبه رمق وجاء ابن مسعود ليجهز عليه يقول ابن إسحاق : فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين امر رسول الله ﷺ بالتماسه في القتلى . قال عبد الله : وقد كان خبث - خبث قبض عليه ولزمه - بي مره بمكة فأذاني ولكزني فوجدته بأخر رمق فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت له :اخزاك الله يا عدو الله !!

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص ٣٦١ .

(٢) آل عمران آية ١٢٣ .

(٣) الأنفال آية ٩ .

(٤) الأنفال ١٢ .

قال : وبماذا أخزاني ، اخبرني عن الدائرة اليوم ؟ قلت : لله ورسوله ثم احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله هذا راس عدو الله أبي جهل فقال ا لله الذي لا اله غيره؟ وكانت يمين رسول الله ﷺ قلت: نعم والله الذي لا اله غيره ، ثم القيت راسه بين يديه فحمد الله" [1].

وممن قتل أيضا في معركة بدر من رؤساء الشرك امية بن خلف الذي أسره عبد الرحمن بن عوف خلال المعركة حتى رآه بلال - وكان أمية يشتد في عذابه لبلال في مكة - فصاح قائلا : راس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا وانضم إليه جماعة من الأنصار ولم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يخلصه من بين أيديهم حتى سقط أمية مضرجا في دمائه ، كذلك قتل العاص بن هشام بن المغيرة وكان من زعماء الشرك، قتله ابن أخته عمر بن الخطاب وغير هؤلاء فيهم زمعة بن الأسود ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام .

وروى ابن سعد عن عطية بن قيس قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبريل على فرس أنثى احمر عليه درعه ومعه رمحه فقال : يا محمد إن الله بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى ، هل رضيت؟ قال : نعم رضيت فانصرف .

لقد انتهت المعركة بفوز كبير وساحق للمسلمين واندحار وهزيمة مروعة للمشركين إذ قتل من المشركين سبعون واسر سبعون ، أما من استشهد من المسلمين فكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وبعد انتهاء المعركة أمر رسول الله ﷺ بدفن القتلى من المشركين وقال : بئس العشيرة كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس وخذلتموني ونصرني الناس وأخرجتموني وأواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس يا

---

(١) الاكتفا. ج٢ ص٣٧ .

أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربى حقا ، فقال أصحاب النبي ﷺ : يا رسول الله أتنادي قوما قد جيفوا فقال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني [1] .

لقد صدم أهل مكة بأنباء هزيمة جيشها ومقتل كثير من سادتها وعمّها الحزن لهذا الحدث الجلل والمصاب الأليم فقطعت النساء شعورهن وعقرت خيول كثيرة ورواحل وناحت قريش على قتلاها ولكنهم توقفوا بعد قليل حتى لا يبلغ المسلمين فيشمتوا بهم وبلغ من شدة حزنهم أن مات أبو لهب كمدا بعد سبعة أيام ورصدت قريش أموال القافلة لحرب المسلمين ، بينما استقبلت المدينة أخبار النصر بالبهجة والسرور واهتزت أرجاء المدينة تهليلا وتكبيرا وخرج من كان فيها لاستقبال الرسول الكريم ﷺ وجيشه المنتصر على الطريق .

وفي طريق العودة إلى المدينة قسّم رسول الله ﷺ الغنائم على المسلمين بمقتضى قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [2] .

وأما الأسرى فقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه فأشار عليه سيدنا أبو بكر بأخذ الفدية وحجته في ذلك أن المال قوة للمسلمين وطمعا في أن يهديهم الله للإسلام ، وأما رأي عمر فكان قتلهم لأنهم أئمة الكفر وحتى يكونوا عبرة لغيرهم ومال الرسول ﷺ إلى رأي أبي بكر واخذ به فلما كان الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبو بكر وهما يبكيان فقلت يا رسول الله اخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فان وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ : للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء إذ نزل قول الله تعالى معاتبا نبيه : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن

(١) الاكتفا. ج٢ ص٣٩ .

(٢) سورة الأنفال آية ١ .

يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [1] .

وقد بيّن الله في سورة محمد أن الأسر إنما يكون بعد الإثخان وإرهاب أعداء الله فقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ [3] . فكان سبق المغفرة في علم الله وان الغنائم وفداء الأسرى ستحلّ لهذه الأمة هو المانع من إلحاق العذاب بالمسلمين عندما اخذوا الفداء كما أنه لم يكن سبق لهم حكم فخالفوه فلذلك قال الله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [2] .

وقد افتدت قريش أسراها بأربعة آلاف درهم لكل أسير ومن لم يستطع ويعرف الكتابة قام بتعليم عشرة صبية من أبناء المدينة وقد منّ رسول الله ﷺ على جماعة من أسرى بدر وأطلقهم دون فداء فمن هؤلاء : " المطلب بن حنطب وصيفي بن أبي رفاعة وأبو عزة الجمحي وغيرهم" .

لقد كانت معركة بدر معركة فاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين فهي شاهد صدق على نصرة الله للحق عندما يتمسك به أتباعه ويخلصون له ولو كانوا قلة وهزيمته للباطل وجبروته وطغيانه ولو كانوا كثرة ففيها أذل الله الكفر وكسر شوكة الطغاة وحطم كبرياء قريش المتغطرسة وأدال من العتاة والجبارين فيها وفيها أعلى الله شأن المؤمنين وحماهم واظهر دعوتهم ووطد هيبتهم ولفت نظر العرب في الجزيرة العربية كلها إلى التفكير في الإسلام والدخول فيه .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) السراج المنير ص ١٢٥ ، الأنفال ٦٩ .

**محاولة القرشيين الثأر من الرسول :**

لم يهدأ لقريش بال بعد هزيمتها في بدر ومقتل العديد من أشرافها وسادتها وبدا سادتها في البحث عن وسيلة لتسترد به شرفها الذي ضاع في بدر ، وتثأر لقتلاها ، ولم تكن هذه الوسيلة سوى اتفاق تم بين عمير بن وهب الجمحي وبين صفوان بن أمية احد سادة قريش لاغتيال الرسول يقول بن إسحاق : وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة ويلقون منه عنتا ، وكان ابنه وهب بن عميرة في أساري بدر فجلس عمير مع صفوان بن أميه في الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال له صفوان : فوالله ما في العيش خير بعدهم فقال له عمير : صدقت والله أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى اقتله فإني لي فيهم علة ابني اسير في أيديهم فاغتنمها صفوان فقال : علي دينك أنا اقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، قال عمير : فاكتم عنى شأني وشأنك قال : أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر إلى عمير ابن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا بالسيف فقال : هذا الكلب عدو الله بن وهب ما جاء إلا لشر .

وهذا الذي حرش بيننا وحزرنا - قدر عددنا - للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه ، قال : فادخله على ، فأقبل حتى اخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها ، وقال لرجال من الأنصار كانوا معه :

ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل فلما رآه رسول الله ﷺ كذلك قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير فدنا ثم قال : انعموا صباحا وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة ، قال : أما والله إن كنت بها يا محمد لحديث عهد .، قال : فما جاء بك يا عمير؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه ، قال : فما بال السيف في عنقك؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئا !! قال : اصدقني ما الذي جئت له؟ قال : ما جئت إلا لذلك ، قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ : فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا .

ثم قال : يا رسول الله إني كنت جاهدا على إطفاء نور الله شديدا الأذى لمن كان على دين الله ، وانا احب أن تأذن لي فأقدم مكة فادعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم ، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة ، وكان صفوان حين خرج يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ،

فحلف أن لا يكلمه أبدا ولا ينفعه بنفع أبدا ، فلما قدم عمير مكة أقام بها بدعوة إلى الإسلام ويؤذى من خالفه اذى شديدا فأسلم على يديه ناس كثير [1] .

**النشاط العسكري بين بدر واحد :**

لم يكن النصر المؤزر والفوز الكبير الذي أحرزه المسلمون في بدر والذي ذاع خبره وانتشر في أنحاء شبه الجزيرة مانعا من تحركات بعض القبائل والاستعداد لمهاجمة المدينة ، وهذا ما فعله بنو سليم من قبائل غطفان إذ اخذوا في الاستعداد وحشد المحاربين لمهاجمة المدينة ، وقد بلغت هذه الأنباء النبي ﷺ في المدينة وذلك عن طريق العيون والجواسيس، ومن ثم كانت خير وسيلة هي الهجوم إذ جهز النبي ﷺ مائتي مقاتل وانطلق بهم متوجها إلى مضارب بنى سليم الذين فروا وتفرقوا في كل مكان خوفا من المسلمين يقول بن إسحاق فلما قدم - أي النبي ﷺ من بدر - المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر- هو ماء من مياه بنى سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام - فأقام عليها ثلاث ليال ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا"[2] .

وقد تكرر خروج النبي ﷺ إذ توجه إلى نجد يريد غطفان وهي غزوة ذي أمر فأقام بنجد ثم رجع ولم يلق كيدا ، وهي تحركات الهدف منها إبلاغ القبائل بيقظة المسلمين ومراقبتهم المستمرة لتحركات الأعداء مع استعداد المسلمين التام للقتال والحرب أي وقت .

اما قريش فلم يهدأ لها بال ، وأخذت تتحين الفرص للنيل من المسلمين طلبا لثأرها والانتقام لقتلاها في بدر ، حتى أن أبا سفيان نذر

---

(١) الاكتفاء، ج٢ص٦٢ .

(٢) الاكتفاء، ج٢ ص ٧٧ .

إلا يمس رأسه ماء من جنابة ، واخذ يعد لهذا الأمر فخرج في مائتي راكب قاصدا المدينة لعله يشفي غليله يقول ابن إسحاق: فخرج - أي أبي سفيان - في مائتي راكب من قريش لتبر يمينه فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة على بريد أو نحوه من المدينة ، ثم خرج من الليل حتى بنى النضير تحت الليل فأتى حيى بن اخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح بابه وخافه فأنصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بنى النضير في زمانه فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن - أي اخبره بأسرارهم - له من خبر الناس ، ثم خرج في عقب ليلة حتى أتى أصحابه فبعث رجالا منهم فأتوا ناحية العريض فحرقوا بها أصوار نخل — جمع صور وهو النخل الصغار أو المجتمع - وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له في حرب لهما ، ثم انصرفوا راجعين .

ونذر بهم الناس - أي شعروا بهم وحذروهم - فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ثم انصرف وقد فاته أبو سفيان بن حرب وأصحابه ، وطرحوا من أزوادهم تتحففون منها للنجاء ، وكان أكثر ما طرحوه السويق ، فهجم المسلمون على سويق كثير فسميت غزوة السويق" [1] .

وهكذا لم تستطع قوات قريش مواجهة المسلمين ، وانطلقوا مسرعين عائدين إلى مكة ، وقد تخلصوا من كثير من طعامهم نجاة بأنفسهم ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى ما أصاب نفوس القرشيين من الجبن والهلع ، وقد تمثل في نفوسهم صور قتلاهم وأسراهم في بدر .

**غزوة احد ( شوال سنة ٣ هجرية) :**

في شوال من العام الثالث للهجرة ، كان اللقاء الكبير بين المسلمين

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٨ .

والمشركين عند جبل احد ، وقريش منذ هزيمتها النكراء في بدر وقتل العديد من سادتها وأشرافها فضلا عن سبعين من الأسرى ، وهي تتحرق شوقا للقاء المسلمين لعلها تستطيع أن تمحو ما نزل بها من عار في هزيمة بدر ، ولعلها تستعيد مكانتها بين العرب في شبه الجزيرة فضلا عن رغبتها الأكيدة في تأمين طريق تجارتها إلى الشام ، هذه الأسباب مجتمعة دفعت بعض زعماء قريش ومنهم الأسود بن المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل التوجه إلى أبي سفيان طالبين منه رصد أموال قافلة قريش التي نجت في غزوة بدر وكانت ألف بعير والمال خمسون ألف دينار وذلك للإنفاق على حملة كبيرة تتوجه إلى المدينة لاستئصال المسلمين ، وقد رحب أبو سفيان بذلك وبدأت قريش في التجهيز ودعوة حلفائها للانضمام لهذا الجيش .

وقد أرسلت قريش بعض سفرائها لاستنفار القبائل وفيهم عمرو بن العاص وهبيرة بن أبي وهب وغيرهما ، ونجح السفراء في حشد أعداد كبيرة واستمر الإعداد للمعركة والتجهيز لها مدة عام ، وقد بلغ عدد جيشها ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش ورغبة في تأجيج نيران الغضب والثأر والقتال حتى الموت ، صحبت قريش في حملتها النساء إذ قال لهم صفوان بن أمية : اخرجوا بالظعن فإنا أول من فعل فأنه أقمن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر فان العهد حديث ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه[1] .

وقد تلاشت أصوات المعارضة لهذا الاقتراح أمام إجماع الأغلبية على ذلك ، ومن ثم خرج أبو سفيان بن حرب بامرأتين : هند بنت عتبة وأميمة بنت سعد بن وهب ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفي والبغوم بنت المعذل بن كنانه وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته

(١) المغازي ج١ ص ٢٠٢ .

سلافة بنت سعد وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته ام جهم بنت الحارث وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه وغيرهن .

هكذا خرجت قريش وحلفائها ومعهن النساء وقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف سوى من انضم إليهم ، كما خرجوا بعدة وسلاح كثير وقادوا مائتي فرس كما كان فيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير ، وأسندت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب أما سلاح الفرسان فقد تولى قيادتهم كل من خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، وأما اللواء فقد حمله طلحة بن أبي طلحة من بنى عبد الدار ، وقد قام العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ والمقيم بمكة بإخبار النبي ﷺ برسالة سرية أرسلها إليه تبلغه بأنباء هذا الاستعداد وتحركهم صوب المدينة .

وصلت الرسالة إلى سيدنا رسول الله ﷺ ثم توالت الأنباء بعد ذلك بتحركات المشركين صوب المدينة ، وهنا أخذ النبي ﷺ أهبته وذلك باستنفار المسلمين وحراسة مداخل المدينة حتى لا يفاجئهم العدو وفي نفس الوقت قامت جماعة من الأنصار منهم سعد بن معاد وأسيد ابن حضير وغيرهم بحراسة النبي ﷺ خوفا من خيانة العدو وغدره ثم جمع النبي ﷺ المسلمين من مهاجرين وأنصار في المسجد صباح الجمعة وصعد النبي وقال :أيها الناس إني رأيت في منامي رؤيا ، رأيت كأني في درع حصينة ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقصم من عند ظبته - أي طرفه - ورأيت بقرا تذبح وراية كأني مردف كبشا فقال الناس : يا رسول الله فما أدلتها؟ قال : أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها وأما انفصام سيفي من عند ظبته فمصيبة في نفسي وأما البقر المذبح فقتلى في أصحابي وأما مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله وفي رواية أخرى وأما انقسام سيفي فقتل رجل من أهل بيتي [1] .

---

(1) المغازي ج٢ ص٢٠٩ .

كان رأي رسول اله ﷺ هو البقاء في المدينة ومحاربة مشركى قريش من خلال الطرق والأزقة ومن فوق أسطح المنازل ، وقد وافق عبد الله ابن أبى بن سلول - راس المنافقين - باعتباره احد زعماء الخزرج على هذا الراي وعضده حتى يتسنى له الابتعاد عن مواجهة مشركى قريش في ميدان القتال .

طرح الرسول ﷺ المشكلة على بساط البحث وشاورهم في الأمر ، وقام فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو : اخرج بنا إلى عدونا وقال رجال من أهل السنّ منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمان بن مالك بن ثعلبة في غيرهم من الأوس والخزرج : إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جبنا عن لقاءهم فيكون هذا جرأة منهم علينا ، وقد كنت يوم بدر في ثلثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به ، فقد ساقه إلينا في ساحتنا ورسول الله ﷺ لما يرى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتسامون - يتبارون - كأنهم الفحول ، وقال مالك بن سنان : يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسنين : إما يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة ، والله يا رسول الله ما أبالي أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير ... وقام خيثمة أبو سعد بن خيثمة فقال : يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصروننا في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا فيجرئهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات علينا، ويصيبوا أطرافنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا

بحروثنا ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى فهي الشهادة [1] .

وقام آخرون يحبذون الخروج ومن ثم استجاب النبي ﷺ لهذه الآراء وقرر الخروج لملاقاة المشركين وصلى رسول الله ﷺ الجمعة وخطبهم وحثهم على الجهاد والصبر في ملاقاة العدو .

وقد أدرك أصحاب رأي الخروج أنهم ربما استكرهوا الرسول على الخروج ومن ثم ندموا على ذلك واخبروا الرسول باستجابتهم لرأيه ﷺ وندمهم على أقوالهم وقالوا يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك فقال النبي ﷺ : قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ولا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ثم قال لهم : انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم [2] .

قسم النبي ﷺ جيشه المكون من الف مقاتل منهم مائة دارع وخمسون فارسا أو قيل لم يكن هناك فرسان - إلى ثلاثة كتائب :

١- كتيبة المهاجرين وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري .
٢- وكتيبة الأوس من الأنصار وأعطى لواءها أسيد بن حضير .
٣- وكتيبة الخزرج من الأنصار وأعطى لواءها الحباب بن المنذر .

وفي الطريق استعرض الرسول ﷺ صغار السن الذين لا طاقة لهم بقتال ممن هم أبناء أربع عشرة سنة أو اقل فردهم سوى رافع بن خديج أجازه لما قيل له أنه رام وسمرة بن جندب لما علم أنه أقوى من رافع وبلغ عدد من ردهم من صغار السن أربعة عشر صبيا وقد صح أن ابن عمر منهم وموقف هؤلاء الصبيان وهم مقبلون على الموت بشجاعة ورغبة تبعث على الدهشة

---

(١) المغازي ج ١ ص ٢١١ .
(٢) المغازي ج١ ص٢١٤ .

حقا وقد تنافسوا في ذلك متطلعين إلى نيل الشهادة في سبيل الله [1] .

تحرك جيش المسلمين قبيل الفجر ، حتى إذا كان بالشوط - وهو مكان قريب من معسكر العدو- صلى الرسول بهم الفجر وهنا أعلن عبد الله بن أبي بن سلول انسحابه بثلاثمائة من أتباعه قائلا : ما ندرى علام نقتل انفسنا؟ محتجا على المسلمين بتركهم رأيه القتال داخل المدينة ، والواقع أنه يريد بذلك في هذا الموقف الحرج إضعاف معنويات المسلمين وشل حركتهم وإشاعة الاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم وحتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ وفي نفس الوقت يتشجع العدو وتعلو همته لرؤية هذا المنظر فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين ومن ثم يتحقق أمل عبد الله بن أبى في زعامة المدينة [2] .

تحرك جيش المسلمين ولم يلق بالا إلى هذه الفئة الناكصة من المنافقين حتى نزل الشعب من أحد وجعل النبي ﷺ ظهره وعسكره إلى أحد وقال للمسلمين لا يقاتلن احد حتى نأمره بالقتال ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وهو معلم يومئذ بثياب بيض والرماة خمسون رجلا فقال : أنضح - أي ادفع - الخيل عنا لا يأتوننا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك [3] وهذه الأوامر المشدّدة من قبل الرسول ﷺ للرماة على الجبل ، تعنى خطورة هذا الموقع وأثره في نصر المسلمين أو هزيمتهم لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن يتسلل منه المشركون إلى خلف صفوف المسلمين ويقوموا بحركة الالتفاف وعملية التطويق .

أما المشركون فقد نظموا صفوفهم في مواجهة المسلمين وأبو سفيان القائد العام في قلب الجيش وعلى ميمنته خالد بن الوليد وعلى

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص ٣٨٣ .

(٢) الرحيق المحتوم ص٢٨٢ .

(٣) الاكتفاء ج٢ ص ٩٠ .

الميسرة عكرمة بن أبي جهل وعلى المشاة صفوان بن أمية وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

وفي محاولة ماكرة من أبي سفيان في تفتيت جبهة المسلمين، أرسل إلى الأنصار داعيا لهم إلى التخلي عن الرسول قائلا لهم : "خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم فلا حاجة لنا إلى قتالكم " ، إلا أن هذه المحاولة فشلت واسمعه الأنصار ما يكرهه .

وشبيه بهذه المحاولة ما قام به أبو عامر واسمه عبد عمرو بن صيفي وكان راس الأوس في الجاهلية ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة عادى المسلمين وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله ووعدهم بان قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه ، فلما التقى الجمعان ، كان أول من لقي المسلمين أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى قومه قائلا : يا معشر الأوس انا أبو عامر ، قالوا : فلا انعم الله بك عينا يا فاسق وبذلك سماه رسول الله ﷺ وكان يسمى في الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومي بعدى شرا ثم قاتلهم قتالا شديدا ورضخهم بالحجارة [1] .

أخذت نساء المشركين ينشدن الأشعار ويضربن بالدفوف تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان يحرضن المشركين على القتال ويثرن حفائظ الأبطال ويحركن مشاعر أهل الطعان ويقلن :

نحن بنات طارق    نمشى على النمارق

إن تقبلوا نعانق    أو تدبروا ونفارق

فراق غير وامق ( المحب )

وبدأ القتال بمبارزة بين على بن أبي طالب وطلحة بن عثمان حامل لواء المشركين وقد قتله على ثم اشبك الفريقان في قتال مرير وقتل من

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ٩١ .

حملة لواء المشركين عشرة من بنى عبد الدار كلما حمل احدهم لواء كان مصيره القتل على أيدي المسلمين ، وممن أبلى بلاء حسنا في بداية المعركة أبو دجانة الذي أعطاه النبي ﷺ سيفا يقول ابن إسحاق : " وقاتل أبو دجانة سماك بن خرشه اخو بنى ساعدة حتى أمعن في الناس ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ وقام إليه رجال فامسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانه فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : إن تضرب به العدو حتى ينحني . قال : أنا أخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه ، وكان أبو دجانه رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكان إذا اعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فلما اخذ السيف من يد رسول الله ﷺ اخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه ، ثم جعل يتبخر بين الصفين فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبخر : أنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن " [1] .

أخذ أبو دجانة يضرب في صفوف الأعداء ، يقتل هنا وهناك ومعه حمزة ابن عبد المطلب الذي أثخن قتلا وذبحا في المشركين وبخاصة حاملي اللواء من المشركين ، إلا أنه قتل غدرا وغيلة على يد وحشي يقول ابن إسحاق : "وكان جبير بن مطعم قد وعد غلامه وحشيا بالعتق إذا قتل حمزة بعمه طعيمة بن عدى المقتول يوم بدر ، قال وحشي : فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيا اقذف بالحربة قذف الحبشة قل ما اخطيء بها شينا ، فلما التقى الناس خرجت انظر حمزة حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق - ما في لونه بياض إلى سواد - يهد الناس بسيفه هذا ما يقوم له شيء فوالله إني لأتهيأ له اريده واستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى الغبشاني فلما رآه حمزة ضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه ، يقال : وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص ٩٢ .

دفعتها عليه فوقعت في ثنيته حتى خرجت من بين رجليه ، وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتي ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم تكن لي بغيره حاجة إنما قتلته لأعتق [1] .

وهكذا فقدت ساحة القتال بطلا مغوارا وفارسا شجاعا من أبطال المسلمين وقد حزن الرسول ﷺ حزنا شديدا ، ومما زاد في حزنه انه ﷺ حين تفقد الشهداء وجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع انفه وأذناه وقال رسول الله ﷺ حين رأى ما به : لئن اظهرني الله على قريش في موطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم ... فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه مما نزل بعمه حمزة قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها احد من العرب ونزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [2]، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثُلة .

لقد دارت معركة حامية ، أظهر فيها المسلمون شدة وبأسا، وحققوا نصرا مؤزرا ، واخذ حملة لواء المشركين يتساقطون حتى بلغ عدد من قتل من حملة اللواء عشرة وسقط لواء قريش على الأرض لا يجرؤ احد على رفعه ، وولت النساء هاربات يقول الواقدى" ما ظفر الله نبيه في موطن قط ما ظفره وأصحابه يوم احد حتى عصوا الرسول وتنازعوا الأمر، لقد قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون ونساؤهم يدعون بالويل بعد ضرب الدفاف وقد روى كثير من الصحابة ممن شهد أحدا قال كل واحد منهم : والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات ما دون أخذهن شيء لمن أراد ذلك [2] .

وهنا يحدث الخطأ الفادح الذي وقع فيه غالبة الرماة على الجبل ،

---

(١) المصدر السابق٢ص٩٣ .

(٢) المغازي ج١ ص ٢٢٩ .

هؤلاء الذين أمرهم الرسول ﷺ بالثبات في أماكنهم في حالة النصر والهزيمة ، إلا انهم حين رأوا هزيمة المشركين وإقبال المسلمين على جمع الغنائم ، رغبوا في الاشتراك في الحصول على بعض المغانم ، وضاع صوت عبد الله بن جبير رئيس الرماة حين ذكرهم بأوامر سيدنا رسول الله ﷺ ، لكن نداء ابن جبير لم يجد أذنا صاغية وبقى في تسعة من أصحابه، وانصرف الأربعون للحصول على نصيبهم من المغانم .

وكانت فرصة ذهبية اهتبلها خالد بن الوليد قائد فرسان المشركين حيث انقض على بقية الرماة على الجبل وقتلهم ثم انحدر إلى مؤخرة الجيش الإسلامي يقتل ويذبح هو وفرسانه ، والمسلمون في ذهول مما وقع بهم ، واضطربت صفوفهم ، ومما زاد في هول الصدمة أن الشيطان صرخ في المسلمين : إلا أن محمدا قد قتل ، يقول ابن إسحاق : " إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلوا ظهورنا للخيل فأتتنا من خلفنا وصرخ صارخ : إلا أن محمدا قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم ، وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ويقال أن الصارخ هو الشيطان "[1] .

لقد وقع الارتباك الشديد في صفوف المسلمين من هول الصدمة ، وتفرقوا أوزاعا بعضهم هرب والآخرون تركوا ساحة القتال راجعين إلى المدينة وانطلق بعضهم إلى قمة الجبل نجاة بأنفسهم من القتل واشتبك بعض المسلمين مع بعض وهم لا يدرون ما يفعلون .

وهنا برزت بطولات إسلامية نادرة ، ترسم صورة للشجاعة والتضحية والفداء ، فهذا الصحابي الجليل انس بن النصر حين رأى ما حل بصفوف المسلمين قال : اللهم إني ابرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى المشركين - وأعتذر إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المسلمين ثم مشى بسيفه فلقيه سعد ابن معاذ فقال : أي سعد والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحد !!

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٩٧ .

واها لريح الجنة فقال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنته برمح ورميه بسهم وقد مثلوا به حتى عرفته أخته ببنانه[1] .

ونادى ثابت بن الدحداح قومه فقال : يا معشر الأنصار ، إن كان محمد قد قتل فان الله حتى لا يموت ، قاتلوا على دينكم فان الله مظفركم وناصركم فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبه فرسان خالد فمازال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح وقتل أصحابه .

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد ثبت في مكانه واخذ يصيح بأعلى صوته : هلم إلى أنا رسول الله ، وكانت فرصة اهتبلها المشركون حين سمعوا الصوت ومصدره ، فاتجهوا بكل قوتهم إليه عسى أن يصيبوا رسول الله ﷺ وقد تحقق لهم بعض ما يريدون فقد رماه عتبه بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشفه وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى وكلمت شفته السفلى وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فسجه في جبهته وجاء ابن قمئه فضرب سيدنا رسول الله ﷺ ضربه عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر ، ثم ضربه ضربه أخرى على وجهه الشريف حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وفي الصحيح انه ﷺ كسرت رباعيته وشج في رأسه فجعل يمسح الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فانزل الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2] يقول الواقدي : "ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا ، لا والذي بعثه بالحق إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرا واحدا ، أنه لفي وجه العدو وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه مرة ، فربما رايته قائما يرمى عن قوسه أو يرمى بالحجر حتى

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٠٠ .

(٢) صحيح البخاري ج٢ص ٥٨٢ ، آل عمران ١٢٨ .

تحاجزوا وثبت رسول الله ﷺ كما هو في عصابة صبروا معه أربعة عشر رجلا سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار"[1] .

وضرب المسلمون أروع الأمثلة في الفداء والتضحية فهذا أبو طلحة يسوّر نفسه بين يدي رسول الله صلى لله عليه وسلم ويرفع صدره ليقيه من سهام العدو ، وهذا أبو دجانه يقف بوجهه أمام رسول الله ﷺ ويجعل ظهره بمثابة ترس يتلقى فيه السهام حماية للرسول، وقاتل عبد الرحمن بن عوف قتالا شديدا حتى أصيب فوه فتهتم وجرح عشرون جراحة أو أكثر .

كما شاركت نساء الأنصار في القتال فضلا عن مداواة الجرحى ، ومن هؤلاء نسيبة بنت كعب أم عمارة التي قاتلت وأبلت بلاء حسنا وجرحت اثني عشر جرحا بين طعنة رمح وضربة سيف كما حملت السيدة عائشة وأم سليم قرب الماء لسقى جرحى المسلمين .

وقف أبو سفيان على مرتفع بعد أن دفن المشركون قتلاهم وقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : - أي النبي _ لا تجيبوه ، فقال أفي القوم ابن أبى قحافة ؟ قال : لا تجيبوه ، قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ قال : لا تجيبوه فلما لم يجبه احد قال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك، فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له : هلم إلى يا عمر ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : أتيه فانظر ما شأنه ، فجاءه فقال له أبو سفيان : انشدك الله يا عمر اقتلنا محمدا؟ قال عمر : اللهم وانه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت أصدق عندي من ابن قميئة وابر لقول ابن قميئة لهم : انى قد قتلت محمدا . ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل : نعم هو بيننا وبينكم موعد[2] .

---

(١) المغازي ج١ ص ٢٤١ .

( ١) الاكتفا، ج٢ ص١٠٦ .

ثم اخذ المسلمون في دفن شهدائهم وصلى عليهم النبي ﷺ وكان عددهم سبعين شهيدا ، وكانت أغلبية الشهداء من الأنصار فقد قتل منهم خمسة وستون رجلا ، خمس وأربعون من الخزرج وعشرون من الأوس وقتل رجل من اليهود ، وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

أما قتلى المشركين فكانوا اثنين وعشرين قتيلا وفي رواية أخرى أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون ، وفي الطريق مر المسلمون بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وابوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى انظر إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل تريد صغيرة [1] .

هكذا انتهت معركة أحد وكانت معركة بلاء وتمحيص للمسلمين ، وكشفت غطاء النفاق الذي استتر به عبد الله بن أبى زعيم المنافقين حين انسحب من أرض المعركة بثلث الجيش وفي نفس الوقت فقد تركت معركة أحد آثارا غائرة في نفس النبي ﷺ ظلت تلازمه إلى أخر عهده بالدنيا في هذا الجبل الداكن الجاثم حول يثرب أودع الرسول الكريم ﷺ اعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه ، فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة وعادت في سبيل الله الأقربين والأبعدين ، واغتربت بعقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وانفقت وقاتلت وصبرت وصابرت ، هذه الصفوة اختط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأشم ، فتوسدت ثراه راضية مرضيه ، وكان رسول الله ﷺ يتذكر سير أولئك الأبطال ومصائرهم فيقول : احد جبل يحبنا ونحبه ، فلما حانت وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطولة إن يزور قتلى أحد وان يدعو الله لهم وان يعظ الناس بهم .

عن عقبة بن عامر قال : صلى رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثمان

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١١٢ .

سنين كالمودع للأحياء والأموات ثم طلع المنبر فقال : انى بين أيديكم فرط وانا عليكم شهيد وان موعدكم الحوض وانى لأنظر إليه من مقامي هذا وانى لست أخشى عليكم ان تشركوا ولكني أخشى عليكم الدنيا ان تنافسوها [1] .

لقد نزلت آيات كثيرة في غزوة أحد إذ كان يوم بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الأيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر في قلبه وأكرم الله فيه من أراد كرامته منه بشهادة من أهل ولايته ، فمن الآيات الكثيرة التي سجلت جوانب مختلفة من الغزوة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [4] وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [4] وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن غزوة أحد .

### غزوة حمراء الأسد :

عاد المسلمون من أحد في يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، ولم يمكثوا بها طويلا ، إذ في صباح اليوم التالي أي في يوم الأحد الثامن من شوال أمر الرسول ﷺ أصحابه بالخروج لتعقب المشركين والا يخرج معهم إلا من شهد المعركة بالأمس ، ولاشك ان

---

( ١) فقه السيرة ص٢٩٠ .

( ٢) آل عمران آية ١٣٩ .

( ٣) آل عمران ١٤٠ .

( ٤) آل عمران ١٤٢ .

هذا العمل من رسول الله ﷺ كانت له أهدافه ومراميه فهو نوع من استعادة ثقة المسلمين بأنفسهم بعد ما أصابهم من قتل وجرح في أحد ، وفي نفس الوقت إرهاب لمشركى قريش حتى لا يفكروا في العودة للإغارة على المدينة ، وقد فكروا في ذلك فعلا ، وأخيرا فان هذا الخروج يعنى أن المسلمين مازالوا أقوياء ، وبذلك تخرس السنة المنافين واليهود، الذين فرحوا بهزيمة المسلمين ، وردعا للأعراب المحيطين بالمدينة الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر .

يقول ابن إسحاق : " فلما كان الغد منه يوم الأحد اذن مؤذن رسول الله ﷺ بطلب العدو وأذن مؤذنه : أن لا يخرجن معنا احد إلا احد حضر يومنا بالأمس ... وإنما خرج رسول الله ﷺ للعدو ليبلغهم انه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة وان الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم وانتهى رسول الله ﷺ في خروجه إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء حتى رجع إلى المدينة " [1] .

وقد فكر جيش المشركين بعد وصولهم إلى الروحاء وهي على بعد ست وثلاثين ميلا من المدينة في العودة إلى المدينة واستئصال شأفة المسلمين إذ قال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا أصبتم شوكتهم وحدهم ثم تركتموهم وقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا حتى نستأصل شافتهم .

وقد برز بين صفوف المشركين صوت صفوان بن أمية الذي حذرهم من مغبة هذا العمل قائلا لهم : يا قوم لا تفعلوا فإني أخاف ان يجمع عليكم من تخلف من الخروج فارجعوا والدولة لكم ، فاني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم ، وجاءهم معبد بن أبى معبد وكان مشركا إلا أن هواه مع المسلمين فخذلهم وفتّ في عضدهم إذ قال لأبي

---

(١) الاكتفا. ج٢ ص١١٣ .

سفيان : محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط فقال : ويحك ما تقول ؟ قال والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل قال: فوالله لقد اجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فاني أنهاك عن ذلك فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه " [1] وهكذا نصر الله المسلمين وألقى الرعب والخوف في قلوب المشركين بواسطة احد المشركين والله ينصر من يشاء بما يشاء .

**غدر الأعراب بالمسلمين :**

لم يكد المسلمون في المدينة يفيقون من مصيبتهم في أحد ، حتى وجدنا الأعراب حول المدينة يدبرون المؤامرات والمكائد للنيل من المسلمين وقد تمثل ذلك فيما فعله رهط من عضل والقارة وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة الذين اضمروا غشا وخداعا وقدموا إلى المدينة يعلنون إسلامهم ويرغبون في صحبة وفد من المسلمين ليعلموا قومهم تعاليم الإسلام وأحكامه فأرسل الرسول الكريم ﷺ معهم ستة من أصحابه هم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى وهو أميرهم وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح وخبيب بن عدى وزيد بن الدثنه وعبد الله بن طارق .

وفي الطريق عند بئر ماء لهذيل يسمى الرجيع كشف الأعراب عن نواياهم الحقيقية وغدروا بمن معهم من المسلمين ، وهنا دافع المسلمون عن انفسهم فقتل منهم ثلاثة هم : مرثد وخالد وعاصم ، وأما الثلاثة الآخرون فقد استسلموا وفي الطريق حاول عبد الله بن طارق الفرار وكان مصيرة القتل وحمل الاثنان : خبيب بن عدى

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص١١٤ .

وزيد بن الدثنة فقدموا بهما إلى مكة حيث بيعا للمشركين : فقد اشترى حجير بن أبى أهاب التميمي لعقبة بن الحارث بن عامر : خبيب بن عدى ليقتله بأبيه ، واشترى صفوان بن أمية زيد بن الدثنة ليقتله بابيه أمية بن خلف .

وهنا تجلت صورة رائعة من صور الأيمان والحب الشديد لرسول الله ﷺ فحين أرسل صفوان بن أمية زيد بن الدثنة إلى التنعيم ليقتل صرّح ابن الدثنة بمدى حبه لرسول الله ﷺ يقول ابن إسحاق : فبعث - أي صفوان بن أمية - به - أي زيد بن الدثنة - مع مولى يقال له نسطاس إلى التنعيم فأخرجوه من الحرم ليقتلوه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان لما قدم ليقتل : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وانك في اهلك؟ فقال : والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي .

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله -رحمه الله- نسطاس مولى صفوان[1] .

وأما خبيب بن عدى فقد حبس في بيت مارية مولاة حجير بن أبي أهاب وقد قالت بعد أن أسلمت : " لقد طلعت عليه يوما وإن في يده لقطفا من عنب مثل راس الرجل يأكل منه والله ما أعلم في أرض الله عنبا يؤكل " [2] ، ثم حملوا خبيب إلى التنعيم لتنفيذ حكم الإعدام فيه يقول ابن إسحاق : " ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم ان تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا ، قالوا له دونك فاركع فركع ركعتين واتمهما واحسنهما

---

( ١) الاكتفا، ج٢ ص١٣٦ .

( ٢) الاكتفا، ج٢ ص١٣٧ .

ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا تظنون انى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، فكان خبيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال : اللهم قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ثم قال: اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ثم قتلوه" [1] .

وفي نفس الشهر الذي حدث فيه غدر الأعراب بالمسلمين الستة من صحابة رسول الله ﷺ عند ماء الرجيع ، كانت حادثة شبيهة بها وربما تكون أكثر عنفا وأشد قسوة وإيلاما للمسلمين إذ استشهد فيها عدد كبير من المسلمين بلغ الأربعين وقيل سبعين نتيجة غدر الأعراب ولؤمهم وهؤلاء هم شهداء بئر معونة .

فقد وصل إلى المدينة أبا براء ملاعب الأسنة واسمه عامر بن مالك بن جعفر فعرض النبي ﷺ عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام وفي نفس الوقت طلب وفدا من المسلمين لينشروا الإسلام في نجد وحين أبدى النبي ﷺ تخوفه من غدر الأعراب تعهد له أبو براء بحمايتهم وإنهم في جواره .

خرج الوفد الإسلامي الكبير بصحبة أبى براء حتى وصلوا بئر معونة وهي ارض بين بنى عامر وحرة سليم ، أرسل الوفد الإسلامي حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل يدعوه إلى الإسلام فما كان من عامر إلا أن غدر بحرام وقتله ثم استنفر قومه من سليم : عصية ورعل وذكوان الذين استجابوا له وأحاطوا بالمسلمين وفتكوا بهم وقتلوهم عن أخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار فتركوه وبه رمق ، وجاءت أنباء الكارثة لرسول الله ﷺ في المدينة فحزن حزنا شديدا وظل شهرا يدعو في صلاة الغداة على

---

(١) المصدر السابق ج٢ص١٣٧ .

الذين قتلوا أصحاب بئر معونة يدعو على رعل وذكوان وعصية الذين عصوا الله ورسوله .

**غزوة الخندق (الأحزاب) شوال سنة ٥ هـ :**

لم تتوقف مؤامرات الأعراب ، كما لم تتوقف محاولاتهم المتكررة للهجوم على المدينة ، وخير وسيلة اتبعها المسلمون هي سياسة الهجوم والردع للعدو دون الانتظار والترقب لهجمات المشركين وخير شاهد على ذلك مهاجمة المسلمين لبني أسد .

فلقد وصلت الأخبار إلى المدينة بان طلحة وسلمة ابني خويلد بدءا يجمعان قومهما من بنى أسد لمهاجمة المدينة في السنة الرابعة من الهجرة ومن ثم أسرع النبي ﷺ بإرسال سرية من مئة وخمسين مقاتلا من المسلمين بقيادة أبى سلمة الذي أغار على مضاربهم وشتت شملهم وغنم المسلمون إبلا وشاة وعادوا إلى المدينة .

وفي نفس الشهر أي المحرم سنة ٤ هجرية أرسل النبي ﷺ بعثا أخر بقيادة عبد الله بن أنيس وذلك للقضاء على خالد بن سفيان الهذلي الذي اخذ في حشد الجموع لمهاجمة المدينة وقد نجح البعث الإسلامي في مهمته وقتل خالد وعاد البعث منتصرا يحمل رأس خالد بن سفيان الهذلي.

وفي ربيع الأول سنة خمس من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ عن طريق العيون والجواسيس أن بدومة الجندل - وكان بها سوق كبير للتجارة - قوم يظلمون الناس في تجارتهم ، فضلا عن تجمع عدد كبير من الأعراب بها للإغارة على المدينة فخرج رسول الله ﷺ على رأس ألف من المسلمين ، وحين علم الأعراب باقتراب المسلمين تفرقوا في كل اتجاه ، فلما وصل النبي ﷺ إلى المكان لم يجد أحدا ومن ثم اكتفى الرسول ﷺ بإرسال السرايا في كل اتجاه لبث الرعب والهلع في قلوب الأعراب حتى لا يتجرؤا على مهاجمة المدينة ومن ثم عاد إلى المدينة .

وفي شهر شعبان سنة خمس من الهجرة خرج النبي ﷺ على راس سبعمائة مقاتل وثلاثين فرسا لمهاجمة بنى المصطلق وذلك لان زعيمهم الحارث بن أبى ضرار اخذ بحشد الحشود وبجمع الجموع ويجهز السلاح لغزو المدينة ، وفوجئ بنو المصطلق بجيش المسلمين فتفرقوا أشتاتا ، وقتل النبي ﷺ بعض أفراد منهم وسبى ذراريهم ونساءهم ، وكان - للمنافقين دور خطير في حادثة الإفك في هذه الغزوة وهذا ما سوف نتناوله في حديثنا عن المنافقين .

مما سبق نرى أن المسلمين كانوا في رباط مستمر وحرب دائمة منذ معركة أحد حتى كانت غزوة الخندق .

لم تنجح معركة أحد وما نزل فيها بالمسلمين من قتلى وجرحى إقناع قريش بالكف عن عداوتها للمسلمين، ومن ثم حين جاء وفد من عشرين رجلا من يهود بنى النضير يحرضون قريشا على غزو المدينة وذلك انتقاما لما نزل بهم على يد المسلمين وطردهم من المدينة ، رحب بهم مشركوا قريش ووعدوهم النصر والمعونة .

وقد سألت قريش الوفد اليهودي قائلين لهم : يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد افديننا خير أم دينه؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وانتم أولى بالحق منه فهم الذين انزل الله عز وجل فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[1] .

وكذلك فعل اليهود بقبائل غطفان الذين رحبوا بفكرة الهجوم على المدينة ، وهكذا ظل اليهود يتنقلون بين أحياء العرب يحرضونهم على

---

(١) سورة النسا، ٥١ ، ٥٢ .

غزو المدينة ومناصرة اليهود ولهم حتى تجمعت عدة قبائل تشكلت من قريش وكنانة وحلفاؤهم في أربعة آلاف مقاتل بقيادة أبى سفيان بن حرب ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران ، وانضمت إليهم قبائل غطفان : بنو فزارة يقودهم عيينة بن حصن وبنو مرة يقودهم الحارث بن عوف وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة ، كما انضمت إليهم بنو أسد وغيرها من القبائل وقد بلغت هذه الحشود عشرة آلاف مقاتل وهو عدد ضخم حتى إذا استكملت هذه الحشود الكافرة عدتها خرجت قاصدة المدينة .

بلغت أنباء هذه الحشود النبي ﷺ في المدينة وذلك عن طريق العيون والجواسيس ، ومن ثم جمع المسلمين واستشارهم يقول ابن إسحاق : فلما سمع رسول الله ﷺ بخروجهم وبما اجمعوا له من الأمر اخذ في حفر الخندق وضربه على المدينة فدأب فيه ودأبوا حتى أحكموه" [1] . ولم يعترض أحد على خطة الدفاع عن المدينة فقد كانت جموع الأحزاب كبيرة وكانت دروس أحد ماثله قريبه والخندق يشكل حاجزا يمنع الالتحام المباشر بين الغزاة والمسلمين ويمنع اقتحام المدينة ويوفر للمسلمين موقعا دفاعيا جيدا فيكبدونه الغزاة الخسائر برشقهم بالسهام من وراء الخندق [2].

قام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ورسول الله ﷺ يحثهم ويشترك معهم في الحفر ففي البخاري عن سهل بن سعد قال : كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتافنا فقال رسول الله ﷺ :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للمهاجرين والأنصار[3]

(١) الاكتفاء ج٢ ص١٥٩ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٤٢٠ .

(٣) البخاري ج٢ ص٥٨٨ .

وعن أنس : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة    فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا    على الجهاد ما بقينا أبدا

وعن البراء بن عازب قال : رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه وكان كثير الشعر فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا    ولا تصدقنا ولا صلينا

فـأنزل سكينـة علينـــا    وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا    وان أرادوا فتنة أبينا [1]

اختلفت الروايات في مدة حفر الخندق ، وتراوحت هذه المدة ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يوما ، وقد عانى المسلمون من شدة الجوع فقد كان طعامهم القليل من الشعير وأحيانا يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المنتنة وذلك لشدة جوعهم وهذا الطعام أحيانا لا يجدونه فيأكلون التمر وأحيانا لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متوالية إلى الدرجة التي يعصب فيه النبي ﷺ بحجر من شدة الجوع [2] .

في هذا الجو المشحون بالخوف والترقب لمجيء الأحزاب ، فضلا عن الظروف المعيشية البالغة الصعوبة ، حدثت بعض المعجزات لرسول الله ﷺ وذلك لتبدد بحدوثها الاضطراب والقلق الذي أصاب المسلمين ، وتزيد في

---

(١) المصدر السابق ص٥٨٩ .

(٢) السيرة النبوية ص٤٤٧ .

جرعة إيمانهم ويقينهم باقتراب الفرج والنصر على أعدائهم ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق : " فكانت في حفر الخندق أحاديث فيها من الله عبرة في تصديق رسوله وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون منها :

اشتد عليهم في بعض الخندق كدية - الصخرة الشديدة - فشكوها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها : فوالذي بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب ما ترد فأسا ولا مسحاة .

ودعت عمرة بنت رواحة أم النعمان بن بشير ابنة لها من بشير فأعطتها حفنة من تمر في ثوبها ثم قالت : أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما . قالت : فأخذتها فانطلقت فمررت برسول الله ﷺ وأنا التمس أبي وخالي فقال : تعالى يا بنية ما هذا معك؟ قالت : قلت يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه . قال : هاتيه ، قالت : فصببته في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده : اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق وانه ليسقط من أطراف الثوب .

وقال جابر بن عبد الله : عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق وكنا نعمل فيه نهارا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلينا ، فكانت معي شويهة غير جد سمينة فقلت : والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ ، فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزا وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق قلت: يا رسول الله أنى صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز هذا الشعير فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي ، وإنما أريد أن ينصرف رسول الله ﷺ وحده ، فلما قلت له ذلك قال : نعم ثم أمر صارخا

فصرخ : أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله ،قال : قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون!! فاقبل رسول الله ﷺ والناس معه فجلس وأخرجناها إليه فبرك وسمي الله ثم أكل وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها (1).

هذه بعض المعجزات أجراها الله على يد نبيه ﷺ في وقت عصيب إذ أن جموع المشركين أوشكت على الوصول ، وظهر النفاق والتردد في صفوف المنافقين فضلا عن إشاعات اليهود الكاذبة وأخيرا تلك الظروف الحياتية الصعبة التي كان يحياها المسلمون ، وجاءت هذه المعجزات لتطمئن قلوب المؤمنين وتثبت الأقدام وان النصر في ركاب المسلمين .

اقبل المشركون في عشرة آلاف مقاتل فنزلت بمجتمع الأسيال ونزلت بعض القوات بذنب نقمي إلى جانب احد ، أما المسلمون فكان عددهم ثلاثة آلاف وقد جعلوا جبل سلع في ظهورهم والخندق أمامهم بينهم وبين المشركين .

وقد تحير المشركون في عبور الخندق ، إلا أن بعض فرسانهم من أمثال عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب وغيرهم حاولوا العبور فتصدى لهم فرسان المسلمين فولوا هاربين إلا ما كان من عمرو بن عبد ود الذي أصر على النزال فكان مصيره القتل على يد علي بن أبى طالب .

ومما زاد في موقف المسلمين سوءا خيانة يهود بنى قريظة لمعاهدة النبي ﷺ واستجابتهم لعدو الله حيى بن اخطب الذي استطاع استمالة كعب بن أسد زعيم بنى قريظة ونقضه للعهد بينه وبين المسلمين وانضمامه للأحزاب .

---

(1) الاكتفا، ج٢ ص١٦١ .

وبذلك صار العدو أي الأحزاب من أمام المسلمين واليهود من خلفهم، يقول ابن إسحاق : " وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف واتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين وحتى قال قائل منهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وأقام عليه المشركون قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمياء بالنبل والحصار " [1].

وقد صور القران الكريم هذا الموقف العصيب الذي حل بالمسلمين في قوله تعالى :﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝ ﴾ [2] .

حاول الرسول ﷺ أن يخفف من هذا الكرب العظيم الذي يعيشه المسلمون وذلك بخلخلة الحصار على المسلمين فقام بالاتصال بعيينة بن حصن والحارث بن عوف زعيمي غطفان وعرض عليهما ثلث ثمار المدينة في مقابل انصرافهما من أرض المعركة وفك الحصار عن المسلمين فوافقا وقبل أن يتم هذا الصلح استدعى رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا له : يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئا أمرك الله به لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئا

(١) الاكتفاء ج٢ ص١٦٥ .

(٢) الأحزاب آيات ١٠ - ١٣ .

تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء اصنعه لكم، والله ما اصنع ذلك إلا اني رايت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت ان اكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له واعزنا بك نعطيهم اموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذلك، فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيه من الكتابة ثم قال: ليجهدوا علينا [1].

في هذا الجو الحالك، والملبد بغيوم التآمر والدس من اليهود، وتربص المشركين بالمسلمين يريدون عبور الخندق للفتك بهم، صنع الله أمرا وله الحمد خذّل به العدو وهزم جموعهم وفلّ حدهم فكان مما هيأ ذلك أن رجلا من غطفان يقال له نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي جاء إلى رسول الله ﷺ واخبره بإسلامه وان قومه لا يعلمون بهذا الإسلام يطلب أي أمر ينفذه يقول ابن إسحاق : فقال رسول الله ﷺ إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن استطعت فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما في الجاهلية فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت فلست عندنا بمتهم، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على ان تتحولوا منه إلى غيره، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد واصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين

---

(١) الاكتفاء ج٢ ص ١٦٥ .

الرجل ببلدكم، فلا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه، قالوا : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه من رجالهم: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا، وانه قد بلغني أمر رأيت على حقا أن ابلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى، قالوا: نفعل. قال: تعلمون إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : نعم فان بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان إنكم أهلي وعشيرتي واحب الناس إلى ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم، قال : فاكتموا عنى قالوا: نفعل ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله ﷺ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا، فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فان رأوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم وبعث عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرودة فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم [1].

هكذا دبت الفرقة بين الحلفاء وسرى التخاذل بينهم وكان طول الحصار سببا في إضعاف معنوية الأحزاب، خاصة إن أهدافهم لم تكن واحدة فقريش تريد القضاء على المسلمين لتحرير طرق تجارتها وللانتصار لوثنيتها والأعراب يريدون نصرا سريعا تنهب المدينة، ويهود مترددة بحيث لم تدخل القتال رغم نقضها للعهد خوفا من ترك الأحزاب للحصار وجعلها تقف وحدها وجها لوجه أمام المسلمين فهي تريد رهائن قبل اشتراكها في القتال [2]، وزاد الموقف سوءا بالنسبة للأحزاب أن أرسل الله ريحا قوية فجعلت تقوض خيامهم ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها ولا طبنا إلا قلعته وهم لا يقر لهم قرار كما أرسل الله جنودا من الملائكة يزلزلون الأرض تحت أقدامهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف .

وقد أرسل الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان سرا لكي يأتيه بخبر القوم

---

(١) الاكتفاء ج٢ ص١٧٣ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٤٣٠ .

فتسلل إلى معسكرهم فوجدهم على أسوأ حال وسمع أبو سفيان يقول لجنوده : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار ولا نستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم [1].

وعاد حذيفة إلى رسول الله ﷺ ليخبره باستعداد الأحزاب للرحيل، إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير إلا أنها كانت من أكثر المعارك حسما في تاريخ الإسلام تمخضت عن تخاذل المشركين ولأن العرب لم تكن تستطيع ان تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، لذلك قال رسول الله ﷺ حين اجلي الله الأحزاب: الآن نغزوهم لا يغزونا نحن نسير اليهم [2].

لقد كانت غزوة الخندق أخر محاولة تقوم بها قريش للانتصار على الرسول ﷺ والقضاء على الإسلام، وكانت قريش قد وضعت في هذه الحملة كل إمكانياتها وحشدت حلفاءها، وبقيت في الميدان مدة طويلة نسبيا وقامت بنشاط دبلوماسي لتفكيك الجبهة الداخلية، فلما فشلت كافة هذه الجهود أدركت قريش عبث تجديد محاولاتها لإزالة الإسلام ودولته، كما ازداد تساؤلها عن مدى صحة أسس موقفها المعادى لرسول الله ﷺ، أليس الرسول والمهاجرون الأولون الذين هم جوهر المسلمين هم من قريش ؟ وهم يؤمنون بالله ويقدسون البيت الحرام في مكة ولهم أقارب وأهل فيها، وهم لم يقوموا بعمل كبير يبرر خرق الحرية التي يوفرها الحرم في مكة أو المعاملة الفظة التي عوملوا بها، ثم يتعرضوا باستمرار

---

(١) الاكتفاء ج٢ ص١٧٥ .

(٢) البخاري ج١ ص٥٩٠ .

إلى هذا التهديد المتواصل .

إن انسحاب قريش وإيقافها عملياتها العسكرية ضد الإسلام وفّر للرسول فرصة زيادة الاهتمام بتوطيد الدولة وبسط هيبته على القبائل التي كانت مصدر خطر على امن الدولة وهيبتها، لذلك وجه حملات متتابعة إلى تلك القبائل [1].

- من هذه الحملات سرية محمد بن مسلمة في ثلاثين فارسا في العاشر من المحرم سنة ٦ هجرية ووجهتها القرطاء وهم بطن من بنى بكر بن كلاب وقد حققت السرية نجاحا إذ فاجأت العدو وقتلت منهم عشرة وفر الباقون وعاد المسلمون بالغنائم إلى المدينة .
- وفى ربيع الأول سنة ست من الهجرة، خرج الرسول ﷺ على راس مائتين من المسلمين ووجهتها بنو لحيان وكانت ديارهم قريبه من حدود مكة وهم الذين غدروا بخبيب وأصحابه وحين اقترب من ديارهم هربت بنو لحيان إلى الجبال خوفا من بطش المسلمين .
- كما أرسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة إلى بني سليم في ربيع الآخر سنة ست من الهجرة حتى ورد الجموم ناحية بطن نخل فأصابوا غنائم وأسرى .
- وخرج زيد بن حارثه أيضا على رأس سرية في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة ناحية العيص في سبعين مسلما ونجحت في الاستيلاء على قافلة تجارية لقريش وعادت بها إلى المدينة. وهكذا توالت السرايا والبعوث والهدف منها بث الرعب والخوف في نفوس القبائل العربية المحيطة بالمدينة والبعيدة عنها، والقضاء على تطلعات الإعراب في الهجوم على المدينة .

---

(١) الدولة في عهد الرسول ج١ص٢٤٨ .

**صلح الحديبية : ( في العام السادس من الهجرة ) :**

في ذي القعدة من العام السادس من الهجرة، أمر النبي ﷺ أصحابه بالتجهز لأداء العمرة وهو يريد بذلك النسك إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكا لقبيل يحتكر القيام عليه ويمكنه الصد عنه فهو ميراث الخليل إبراهيم والحج إليه واجب على كل من بلغه آذان أبى الأنبياء من قرون. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ ﴾ [1].

ومن ثم فلا يجوز لأهل مكة أن يمنعوا المسلمين من أداء نسكهم، كما أن في إحرام النبي ﷺ وصحبه بالعمرة فحسب - وهم يريدون دخول مكة - آية على الرغبة العميقة في السلم وعلى الرغبة في نسيان الخصومات السابقة وتأسيس علائق أهدأ وأرق .

وفى رواية للواقدي إن سبب العمرة هو رؤيا رآها النبي ﷺ : كان رسول الله ﷺ قد رأى في النوم انه دخل البيت ، وحلق رأسه، واخذ مفتاح البيت وعرف مع المعرفين - أي وقف على عرفه - فاستنفر أصحابه إلى العمرة فأسرعوا وتهينوا للخروج [2].

خرج الرسول الكريم ﷺ في غرة ذي القعدة سنة ست من الهجرة ومعه زوجته أم سلمة في ألف وأربعمائة وقيل ألف وخمسمائة مسلم ولم يخرجوا بسلاح وإنما سيوفهم فقط في القرب ، يسوقون أمامهم الهدي وكان سبعين بدنة .

---

(١) سورة الحج آية ٢٦-٢٧ .

(٢) المغازي ج٢ ص٥٧٢ .

وبطبيعة الحال أرسل الرسول ﷺ عينا له وهو بسر بن سفيان الخزاعي ليستكشف المنطقة وليأتيه بأخبار قريش، وعاد بسر ليخبره بمعرفة قريش بنبأ خروجه والمسلمين وهم يعاهدون الله ألا يسمحوا له بدخول مكة، وقد اعدوا أنفسهم واستعدوا بالسلاح لمنع المسلمين من دخول مكة .

هذه الأنباء دفعت النبي ﷺ إلى ترك الطريق الرئيسي المؤدى إلى مكة واتخاذ طريق آخر أكثر صعوبة ومشقة رغبة منه في عدم الصدام بالقرشيين حتى وصلوا ثنية المرار وهى بأقصى الحديبية وعسكر المسلمون هناك .

وبدأت الرسل تتوافد بين المسلمين والمشركين، وقد أوضح النبي ﷺ لهؤلاء الرسل انه إنما جاء معتمرا وزائرا للبيت ومعظما لحرمته ولم يأت لقتال، وممن جاء رسولا من قبل قريش عروة بن مسعود الثقفي الذي قال للنبي ﷺ : يا محمد أجمعت أو شاب الناس ثم جئت إلى بيتك لتفضها بهم ؟ أنها قريش يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وايم والله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، فرد عليه أبو بكر الصديق ﷺ وقال: انحن ننكشف عنه !!.. وكلم رسول الله ﷺ عروة بنحو مما كلم به أصحابه واخبره انه لم يأت حربا، فقام من عنده وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: انى قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وانى والله ما رايت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه!! ولقد رايت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فرووا رأيكم[1].

أرسل النبي ﷺ خراس بن أمية الخزاعي ليبلغ قريش نوايا المسلمين وانهم جاءوا معتمرين، وحين وصل أمية إلى قريش وبلغ رسالته أوشكوا أن يفتكوا به لولا حماية الأحابيش له ومن ثم عاد واخبر النبي ﷺ بما حدث .

---

(١) الاكتفاء. ج٢ ص٢٣٦ .

ثم وقع اختيار النبي ﷺ على عمر بن الخطاب ليكون رسولا إلى قريش إلا انه اعتذر خوفا على حياته من المشركين وخاصة انه لم تكن له عزوة تحميه في مكة، ومن ثم وقع الاختيار على عثمان بن عفان الذي ابلغ قريشا موقف المسلمين المسالم فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال حين بلغه ذلك: لا نبرح حتى نناجز القوم [1].

حين سرت إشاعة مقتل عثمان في صفوف المسلمين، دعا النبي ﷺ ممن معه إلى البيعة وهى بيعة الرضوان يقول ابن إسحاق : ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان فكان الناس يقولون: بايعهم على الموت وكان جابر يقول: بايعنا على ألا نفر فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس لصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ آن الذي كان من أمر عثمان باطل، وقد كان رسول الله ﷺ بايع لعثمان وضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه يد عثمان [2].

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو لإبرام صلح مع المسلمين واشترطت قريش ألا يدخل المسلمون مكة في عامهم هذا، فجاء سهيل وجلس إلى النبي ﷺ وبعد نقاش استقر الرأي على بنود الصلح والذي يتلخص فيما يأتي :

١- يرجع الرسول والمسلمون من عامهم هذا فلا يدخلون مكة، ويسمح لهم بدخولها في العام المقبل وان يقيموا بها ثلاثا وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب .

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ج٢ ص٢٣٦ .

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، لا يعتدي احد على احد ويأمن الناس .

٣- من أحب ان يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

٤- من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه أي جاء هاربا منهم رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد - أي هاربا منه - لم يرد عليه .

هذه هي بنود المعاهدة التي قام الإمام علي بن أبى طالب بكتابتها بأمر رسول الله ﷺ يقول ابن إسحاق : ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبى طالب ؓ فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال رسول الله ﷺ اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو [1].

وهكذا تمت كتابة بنود المعاهدة، ودخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدها، وقد شهد على هذه الصحيفة جماعة من المسلمين وبعض المشركين فمن المسلمين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ومن المشركين مكرز بن حفص .

هكذا كان صلح الحديبية مقدمة بين يدي فتح مكة فقد كانت هذه الهدنة بابا له ومفتاحا ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فأنى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رأوه بالغيب الذي لم يتصوروه بعد.؟ ولكن ما إن مضت فترة من الزمن

---

(١) الاكتفاء ج ٢ ص ٢٤٠ .

حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما قد انطوت عليه من خير فإن الناس أمن بعضهم بعضا واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين وظهر من كان مستخفيا بالإسلام، يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه فلقد دخل في هاتين السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.

قال ابن هشام والدليل على ما قاله الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف [1].

وقد أوضح النبي ﷺ مميزات صلح الحديبية وما حققه المسلمون من خلاله من مكاسب يقول ابن عقبة : " لما كان صلح الحديبية قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال : بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح - أي بالأكف - بدلا من السلاح، عن بلادهم ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهذا أعظم الفتوح، أتنسون يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم !! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، فقال المسلمون: صدق الله ورسوله فهو أعظم

---

(١) الاكتفاء جـ٢ ص٢٤٤ .

الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وامره منا[1].

وإن من الثمرات العظيمة لصلح الحديبية، إن بدأ بعض سادة مكة وفرسانها يفكرون في أوضاعهم وأوضاع الدولة الإسلامية ، وكيف إن راية الإسلام تزداد كل يوم علوا وارتفاعا ، وان اناس من كل مكان وقبلوا على الدخول في الإسلام ، ومن ثم وجدنا ثلاثة من سادة مكة والبارزين فيها وهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة يخرجون من مكة متوجهين إلى المدينة لإعلان إسلامهم والانضمام إلى دين الحق دين الإسلام ، وكان ذلك في أوائل العام السابع من الهجرة، وحين رآهم النبي ﷺ وعلم برغبتهم في الإسلام قال : إن مكة قد ألقت إلينا افلاذ كبدها .

**النشاط العسكري قبيل الفتح الأعظم :**

لم يكن صلح الحديبية والهدنة التي تمت بين المسلمين ومشركي مكة مانعة من تحركات القبائل العربية ضد المسلمين في المدينة، ففي ليلة الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ست أغار عبد الرحمن بن عينية بن حصن الفزاري في جماعة من غطفان على أبل لرسول الله ﷺ كانت ترعى بذي قرد، وعندما شعر بهم سلمة بن الأكوع صاح بالمسلمين واخذ يطارد اللصوص، وعلى أثره خرج رسول الله ﷺ ومن تجهز معه من المسلمين، ونجح المسلمون في استنقاذ الإبل وعاد المسلمون إلى المدينة سالمين .

وفى العام السابع من الهجرة خرجت عدة سرايا إلى جهات متفرقة وذلك لتأديب القبائل العربية وتخويفها حتى لا تتطلع إلى الهجوم على المدينة فخير وسيلة للدفاع هي الهجوم، فمن ذلك سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٤٥ .

بنى الملوح بقديد في ربيع الأول سنة ٧ هجرية ثأرا لمن قتلوه من المسلمين فشنوا الغارة في الليل فقتل من قتل وغنموا ثم عادوا إلى المدينة .

وكذلك سرية عمر بن الخطاب في شعبان سنة ٧ هجرية إلى هوازن الذين فروا من ديارهم حين علموا بمجيء المسلمين وعاد المسلمون دون قتال .

وكذلك سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك في شعبان سنة ٧ من الهجرة في ثلاثين رجلا، وقد هاجمهم العدو ليلا وقتل جميع المسلمين إلا بشير الذي أصيب بالجراح فأقام عند يهود حتى برأت جراحة فرجع إلى المدينة. وهناك سرايا أخرى كثيرة يضيق المقام بذكرها .

**عمرة القضاء ( سنة ٧ هجرية) :**

في ذي القعدة من العام السابع من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من المسلمين لأداء العمرة وهى البديلة للعمرة السابقة التي منعته قريش من أدائها، وبعد صلح الحديبية صار من حق المسلمين أداء العمرة لذا سميت عمرة القضاء .

خرج المسلمون يسوقون الهدى أمامهم وقد احرموا من ذي الحليفة إلا انه في هذه المرة خرجوا بالسلاح كاملا خوفا من خيانة قريش، ودخلوا مكة بالسيوف في القرب حسب اتفاق الحديبية، وقبل الوصول إلى مكة ترك المسلمون العتاد والسلاح في مكان يدعى بطن يأجج وجعلوا على حراسته مائتين من فرسان المسلمين برياسة أوس بن خولي الأنصاري، وأمرهم النبي ﷺ بالتيقظ والحذر ليتمكنوا من نجدة المسلمين إذا حاول المشركون الغدر بهم .

وحين علم المشركون في مكة بإقبال النبي صلى الله عيه وسلم خرج أشرافهم تاركين مكة إلى بواديهم حتى يفرغ المسلمون من عمرتهم،

وفى نفس الوقت اعتقد بعض المشركين أن المسلمين قد أصابهم الجهد والضعف بعد هجرتهم إلى المدينة يقول ابن إسحاق : وتحدثت قريش فيما بينها إن محمدا وأصحابه في عسرة وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه والى أصحابه .

فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اصطبغ بردائه واخرج عضده اليمنى ثم قال : رحم الله إمرءا أراهم اليوم من نفسه قوة، ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم حتى جمع حجة الوداع فلزمها فمضت السنة بها [١] .

أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع طلب المشركون منه الانصراف وذلك بحسب العقد المبرم بينهما في الحديبية ، وخرج النبي ﷺ هو وأصحابه، وفى هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية .

وقد أشار ابن القيم إلى أن هذه العمرة سميت بعدة أسماء فكان اسمها عمرة القضاء لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي المصالحة التي وقعت في الحديبية كما سميت بعمرة القضية والقصاص والصلح [٢] .

وهذه العمرة تعتبر تصديقا إلهيا لما وعد به عليه السلام أصحابه من دخولهم مكة وطوافهم بالبيت وقد رأيت كيف سأل عمر رسول الله ﷺ أثناء صلح الحديبية: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

---

(١) الاكتفا، ج٢ص٢٧٢ .

(٢) زاد المعاد ج١ ص١٧٢ .

فأجابه : بلى فأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به .

فهذا هو مصداق وعد رسول الله ﷺ، وقد نبه الله عز وجل عباده إلى هذا التصديق في قوله : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفتح: ٢٧).

ثم إن هذه العمرة انطوت على معنى تمهيدي للفتح الكبير الذي جاء من بعده، فقد كان لمرأى العدد الوفير من الأنصار والمهاجرين وهم محدقون برسول الله ﷺ في طوافهم وسعيهم وسائر مناسكهم في حماس ونشاط ، كان لذلك اثر بعيد في نفوسهم، فقد داخلتها الرهبة منهم إذ فوجئوا بعكس ما كانوا يتصورون فيهم من الضعف والخمول بسبب ما قد يحتمل أن يكونوا قد اصيبوا به من حمى يثرب وسوء مناخها ، روى الإمام مسلم عن ابن عباس أن المشركين لما رأوا رمل المسلمين حول الكعبة وفى المسعى قال بعضهم لبعض : هؤلاء الذين زعمتم إن الحمى قد وهنتهم ؟! هؤلاء اجلد من كذا وكذا " [1].

**فتح مكة : (رمضان سنة ٨ هجرية ) :**

يقول ابن القيم عنها : " هو الفتح الأعظم الذي اعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت إطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياءا وابتهاجا " [2].

---

(١) فقه السيرة النبوية ص٢٥٧ .

(٢) زاد المعاد ج٢ ص١٦٠ .

نص صلح الحديبية على عقد هدنة بين المسلمين وقريش لمدة عشرة أعوام فيها يأمن الناس وأن من دخل في حلف المسلمين فهو يتمتع بهذا الأمن وكذلك قريش ومن دخل في حلفها، وبناء على ذلك دخلت قبيلة بكر في حلف قريش ودخلت قبيلة خزاعة في حلف المسلمين، إلا انه لم يمض وقت طويل حتى وجدنا قبيلة بكر تخرق اتفاق الحديبية وتعتدي على قبيلة خزاعة حلفاء النبي ﷺ بل وقتلوهم في الحرم المكي، وناصرت قريش حلفاءها من قبيلة بكر حيث أمدتها بالعتاد والسلاح بل والرجال، وترتب على ذلك مقتل عشرين من رجال خزاعة .

خرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة لإبلاغ الرسول ﷺ ما نزل بهم يقول ابن إسحاق : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا منه وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه وهو جالس بين ظهري الناس فقال :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وهـــم أذل وأقــل عــددا هــم بيتونا بالوتير هجـدا

وقتلونـــا ركعــــا و سجـــــدا

يقول قتلنا وقد أسلمنا .

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم [1].

هكذا كان رد الرسول ﷺ، نصرة المظلوم ونصرة الحليف وتأديب قريش على خيانتها ونقضها للعهود، وفى نفس الوقت فهي فرصة سانحة للقيام بمهمة الدعوة وتطهير البيت الحرام من الأصنام وتخليصه من

---

(١) الاكتفاء، ج٢ ص٢٨٨ .

الشرك والمشركين وتمكين المسلمين من العودة إلى البلد الذي اكرهوا على الخروج منه ولتعلوا كلمة الله .

ويصير البيت في حماية المسلمين يقول الله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾ [1].

أدركت قريش عظم الجرم الذي ارتكبته في حق قبيلة خزاعة والمسلمين، وربما جاء المسلمون لتأديب قريش على جريمتها وهى لا قبل لها بقوة المسلمين ومن ثم أسرعت وأرسلت أبو سفيان لتدارك هذا الأمر والاعتذار عما بدر من قريش. يقول ابن إسحاق : ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وانت رجل نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه، قال : والله يا بنية لقد أصابك بعدي شر !!

ثم خرج حتى اتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا[2] وقد كرر أبو سفيان المحاولة مع بعض الصحابة: أبى بكر وعمر وعلى بن أبى طالب، إلا أن محاولته باءت بالفشل وعاد أبو سفيان إلى مكة يجر أذيال الخيبة ولم يحقق ما يريد .

أخذ الرسول ﷺ في استنفار المسلمين للخروج للجهاد دون أن يعلن

---

(١) سورة التوبة ١٧-١٨ .

(٢) الاكتفاء، ج٢ ص٢٨٩ .

عن وجهته في بادئ الأمر، ثم حين علم أصحابه بوجهته اخذ النبي ﷺ يدعو الله قائلا: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها . أقبلت القبائل المسلمة حول المدينة من سليم وأشجع ومزينة واسلم وغفار فمنهم من لحق النبي ﷺ في المدينة ومنهم من لحق به في الطريق، كما لم يتخلف احد من المهاجرين والأنصار وبلغ عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل .

وقبل خروج النبي ﷺ من المدينة اخطأ احد الصحابة وهو حاطب بن أبي بلتعة فأرسل رسالة سرية مع امرأة متجهة إلى مكة يبلغ قريشا استعدادات المسلمين لغزو مكة، وقد أخبر الوحي سيدنا رسول الله ﷺ بخبر هذه الرسالة، فأرسل النبي ﷺ عليا والزبير لإدراك المرأة في الطريق وإحضار الرسالة، وقد نجحا في مهمتهما وحين علم الرسول ﷺ بما في الرسالة احضر بلتعة وسأله: يا حاطب ما حملك على هذا ؟ قال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرءا ليس لي في القوم من اصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه، فقال عمر : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل نافق فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على اصحاب بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله في حاطب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾[1].

في العاشر من رمضان سنة ٨ هجرية خرج الرسول ﷺ على رأس

(١) الاكتفاء، ج٢ ص٢٩٢ ، الممتحنة آية ١ .

الجيش الإسلامي متوجها إلى مكة، وفى الطريق إلى مكة اقبل العباس على الرسول معلنا إسلامه، وهناك روايات اخرى تشير إلى إسلام العباس قبل هجرة النبي إلى المدينة فقد قيل انه اسلم قبل بدر وفى رواية اخرى انه اسلم قبل خيبر والمشهور هو إسلامه قبيل فتح مكة، كما اسلم بعض زعماء قريش ومنهم ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اخو الرسول في الرضاعة وكذلك عبد الله بن أمية بن المغيرة.

وعند الوصول إلى مشارف مكة التقى العباس بابي سفيان الذي استفسر عن هذا الجيش الكبير فاخبره بأنه جيش المسلمين ، ثم عرض العباس على أبى سفيان اصطحابه إلى معسكر المسلمين ولقاء النبي ﷺ ، ووافق أبو سفيان ودخل معسكر المسلمين، وفى صباح اليوم التالي خرج به العباس للقاء النبي ﷺ الذي قال لأبى سفيان : ويحك يا أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم إن لا اله إلا الله ؟ قال : يأبى انت وامي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد أغنى شيئا بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم انى رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك اما هذه فوالله فان في نفسي منها شيئا حتى الآن ، قال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك قال : فشهد شهادة الحق وأسلم [1].

هكذا أسلم سيد قريش وزعيمها أبو سفيان بعد أن قضى وقتا طويلا في محاربة الإسلام والمسلمين، ولاشك أن إسلامه اضعف من مقاومة اهل مكة وجعلتها تستسلم لقدرها ولجيش المسلمين، ولأن أبا سفيان رجل يحب الفخر فقد أعطاه الرسول ﷺ مزية حين قال النبي ﷺ : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن،

(١) الاكتفا، ج٢ ص٢٩٥ .

وإنما أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان هذه الميزة إرضاء لعاطفة الفخر في نفسه، وقد أرضاه بما لا يضر أحدا ولا يكلف جهدا ولا عليه أن يتحبب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور[1].

امر رسول الله ﷺ العباس بأن يقف بأبي سفيان على طريق المسلمين وهم متجهون صوب مكة، وقد استعظم أبو سفيان كل هذه القوة، وحين قال أبو سفيان للعباس : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما قال العباس : إنها النبوة .

عاد أبو سفيان إلى مكة مسرعا ليخبرهم بجيش المسلمين ومدى قوته ومعداته وصاح قائلا : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبه فأخذت بشاربه وقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس - الحميت : الزق أو وعاء السمن ، والدسم : السمين، والأحمس : الكثير اللحم - قبح من طليعة القوم ، قال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم والى المسجد[2].

وزع النبي ﷺ قواته بحيث تدخل من أماكن متعددة إلى قلب مكة، فأمر خالد بن الوليد على مجموعة من القبائل الإسلامية فيها أسلم وغفار ومزينه وجهينة وغيرها من القبائل وامره أن يدخل مكة من أسفلها مع محاربة من يحاربه، أما الجناح الأيسر من الجيش فكان بقيادة الزبير بن العوام ومعه راية رسول الله ﷺ ودخل مكة من أعلاها من كداء أما الرجالة فكانوا بقيادة أبى عبيدة بن الجراح فقد دخل من بطن الوادي، ودخل

---

(١) فقه السيرة ص٤٠٠ .

(٢) الاكتفاء ج٢ ص٢٩٦ .

الرسول ﷺ مكة يحيط به المهاجرون والأنصار متعمما ببرد من ثياب اليمن خافضا رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله من الفتح حتى أن لحيته كانت تمس وسط راحلته من شدة تواضعه، ولم يحدث قتال إلا من جهة خالد بن الوليد حين تصدت بعض خيول قريش بقيادة صفوان ابن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو ودار قتال بين الفريقين أسفر عن قتل ثلاثة عشر قتيلا وفرار الباقين أما المسلمون فقد استشهد منهم ثلاثة رجال .

دخل الرسول الكريم ﷺ مكة وطاف بالبيت سبعا وازال ما حول البيت من أصنام وقد بلغت ثلاثمائة وستين صنما ثم صلى ركعتين في مقام إبراهيم، ودخل في جوف البيت وازال ما بها من صور وصلى ركعتين ثم خرج وخطب في الناس قائلا :

لا اله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، الا كل مأثرة أو دم أو مال تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ... يا معشر قريش إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1]، يا معشر قريش ما تظنون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فانتم الطلقاء " [2].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) زاد المعاد ج٢ ص١٦٥ .

عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدُسيتها وحرمتها فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى .

وامن الرسول ﷺ كثير ممن كان قد امر بقتلهم هؤلاء الذي أساءوا إلى الإسلام أعظم إساءة منهم صفوان بن امية وعكرمة بن أبى جهل وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وآخرين ثم بعث الرسول ﷺ سراياه لهدم الأصنام حول مكة فهدمت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنما إلا كسره .

هكذا تم فتح مكة وعاد النبي ﷺ إلى وطنه بعد أن طرده أهلها منها وخرج مستخفيا في بطون الشعاب والأودية مهاجرا إلى يثرب وقد سبقه من قبله ولحقه من بعده أصحابه القلة المستضعفون يتسللون مهاجرين وقد تركوا المال والأهل والأرض من اجل أن يبقى لهم الدين .

ها هم أولاء وقد رجعوا إلى الوطن والأهل والمال، وقد كثروا بعد قلة وتقووا بعد ضعف واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين ودخل أهل مكة في دين الله أفواجا، وأقبل بلال الحبشي وهو الذي طالما عذب في رمضاء مكة على أيدي المشركين فصعد على الكعبة المشرفة ينادى بأعلى صوته : الله اكبر الله اكبر، ذلك الصوت الذي كان يهمس يوما ما تحت أسواط العذاب : أحد أحد أحد، ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا: لا اله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع [1].

### غزوة حنين ( شوال سنة ٨ هجرية) :

كان دخول المسلمين مكة وخضوع قريش للدين الجديد، صدمة لبعض القبائل التي حركتها العصبية القبلية، وحرصها على موروث

---

(١) فقه السيرة النبوية ص٢٦٩ .

الآباء والأجداد من تقديس الأصنام وعبادتها ومن ثم بدات تتجمع وتستعد لجولة أخرى ضد المسلمين ، وفى مقدمة هذه القبائل بطون من هوازن وثقيف وانضمت إليها قبائل نصر وجشم وسعد بن بكر وغيرها من القبائل، تجمعوا بقيادة مالك بن عوف النصري وهدفها القضاء على المسلمين وإعادة قريش إلى دينها القديم .

لقد حشد مالك بن عوف كل من استطاع من الرجال وضم إليهم النساء والأطفال والأموال حتى يدافع كل عربي عن عرضه وماله ويستميت في ارض المعركة ولا يفر من ميدان القتال ، وما فعله مالك بن عوف لم يعجب أحد شيوخ القبائل المعمرين دريد بن الصمة الذي استدعى مالك وسأله : يا مالك انك أصبحت رئيس قومك، وأن هذا يوم له ما بعده ، مالي اسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟ قال : سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فزجره دريد وقال له : راعي ضأن والله !! وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك " [1] ، إلا أن مالكا لم يسمع لهذا القول وأصر على ما فعل وهددهم بقتل نفسه إن لم يستجيبوا لرأيه وقد استجابوا لذلك .

جاءت الأنباء لرسول الله ﷺ بهذا الحشد الكبير والعدد الوافر وذلك عن طريق العيون والجواسيس فأمر المسلمين بالتجهز واستعار كميات من الأسلحة من بعض مسلمي مكة، وخرج على رأس جيشه الذي بلغ اثني عشر ألفا: عشرة آلاف اشتركوا في فتح مكة وانضم إليهم ألفان من الطلقاء وهم حديثو عهد بالإسلام بل وخرجت النساء لمشاهدة المعركة وكسب بعض المغانم وكان ذلك في ست من شوال سنة ٨ هجرية .

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٣٢٢ .

لقد كان لوجود الطلقاء في جيش المسلمين آثار سلبية، فقد كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتخلصوا من كل الرواسب الجاهلية المستقرة في أعماقهم وحياتهم، حتى إذا رأى بعضهم في الطريق إلى حنين شجرة تعرف بذات أنواط يعلق عليها المشركون أسلحتهم قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : سبحان الله كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من قبلكم ، ولاشك أن طلبهم يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم ، لكن النبي ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك وحذّرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام [1].

هذه الأعداد الكبيرة أغرت بعض أفراد من المسلمين بكثرة عددهم وحتى أن أحدهم قال : لن نغلب اليوم من قلة وغيرها من الأقوال التي بلغت الرسول ﷺ فنبههم إلى خطورة ذلك وأن النصر من عند الله وليس بالكثرة والقلة ونزل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2].

نصب العدو الكمائن والرماة في ثنايا وادي حنين، وأقبل المسلمون غير مكترثين بقوة العدو ولا متنبهين لهذه الكمائن، وفوجئ المسلمون بوابل من السهام والرماح ينصب عليهم من كل مكان وجحافل المشركين تهاجمهم في قسوة وضراوة يقول ابن إسحاق : " وحدث جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ص٤٩٧ .

(٢) التوبة آية ٢٥ .

أجوف حطوط إنما تنحدر فيه انحدارا قال : وذلك في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأجنابه ومضايقة، قد اجمعوا وتهيأوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر- فروا وانهزموا - الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد " [1].

هذه الهزيمة دفعت بعض ضعاف الإيمان في جيش المسلمين وحديثي عهد بالإسلام إلى الشماتة والفرح بهذه الهزيمة حتى أن احدهم قال : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وقال أخر : ألا بطل السحر اليوم، بل وحاول احدهم اغتيال النبي ﷺ خلال تلك الفوضى والارتباك الشديد الذي أصاب جيش المسلمين ومن هؤلاء شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذي قتل أبوه يوم أحد فأراد اغتيال النبي ﷺ إلا أن الله حفظ رسوله منه وادرك النبي ذلك فدعاه ووضع يده الشريفة على صدره ودعا له، يقول شيبة : فرفعت بصري فلهو أحب إلى من سمعي وبصري وقال لي : يا شيبة قاتل الكفار فقاتلت معه ﷺ [2].

في هذه اللحظات الحاسمة الصعبة، ثبت النبي ﷺ في موضعه وصاح في المسلمين بالثبات والرجوع إلى ميدان القتال، والتف حوله جماعة من المهاجرين والأنصار يحرضون الناس على القتال ويحاربون أعداء الله وأمر النبي ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - وقال له اصرخ فقال العباس : يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة ، قال : فأجابوا : لبيك لبيك ، قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ ترسه وسيفه ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٣٢٦ .

(٢) الاكتفا، ج٢ ص٣٢٨ .

استقبلوا الناس فاقتتلوا [1].

تحولت المعركة من هزيمة للمسلمين إلى نصر مؤزر ، وانطلق المشركون فارين لا يلوون على احد في كل اتجاه مخلفين وراءهم كثيرا من القتلى والأموال ، وأمر الرسول ﷺ بعض كتائب المسلمين بتعقب هؤلاء الفارين ونهى المحاربين عن قتل النساء والأطفال والأجراء وكل من لا يحمل سلاحا، وقد هرب مالك بن عوف ومن معه من ثقيف إلى الطائف .

لقد خلّف المشركون في ارض المعركة أموالا جمة فقد بلغ سبى حنين ستة آلاف من النساء والأبناء ومن الأموال أربعة آلاف أوقية ومن الإبل أربعة وعشرون ألفا ومن الشياه أكثر من أربعين ألف شاه ، هذه المغانم تركها الرسول ﷺ بالجعرانة وتوجه إلى الطائف لمحاربة المشركين الذين تحصنوا بها .

سار الرسول ﷺ على راس جيشه حتى وصل قريبا من حصون الطائف وضرب عليها الحصار الذي استمر أربعين يوما وفى رواية أخرى عشرين يوما وقيل بضعة عشر يوما .

تراشق الفريقان بالسهام والنبال وقد استشهد عدد من المسلمين إلا إنهم نجحوا في إحداث شرخ في جدار الحصن وحاول بعض المسلمين الدخول من هذه الثغرة إلا أن العدو أرسل عليهم أسياخ الحديد المحماة بالنار فعاد المسلمون مع استشهاد بعضهم، وقد أمر الرسول ﷺ بقطع أشجارهم ونخيلهم حتى يدفعهم إلى الاستسلام فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم فتركها، وفى نفس الوقت نادى منادى المسلمين في أهل الحصن: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر فاستجاب لهذا النداء ثلاثة وعشرون رجلا فصاروا أحرارا وانضموا إلى المسلمين .

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٣٢٩ .

ولما طال الحصار واستعصى الحصن وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة وكان أهل الحصن قد اعدوا منه ما يكفيهم لحصار سنة فاستشار الرسول ﷺ نوفل بن معاويه الديكي فقال : هم ثعلب في جحر، إن اقمت عليه أخذته وان تركته لم يضرك وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس : إنا قافلون غدا إن شاء الله فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ: اغدوا على القتال فغدوا فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غدا إن شاء الله فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك .

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف فقال : اللهم اهد ثقيفا وأْت بهم [1] .

عاد رسول الله ﷺ إلى الجعرانة وفيها لسبى والغنائم التي أخذت من هوازن في غزوة حنين فقسم السبي هناك، ثم قدم عليه وفد من هوازن مسلمين وسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ معي من ترون وأحب الحديث إلى أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين: أما السبي وأما المال وقد كنت استأنيت بكم - أي أخرت تقسيم السبي والغنائم آملا في إسلامكم - وكان النبي ﷺ قد أنظرهم بضع عشرة ليلة حين رجع من الطائف .

فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين احسابنا وأموالنا فالحسب احب إلينا فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين وانى رأيت ان أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكن أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه

---

(١) الرحيق المحتوم ص٤٧٢ .

من أول ما يفئ علينا فليفعل - أي بان يرد السبي بشرط ان يعطى عوضه فيما بعد - فنادى الناس جميعا : قد طبنا ذلك يا رسول الله [1].

وفيما يتعلق بتوزيع مغانم حنين ، فان النبي ﷺ زاد في أعطيات المؤلفة قلوبهم وحديثي عهد بالإسلام مما دفع الأنصار إلى القول : يغفر الله لرسول الله، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !! فلما علم الرسول ﷺ بذلك جمع الأنصار وقال لهم بعد أن حمد الله واثنى عليه: يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ الم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله ورسوله أمنّ وافضل، ثم قال: إلا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل فقال صلوات الله عليه : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدّقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك وعائلا فأسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في انفسكم في لعاعة - الجرعة من الشراب والكلأ الخفيف - من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟! الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو لا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسما وحظا ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا [2].

بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من توزيع الغنائم في الجعرانه توجه إلى مكة معتمرا حتى إذا فرغ من عمرته عاد راجعا إلى المدينة ظافرا منتصرا.

---

(١) فقه السيرة النبوية ص ٢٨٧ .

(٢) الاكتفاء، ج ٢ ص٢٦٣ .

تعد معركة حنين وحصار الطائف آخر اشتباك بين سيدنا رسول الله ﷺ وجموع العرب من المشركين، تلك المعارك التي بدأت منذ نزول النبي ﷺ ارض المدينة وحتى معركة حنين ، إلا إن هناك بعض السرايا التي أرسلها النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة وذلك لتأديب أعراب البادية،والقضاء على تطلعاتهم في مهاجمة المدينة ومن هذه السرايا :

أ- سرية عيينه بن حصن في المحرم سنة ٩ هجرية ووجهتها بنى تميم وقد نجحت السرية في مهمتها وعادت بالأسرى والغنائم .

ب- سرية قطبة بن عامر في صفر سنة ٩ هجرية ووجهتها إلى حي من خثعم بناحية تبالة وقد اشتبكت السرية مع العدو واستشهد قطبة وانتصرت السرية في أداء مهمتها وعادت إلى المدينة بالأسرى والأسلاب .

ج- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي في ربيع الأول سنة ٩ هجرية ووجهتها بنى كلاب وقد حققت السرية أهدافها .

د- سرية لعلى بن أبى طالب في ربيع الأول سنة ٩ هجرية وذلك لهدم صنم لقبيلة طيء يقال له القلس، وقد نجح الإمام على في مهمته وهدم الصنم وحارب قبيلة طيء وعادوا محملين بالأسلاب والمغانم .

يمكن القول إن الرسول ﷺ أنهى معاركه ضد مشركى العرب في شبة الجزيرة، بعد معارك ضارية ومتعددة، كان النصر في ركاب المسلمين اللهم إلا من بعض المعارك التي منى فيها المسلمون بالخسائر كمعركة أحد .

وبجانب هذا النشاط العسكري ضد مشركى العرب، كان هناك نشاط سياسي وعسكري أخر ضد اليهود والمنافقين وهذا ما سوف نتناوله في الصفحات التالية .

## ثانيا: موقف الرسول من اليهود والمنافقين

شكل اليهود والمنافقون في المدينة خطرا شديدا على الإسلام وأعلنوها حربا لا هوادة فيها، اليهود في العلن والمنافقون في الخفاء، تدفعهم في ذلك الأحقاد والضغائن التي ملأت قلوبهم غلا وحسدا وكرها وبغضا، تحركهم الأهواء والشهوات التي سيطرت عليهم حبا في المال والسلطة والنفوذ.

أما اليهود فكانوا أهل كتاب، وقد جاء في كتبهم الصحيحة وصحفهم أخبار نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته،إلا إنهم حرّفوا في كتبهم، ولم يؤمنوا بالدين الجديد إلا من عصمه الله منهم وأدرك صدق النبي ﷺ ودعوة الإسلام فدخل في الإسلام وترك دينه.

وقد اسلم عدد منهم في زمن مبكر ومن هؤلاء أسيد بن سعيه وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد وهم من بني هدل، ويذكر ابن إسحاق ممن اسلم بالإضافة إلى هؤلاء أيضا عبد الله بن سلام ومخيريق وجماعة غيرهم، غير إن عددا منهم لم يبق مخلصا للإسلام ودولته، ووقف عامة اليهود بمعزل عن الإسلام، ولم يتعاونوا مع الرسول ﷺ ولم يشاركوا في أي عمل قام به، وإنما بالعكس أخذ عدد من رجالهم البارزين يناقشون الرسول ويجادلونه ويحاولون إحراجه والدس عليه فكانوا مصدر خطر على تثبيت سلطة الإسلام وعلى الاستقرار في المدينة بما يثيرونه من الجدل وما يزرعونه من الشكوك فكان لابد من اتخاذ إجراءات حاسمة للرد عليهم [1].

وحسب ما جاء في بعض الروايات أن أول اتصال جرى بين النبي ﷺ وبين اليهود كان في قباء فقد نقل لنا ابن إسحاق شهادة صفية بنت حيي ابن أخطب التي تزوجها الرسول ﷺ ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل

(١)بناء الدولة الإسلامية حـ١ ص ١٨٨ .

قباء في بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر ابن أخطب قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى ... قالت : وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب : اهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : اتعرفه وتثبته ؟ قال: نعم. قال فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت [1] - وهذا الموقف يشير بوضوح إلى تأكدها من نبوة الرسول ﷺ ولكن حسدهما إن يكون عربيا هو الذي دفعهما إلى مجافاة العقل والمنطق والحيلولة بين قومهما وبين التصديق بنبوة محمد وأتباعه [2].

ومن مظاهر ضلالهم تلك الخصومات الدموية التي كانت بينهم وإسرافهم في القتل، وتحريف الكلم عن مواضعه وتناسيهم بعض أحكام كتبهم ومعارضتهم للرسول ﷺ ومقاتلته وولاء كثير منهم للكفار مع الأجدر إن يوالوا المسلمين، لقد وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف العداء الشديد وحاربوها دون هوادة ومن ثم كان مصيرهم الطرد أو القتل .

واشترك المنافقون وهم من سكان المدينة أو من البوادي في عداوتهم الدفينة للإسلام، وتحريضهم كل القوى المعادية للإسلام للقضاء على الدين الجديد .

لقد ذكرت كلمة المنافقين في القران في ست وعشرين أية ، تجمعت أكثرها في ثلاث سور هي: النساء، التوبة، والأحزاب كما سميت إحدى السور بهم وباقي ذكر المنافقين تفرق في ثماني سور، وتبين من مجمل هذه الآيات أن المنافقين جماعة من الناس لها سمات خاصة تميزهم عن الكفار والمشركين وان كانوا يشاركونهم في عذاب الله وفى أن مصيرهم يوم القيامة جهنم .

---

(١) أ. د محمد بن فارس الجميل: النبي ويهود المدينة ص٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص٤٤ .

فالمنافقون يدّعون الإيمان بالله ويظهرون إنهم يقرون بالإسلام، ولكن إيمانهم ظاهريا وليس قلبيا، وهم يؤدون الفرائض ولكن بتثاقل وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا كما إنهم يستهزئون بآيات الله تعالى ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ [1].

وهم أي المنافقون يتجنبون معرفة أوامر الله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ ﴾ [2]، ثم تتوالى الآيات التي تصف المنافقين في سور القران المختلفة وصفاتهم في مجملها :

أنهم يظهرون الإسلام ويقومون ببعض فرائضه رياء وليس لهم إيمان قلبي وقد اتخذوا من تظاهرهم بالإسلام جنة، وهم يظنون بالله ظن السوء ويهزئون بآيات الله ولا ينفقون في سبيل الله ويؤذون النبي ولا يشاركون في القتال ، وهم يستكبرون على المسلمين ويتعالون عليهم ويجاملون الكفار ويتعاونون معهم ويؤيدونهم وكثيرا ما يبدلون إسلامهم وبعضهم من أهل المدينة ، غير أن الأعراب وهم أهل البوادي اشد كفرا ونفاقا وهم من الرجال والنساء وهم فاسقون ومأواهم يوم القيامة جهنم وقد أمر الله تعالى الرسول أن يصبر على أذاهم ثم أمره بمقاطعتهم ثم بجهادهم [3].

---

(١) سورة التوبة آية ٦٤،٦٥ .

(٢) النساء آية ٦١ .

(٣) الدولة في عهد الرسول ص١٥٨ .

وكان رأس المنافقين في المدينة هو عبد الله بن أُبي بن سلول من الخزرج وكان ذا مكانة في قومه، وقد عزم أهل المدينة على إن يتوجوه، وهو أول من اجتمع أهل المدينة على تتويجه ويبدو أنه كان بمكة عند بيعة العقبة ولكنه لم يشارك فيها .

وكان ابن أُبي بن سلول يرى إن الدين الجديد استلب ملكه فكان يبطن العداوة الشديدة للإسلام، ولما رأى أن الظروف لا تساعده على شركه وأنه يحرم الفوائد الدنيوية، أظهر الإسلام بعد بدر ولكنه بقى مستبطنا الكفر، وكان لا يجد مجالا للمكيدة برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتي بها وكان أصحابه من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة في ملكه يدعمونه في تنفيذ خططه وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث وضعاف العقول من المسلمين عملاء لهم لتنفيذ خططهم [1].

لقد بدأ اتصال مشركي قريش بالمنافقين منذ أن وطئت أقدام الرسول ﷺ أرض المدينة، إذ نراهم يكتبون رسالة إلى عبد الله بن أُبي بن سلول يقولون فيها : إنكم أويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لنقاتلنه أو لنخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقاتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ هذا الكتاب ابن أُبي ومن معه اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك الرسول لقيهم فقال : لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا وامتنع عبد الله بن أُبي عن إرادة القتال عند ذاك، لما رأى تكاسلا في أصحابه .

ولم يستطع عبد الله بن أُبي أن يخفى في نفسه كراهيته للإسلام والدين الجديد إذ مر به النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه فنزل إليه وكلمه في الإسلام وتلا عليه القرآن، فلما فرغ النبي ﷺ من قوله، قال عبد الله بن

---

(١) المنافقون ومجتمع المدينة ص٢١٧ .

أبي : يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا فاجلس في بيتك فمن جاء له فحدثه إياه، ومن لا يأتك فلا تفته - تثقل عليه - ولا تأته في مجلسه بما يكره منه فقال عبد الله بن رواحه وكان معهم: بلى فاغشنا وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا إليه، وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبي قال سعد: يا رسول الله أرفق به والله قد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا [1].

## يهود بني قينقاع :

كانت منازل بني قينقاع على مسافة بعيدة من مسجد الرسول ﷺ في جنوبه الشرقي عند جسر بطحان الذي يمر منه الطريق إلى قباء ومنازل الأوس ، وكانوا يمتهنون حرفة الصياغة وأعمال الصيرفة، كما كان عدد كبير منهم ممن أكثر من مناقشة الرسول ﷺ كما كانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين .

وقد جمعهم رسول الله ﷺ في سوقهم بعد انتصاره في بدر وقال لهم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة واسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، قالوا : يا محمد انك ترى أنا قومك !! لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، وقال ابن عباس : ما أنزل هؤلاء الآيات إلا فيهم : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [2].

---

(١) ابن هشام ج٢ ص١١٥ .

(٢) الاكتفا، ج٢ ص٧٩ {آل عمران آية ١٢} .

وأما سبب طردهم من المدينة فهي حادثة وقعت لامرأة من العرب إذ قدمت إلى سوق بنى قينقاع لتبيع تجارتها وجلست إلى صائغ فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى غافلة فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك اليهودي من ذلك، فصاحت المرأة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم بالمسلمين فوقع الشر بينهم وبنى قينقاع .

هذه الحادثة هي السبب المباشر لطردهم من المدينة ولابد إنهم قاموا بجرم كبير اكبر مما تذكره المصادر حتى استحقوا مصادرة الأموال وتجريدهم من السلاح وإجلائهم عن البلاد بل قيل إن الرسول ﷺ قد همّ بقتلهم فمن المحتمل انه في أثناء انشغال الرسول ﷺ في معركة بدر وبعد عودته أدرك مدة خطورة مجاورة بنى قينقاع للمسلمين في المدينة، وربما انه قد بدر منهم في ذلك الوقت ما ينبئ عن ذلك إذ لا يستبعد إنهم كانوا عينا للعدو على المسلمين يدلونه على عوراتهم ويفضحون أسرارهم كما كانوا يسعون للدس بين المهاجرين والأنصار مما أدى إلى تأزم الموقف بين الفريقين وأصبح أقل حادث - كحادث السوق مع المرأة - كفيل بالغليان الشعبي [1] .

وإزاء هذا التصرف وغيرها من التصرفات العدائية من قبل يهود بنى قينقاع، خرج الرسول ﷺ على رأس جيش المسلمين وجعل اللواء في يد حمزة بن عبد المطلب فضرب الحصار على بنى قينقاع الذين تحصنوا بحصونهم، وكان ذلك في النصف من شوال سنة ٢ من الهجرة واستمر الحصار خمس عشرة ليلة، وحين يئس اليهود من النصر استسلموا للمسلمين .

---

(١) د/ محمد بن فارس : النبي ويهود المدينة ص١٤٢ .

وحين شرع النبي ﷺ في توقيع العقوبة عليهم، تدخل عبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين لإنقاذهم يقول ابن إسحاق : " فقال - أي ابن أُبي ابن سلول - يا محمد أحسن في موالى وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أحسن في موالى فاعرض عنه رسول الله ﷺ فادخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له : أرسلني !! وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا - أي تلونا من شدة الغضب - ثم قال : ويحك أرسلني، قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة!! أنى والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك [1].

وهكذا ظهر واضحا التعاون الوثيق بين اليهود والمنافقين، وقد عامل النبي ﷺ ابن أُبي بالرفق وراعى انه لم يمض على إسلامه سوى شهر واحد، وفى نفس الوقت أمر يهود بنى قينقاع بترك المدينة فخرجوا إلى اذرعات بالشام.

ومما يتصل بعداوة اليهود للمسلمين في المدينة، ما كان يصنعه كعب بن الأشراف اليهودي فهو من قبيلة طيء وأمه من بنى النضير، وكان غنيا مترفا وشاعرا وقد امتلأ قلبه حقدا وحسدا وعداوة للدين الجديد، ومما زاد في غيظه وحنقه ما بلغه من انتصار المسلمين في بدر ومقتل كثير من زعماء قريش، إذ عبّر عن هذه الكراهية والبغضاء بقوله: أحق هذا؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لي من ظهرها [2].

ولم يكتف بهذا الكلام الذي ينبئ عن نفس مليئة بالحقد والكراهية، بل سافر إلى مكة ليواسى المشركين في مصابهم الكبير، واخذ يحرّضهم

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٨٠.

(٢) نفس المصدر ج٢ ص٨٢.

على الثأر من المسلمين والانتقام لقتلاهم في بدر، بل وحين سأله المشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟! وأي الفريقين أهدى سبيلا ؟! قال : انتم اهدي منهم سبيلا وافضل وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [1] ولما عاد إلى المدينة استخدم سلاح الشعر في هجاء المسلمين والتعريض بنسائهم .

فلما استمر كعب بن الأشرف في غيّه وضلاله قال رسول الله ﷺ : من لكعب بن الأشرف؟ فقد أذى الله ورسوله، فقام محمد بن سلمة فقال : انا يا رسول الله أتحب إن اقتله؟ قال: نعم. ومن ثم استعان محمد بن سلمة بجماعة من أصحابه وتحايلوا على كعب بن الأشرف حتى انزلوه من حصنه وتبادلوا معه الحديث حتى قتلوه وكان ذلك في السنة الثالثة لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وهكذا تخلص المسلمون من عدو لدود،وحين علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب في قلوبهم العنيدة، وعلموا إن الرسول ﷺ لن يتردد في استخدام القوة حين يرى إن النصح لا يجدي نفعا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق فلم يحركوا ساكنا لقتل طاغيتهم بل لزموا الهدوء وتظاهروا بالوفاء بالعهود وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها [2].

### المنافقون وغزوة أُحد :

قد سبق الحديث عن غزوة احد التي وقعت بين المسلمين ومشركى قريش في شوال من العام الثالث من الهجرة ، وقد لعب المنافقون بقيادة

---

(١) سورة النساء آية ٥١ .

(٢) الرحيق ص٢٧٢ .

عبد الله بن أبى بن سلول دورا خسيسا ينبئ عن سوء طويتهم وخبث نواياهم .

فما أن تحرك المسلمون صوب أحد، وفى الطريق وجدنا عبد الله بن أبى بن سلول ينخذل بثلث الجيش قائلا: أطاعهم وعصاني - يريد بذلك استجابة النبي ﷺ للراي القائل بالخروج لملاقاة المشركين وكان رأى ابن أبي البقاء في المدينة ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب وهدفه من ذلك إحداث بلبلة واضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو وتعلو همته لرؤية هذا المنظر فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصلح بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه، وفى هؤلاء المنافقين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾[1].

**يهود بنى النضير( في ربيع الأول سنة ٤ هجرية) :**

كانت منازل بنى النضير على مذ ينيب وهو واد صغير يصب في بطحان جنوب شرقي المدينة، وأراضيهم متصلة بقباء ومنازل الأوس ولهم عدة آبار، وقد شيدوا في أراضيهم عدة اطم، ومن رجالهم حيى بن اخطب وسلام وحيى بن أبى الحقيق وكلاهما من أعيان يهود المدينة وقد عرفا بمقاومتهما الرسول ﷺ ومعارضته[2].

---

(١) آل عمران آية ١٦٧ .

(٢) الدولة في عهد الرسول ص١٩٢ .

شارك يهود بنى النضير غيرهم من يهود المدينة في الدس والوقيعة والغدر بالمسلمين، وقد زاد شرهم بعد خسارة المسلمين في موقعة احد وما حدث للمسلمين في يوم الرجيع وبئر معونه حتى بلغ بهم الشر أن حاولوا قتل النبي ﷺ غيلة حين ذهب إليهم طالبا منهم أن يعينوه في دفع دية رجلين من كلب قتلهما عمرو بن أمية الضمرى وكان ذلك واجب عليهم بحسب بنود المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود فاستجابوا لذلك يقول ابن إسحاق : "فقالوا له لما كلمهم في ذلك" نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك فجلس رسول الله ﷺ إلى ظل جدار من جدر بيوتهم معه نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي ينتظرون أن يصلحوا أمرهم.

فخلا بعضهم - أي يهود بنى النضير - ببعض والشيطان معهم لا يفارقهم فائتمروا بقتل رسول الله ﷺ وقالوا: انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل يعلو هذه البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه. فانتدب لذلك عمر بن جحاش بن كعب احدهم فقال: أنا لذلك وصعد ليفعل.

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم فقام راجعا إلى المدينة وترك أصحابه في مجلسهم، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه فقال: لقيته داخلا المدينة فاقبلوا عليه حتى انتهوا إليه فاخبرهم بما كانوا يهود أرادت من الغدر به " [1].

وهكذا فضح الله غدر اليهود ومؤامرتهم الدنيئة ومن ثم أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة إلى يهود بنى النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني فيها وقد أجلتكم عشرا فمن وجدت بعد ذلك منكم ضربت

---

(١) الاكتفا. ج٢ ص١٤٦ .

عنقه، وهذا جزاء خيانتهم وغدرهم، واستجاب اليهود لذلك واخذوا يتجهزون، إلا أن رأس المنافقين عبد الله بن أبى طالبهم بالثبات بحصونهم واعدا إياهم بالمؤازرة والنصر، وقد شجعهم ذلك على البقاء في حصونهم والاستعداد للقتال.

ومن ثم خرج النبي ﷺ على رأس قواته وضرب عليهم الحصار الذي استمر ستة أيام وقيل خمس عشر ليلة وتخلى عنهم المنافقون وقذف الله في قلوبهم الرعب والخوف والهلع ومن ثم رضخوا لأوامر النبي ﷺ وخرجوا من ديارهم بنفوسهم وذراريهم وما حملت الإبل ما عدا السلاح، وقد انزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها فوصف طرد اليهود وفضح مسلك المنافقين وبين أحكام الفيء وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته، وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر" قل سورة بنى النضير " [١].

**يهود بنى قريظة ( ٥ هجرية ) :**

كانت منازل بني قريظة في الأطراف الجنوبية الشرقية من المدينة بالقرب من منازل بنى حارثة ويبلغ عدد رجالهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر يقول بين الثمانمائة والتسعمائة وقد وجد في حصونهم ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفى رمح وألف وخمسمائة ترس وجحفة [٢].

لم يترك يهود بنى النضير فرصة إلا واهتبلوها لتأليب قوى الشرك ضد الإسلام والمسلمين في المدينة وقد خرج عشرون رجلا من زعماء

---

(١) الرحيق ص ٢٣٢ .

(٢) بناء الدولة الإسلامية ص١ ص١٩٥ .

يهود بنى النضير بقيادة حيى بن اخطب إلى مكة لتحريض قريش على الفتك بالمسلمين في المدينة ووعودهم النصر والتأييد، حتى إذا اطمأن اليهود لنجاح مسعاهم، توجهوا إلى قبائل غطفان وبقية قبائل العرب يحرضونهم ويزينون لهم الهجوم على المدينة والقضاء على المسلمين وما يترتب على ذلك من مغانم وأموال فضلا عن القضاء على العدو المشترك لهما وهو الإسلام، وقد نجح اليهود في مسعاهم وخرجت جموع القبائل من قريش وغطفان وغيرهما في عشرة آلاف مقاتل في كامل عدتهم وعتادهم قاصدين المدينة في السنة الخامسة من الهجرة. وقد سبق الإشارة إلى هذه الغزوة بالتفصيل وقيام المسلمين بحفر الخندق الذي وقف سدا منيعا ضد الأحزاب في اختراق المدينة.

لم يكتف حيى بن اخطب زعيم بنى النضير بتحريك الأحزاب، وإنما نجح أيضا في استمالة كعب بن أسد القرظي زعيم بنى قريظة الذي نقض العهد بينه وبين المسلمين في أحلك اللحظات، بحيث صار المسلمون بين عدوين" العدو الأول الأحزاب من أمامهم وبنو قريظة الخائنين للعهود من خلفهم وهو موقف صعب وخطير تعرض له المسلمون ووصفه القرآن الكريم بقوله ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

(١) الأحزاب آيات ١٠-١٣ .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الخندق يتعاهدون بأنصاف النهار بإذن النبي ﷺ، فينهاهم ، فإذا الحوا أمرهم أن يأخذوا السلاح خوفا عليهم من بنى قريظة، وكان رجال من أهل العوالي يرغبون في أن يطلعوا على أهلهم فيقول لهم رسول الله ﷺ: انى أخاف عليكم من بنى قريظة... من ذهب منكم فليأخذ سلاحه فأنى لا آمن بنى قريظة هم على طريقكم، وجاء عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال : لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان، لذلك فلم يكن أهل الآطام من ذراري المسلمين ينامون إلا عقب مناوبة خوفا من بنى قريظة أن يغيروا عليهم، وكذا الأمر بالنسبة إلى أهل الخندق من المسلمين لم يكونوا ينامون بالليل إلا قليلا أو كما قال خوات بن جبير: فكان ليلنا بالخندق نهارا [1].

في هذه اللحظات الحرجة قيّض الله للإسلام مسلما وهو نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي الذي استطاع بتوفيق من الله أن يخذل بين الأحزاب وبين اليهود، ودبت الفرقة والشقاق بينهم، ثم رحل الأحزاب عن أرض المعركة، وعادوا إلى مواطنهم يجرون أذيال الخيبة والعار والهزيمة والانكسار.

أطمأن المسلمون إلى انصراف الأحزاب من أرض المعركة، وفى اليوم التالي أمر النبي ﷺ المسلمين بالتوجه بسلاحهم لمعاقبة بنى قريظة على خيانتهم، وضرب المسلمون الحصار على بنى قريظة الذي استمر خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار والقى الله في قلوبهم الرعب ومن ثم استسلموا ونزلوا على حكم سعد بن معاذ يقول ابن إسحاق : "قال سعد : أحكم فيهم أن تفتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء فقال رسول الله ﷺ: قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة -

---

(١) د. محمد بن فارس: النبي ويهود المدينة ص٢٢١ .

الأرقعة : السماوات واحدها رقيع" [1].

واختلفت المصادر في عدد من قتل من بنى قريظة فقال موسى بن عقبة : زعموا أنهم كانوا ستمائة مقاتل، وعند ابن إسحاق : ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول بين الثمانمائة والتسعمائة أما الرواية الأخيرة فهي رواية الزهري عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ غدا إلى بنى قريظة فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فقضى بان يقتل رجالهم وتقسم ذراريهم وأموالهم فقتل منهم يومئذ أربعون رجلا إلا عمرو بن سعد فقال رسول الله ﷺ: انه كان يأمر بالوفاء وينهى عن الغدر فلذلك نجا [2].

لقد استحق بنو قريظة القتل والسبي جزاء خيانتهم، وتعاونهم مع العدو في أصعب اللحظات التي كان يواجهها المسلمون، ومن ثم نالوا جزاء غدرهم وخيانتهم .

**المنافقون وغزوة بنى المصطلق :**

بنو المصطلق بطن من بطون خزاعة، أما مساكنهم فكانت قديد وعسفان في منطقة متوسطة لديار خزاعة المنتشرة على الطريق بين المدينة ومكة، وهذا الموقع له أهمية كبيرة في الصراع بين المسلمين وقريش على طريق القوافل التجارية .

وأما سبب غزوهم فقد جاءت الأخبار للنبي ﷺ بأن زعيم بني المصطلق الحارث بن أبى ضرار أخذ في تأليب القبائل وجمع السلاح للقيام بهجوم على المدينة، وحين تأكد النبي ﷺ من صحة الخبر امر المسلمين بالتجهيز وخرج بهم في شهر شعبان سنة خمس من الهجرة على رأس سبعمائة مقاتل وثلاثين فرسا متوجهين إلى مضارب بنى

---

(١) الاكتفاء ج٢ ص١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص٢٤٤ .

المصطلق وقد خرج في هذه الغزوة جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها، وقد أشار البخاري ومسلم أن جيش المسلمين أغار على بني المصطلق وهم غافلون وأنعامهم تسقى على الماء فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم [1].

بينما يرى ابن إسحاق أنه قد حدثت معركة بين الفريقين ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ونقل رسوله أبناءهم ونساءهم وأموالهم، وكان شعار المسلمين في ذلك اليوم : يا منصور أمت أمت [2].

لقد حقق المسلمون النصر وهربت فلول المنهزمين التي نجت من المعركة، وغنم المسلمون أموالهم إلا أن المنافقين الذين خرجوا في جيش المسلمين لعبوا دورا خطيرا في محاولة إثارة الفتنة والبلبلة في صفوف المسلمين وقد سجل لهم التاريخ موقفين في هذه الغزوة :

**الموقف الأول :**

محاولة إثارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار.

**الموقف الثاني :**

السعي لإيذاء الرسول ﷺ بالطعن في عرضه حين افتروا على السيدة عائشة رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ بحديث الإفك . [3]

**أما عن الموقف الأول :** وهو محاولة إثارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار فقد أشار ابن اسحق إليه بقوله : "فبينا الناس على ذلك الماء - أي المسلمون بعد فراغهم من قتال بنى المصطلق وأقامتهم

---

(١) فتح الباري ج١٠ ص٢٦٤ .

(٢) الاكتفا. ج٢ ص٢١٦ .

(٣) السيرة النبوية ص٤٣٤ .

على ماء هناك يسمى المريسيع - وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين فغضب عبد الله بن أبى بن سلول قال: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش هؤلاء - يقصد المسلمين - إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم اقبل على من حضره من قومه وفيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم اموالكم، اما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم " (١).

هكذا كشف المنافق عبد الله بن أبى عن خبيئة نفسه وسوء طويته ونفاقه، وقد بلغت هذه المقالة سيدنا رسول الله ﷺ وعنده عمر بن الخطاب الذي طلب من النبي قتله جزاء نفاقه فرفض النبي ﷺ ذلك وقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا ولكن اذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها .

أراد النبي ﷺ برحيل المسلمين أن يشغلهم بالطريق ومشقته عن الحديث فيما قاله عبد الله بن أبى، لذا سار المسلمون النهار والليل حتى شق على المسلمين ذلك وما أن أذن لهم بالراحة حتى ارتموا على الأرض نياما، وفى الطريق جرى حوار بين سيدنا رسول الله ﷺ وأسيد بن حضير أحد زعماء الأنصار يصوره ابن إسحاق بقوله" فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله والله لرحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها فقال له رسول الله

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٢١٦ .

ﷺ: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبى. قال: وما قال؟ قال: زعم انه إن رجع إلى المدينة اخرج الأعز منها الأذل. قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال: يا رسول الله لا عليك أرفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أن قد استلبته ملكا "[1].

وحين علم المنافق عبد الله بن أبى بمعرفة النبي ﷺ بما قال جاء منكرا ما قال ومتبرأ منه، وفى نفس الوقت وجدنا ابن المنافق وهو عبد الله وكان من خيرة الصحابة حين سمع بما حدث وأن بعض الصحابة اشارت على النبي ﷺ بقتله وجدناه يأتي مسرعا إلى النبي قائلا له: يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشى في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا "[2].

وهكذا كان حلم رسول الله وحكمته وبره بالمسلمين حتى ولو كان منافقا، وفى نفس الوقت وجدنا عبد الله بن عبد الله بن أُبى يتبرأ مما قاله والده ويقف على باب المدينة عند عودة جيش المسلمين واستل سيفه فلما جاء والده عبد الله بن أُبى قال له : والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء الرسول ﷺ أذن له فخلى سبيله "[3].

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٢١٨ .
(٢) المصدر السابق ج٢ ص٢١٨ .
(٣) مختصر ابن هشام ج٢ ص٢٩٠ .

لقد وردت هذه الحادثة في سورة المنافقين وفيها قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

**والموقف الثاني** : وهو حديث الإفك : تلك الحادثة التي حاول فيها المنافقون الإساءة إلى سمعة رسول الله ﷺ وزوجته السيدة عائشة رضي الله عنها ، وذلك في إطار خطة محاربة المسلمين بكل سلاح حتى لو كان سلاح الكذب والافتراء والادعاء الباطل، وتتلخص الحادثة في أن السيدة عائشة رضي الله عنها خرجت مع رسول الله ﷺ في غزو بنى المصطلق وبعد أن فرغ المسلمون من هذه الغزوة، وفى طريق العودة نزل المسلمون في الطريق لبعض الراحة، وذهبت السيدة عائشة لبعض شأنها وحين عادت إلى المعسكر افتقدت عقدا لها، فلما ذهبت للبحث عنه ووجدته، وحين عودتها كان المسلمون قد رحلوا ووجدت هودجها الذي تركبه قد حمله الرجال ظنا منهم أنها بداخله لأنها كانت حينئذ خفيفة الوزن.

فانتظرت في مكانها، وكان صفوان بن المعطل السلمي يسير في مؤخرة الجيش فلما رآها عرفها لأنه كان يراها قبل أن يفرض الحجاب، فعرف أنها زوجة رسول الله ﷺ فاركبها على بعيره وعاد بها إلى المدينة وكان الجيش الإسلامي قد سبقه في الدخول إليها.

لقد استغل المنافقون هذا الموقف ونسجوا حوله قصة الإفك وتولى كبر ذلك عبد الله بن أبى بن سلول وخاض في ذلك مسطح بن أثاثه وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت.

انتشرت هذه الإشاعة المغرضة، وبلغت الرسول ﷺ الذي استاء من ذلك أشد الاستياء ولم يخبر زوجة السيدة عائشة بما يقوله الناس، إلا أن

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

السيدة عائشة شعرت ببعض التغيّر في معاملة النبي ﷺ لها وهى لم تعهد منه إلا كل لين ولطف .

لقد علمت السيدة عائشة بعد ذهابها إلى بيت أبيها لمرضها بما يروّجه بعض الناس من أم مسطح فازداد مرضها، واخذ رسول الله ﷺ يستشير بعض أصحابه في الأمر وفى فراق أهله فمنهم من يقول: يا رسول الله هم اهلك ولا نعلم إلا خيرا ومنهم من يقول: لم يضيق الله عليك ، النساء كثير واسأل الجارية - يعنى بريرة - تصدقك فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها: هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ فأخبرته أنها لم تعلم عنها إلا الخير فقام عليه الصلاة والسلام على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في آهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، فقام سعد بن معاذ: فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وان كان من الخزرج إمرتنا ففعلنا أمرك، وهنا علت الأصوات واحتك الناس ببعضهم فأمرهم الرسول بالسكوت فسكتوا.

استمرت هذه المحنه شهرا، وبعد أن علمت السيدة عائشة بهذه الكارثة ازداد حزنها ومرضها لأنها تعلم أنها بريئة من كل هذه الإشاعات، ومما زاد في مرضها وآلامها النفسية لما تسمعه من كلام كاذب وزور وبهتان وملفق، وقد زارها النبي ﷺ في بيت والديها وسألها وطلب منها آن تستغفر إن كانت ارتكبت إثما فما زادها ذلك إلا ألما وحزنا وقالت : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وفى نفس المجلس وقبل أن يغادره النبي ﷺ أتاه الوحي واخبره ببراءة السيدة عائشة الطاهرة رضي الله عنها ونزل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ

﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1]، وتوالت الآيات لتشهد ببراءة السيدة عائشة وإفك وبهتان قول من قال بهذا، لذلك امر رسول الله ﷺ بإقامة الحد على مسطح بن أثاثه وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، وكان هؤلاء ممن أفصح بالفاحشة، كما سجل القرآن الكريم ذلك الموقف الرائع لأولئك النفر من المؤمنين الذين وقفوا من هذا الإفك موقف المؤمن اليقظ والواثق ثقة كبيرة بآل البيت الذين طهروا من الدنس والأرجاس منهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب فقد نزل في هؤلاء قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [2].

وهكذا وبعد شهر انقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة وافتضح راس المنافقين افتضاحا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك يقول ابن إسحاق : " وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه فقال رسول الله ﷺ لعمر: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له ألف انف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري ".

## يهود خيبر ( سنة ٧ هجرية ) :

تقع حصون خيبر على بعد مائتين وخمسين ميلا شمالي المدينة، وفيها عدد من الوديان فضلا عن الينابيع التي وفرت المياه والتي استخدمها اليهود في الزراعة وخاصة النخيل والشعير، وقد ضمت خيبر مجموعة من الحصون منها: الكتيبة والوطيح وسلالم وشق والغموص وناعم.

لقد كانت خيبر وكرا للدسائس والمؤامرات ومركزا للاستفزازات

---

(١) سورة النور آية ١١ .

(٢) السيرة النبوية ص ٤٣٨ ، النور آية ١٦ .

العسكرية، وكانت ملجأ ليهود بنى النضير، كما شارك يهود خيبر في تحريض الأحزاب والاتصال سرا بالمنافقين فضلا عن تحريض القبائل ضد المسلمين، لهذه الأسباب مجتمعة كان من الضروري أن يتحرك المسلمون للقضاء على هذا الخطر الداهم .

لم يمكث النبي ﷺ طويلا بالمدينة بعد رجوعه من صلح الحديبية حتى أمر أصحابه بالتجهز للقتال، وخرج من المدينة في المحرم من السنة السابعة من الهجرة في ألف وأربعمائة من المسلمين .

وفى مجال التعاون بين المنافقين واليهود، وجدنا رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول يرسل إلى يهود خيبر يخبرهم بتجهيز المسلمين لغزوهم، ويحذرهم من ذلك وفى نفس الوقت طمأن اليهود بان عدد المسلمين وعتادهم قليل وانهم أي اليهود ذو عدد وعدة، وحين علم يهود خيبر بذلك أرسلوا إلى قبائل غطفان يطلبون النصرة والتأييد في مقابل أن يدفعوا نصف ثمار خيبر أن هم غلبوا المسلمين[1] .

استعدت غطفان لنصرة اليهود وخرجوا في عدة وسلاح إلا أنهم انصرفوا من بعض الطريق لأنهم سمعوا من خلفهم حسا ولغطا فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا وبذلك فشل التعاون بين قبائل غطفان ويهود خيبر، كما حاول أهل فدك نصرة يهود خيبر إلا أن الرسول ﷺ أرسل سرية بقيادة علي بن أبى طالب أغارت على فدك وشتت شملهم وعادت بالمغانم والأموال .

تحرك المسلمون وباغتوا يهود خيبر الذين أسرعوا واحتموا بحصونهم وقلاعهم وكان أول حصن استولى عليه المسلمون هو حصن ناعم بعد قتال شديد وقتل فيه عدد من زعماء هذا الحصن وفى مقدمتهم

---

(١) الرحيق ص٤١٠ .

مرحب احد أبطال اليهود قتله الإمام علي بن أبى طالب ثم توالت الحصون تتهاوى بعد ذلك وذلك بعد قتال مرير بين الطرفين، ثم أرسل ابن أبي الحقيق أحد زعماء اليهود طالبا التفاوض مع رسول الله ﷺ، وتم التصالح على حقن دماء المقاتلين في حصونهم وترك الذرية لهم على أن يخرجوا جميعا من خيبر ويتركوا للمسلمين ما كان لهم من مال وأرض والذهب والفضة والسلاح، وحين هموا بالخروج قالوا للرسول: يا محمد دعنا تكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها فنحن اعلم بها منكم ولم يكن لرسول الله ﷺ غلمان يقومون عليها فأعطاهم خيبر على أن الشطر من كل زرع ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم [1].

لقد قتل في المعارك التي دارت بين المسلمين ويهود خيبر ثلاثة وتسعون يهوديا وسبيت الذراري والنساء منهن صفية بنت حيى بن أخطب التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية بن خليفة الكلبي حيث وقعت في سهمه فاعتقها وتزوجها النبي ﷺ كما استشهد من المسلمين عشرون رجلا فيما ذكر ابن إسحاق وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي .

لقد حاول اليهود اغتيال النبي ﷺ عن طريق السم وذلك بالرغم من المصالحة والشروط الطيبة التي وافق عليها النبي ﷺ يقول ابن إسحاق : فلما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امراة سلام به مشكم شاة مشوية، وكانت قد سألت أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر به البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال : إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت، فقال : ما حملك

---

(١) زاد المعاد ج٢ ص١٣٦ .

على هذا ؟ قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيخبر ومات بشر من أكلته أو لا ، فلما مات بشر قتلها قصاصا [1].

لقد ترتب على فتح حصون خيبر عدة نتائج مهمة ويأتي في مقدمتها تلك الأموال والمغانم إلى حصل عليها المسلمون نتيجة استيلائهم على حصونهم مما دفع ابن عمر إلى القول: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر وما روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الآن نشبع من التمر، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل [2].

ومن نتائج فتح خيبر أن أسرع يهود فدك بمخاطبة الرسول الله ﷺ والتصالح على النصف من فدك بمثل ما صالح عليه أهل خيبر فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب [3].

كذلك قاوم يهود وادي القرى في محاولة منهم للتصدي للمسلمين وحين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام أبوا، ومن ثم قتل عددا من أشرافهم خرجوا للمبارزة فكان مصيرهم القتل على أيدي المسلمين ومن ثم استسلموا وغنم المسلمون أموالهم ومتاعهم، وقد عاملهم الرسول ﷺ كما عامل أهل خيبر .

وآخر تجمع لليهود كان في تيماء الذين أرسلوا للنبي ﷺ يعرضون عليه الصلح بعد أن بلغهم ما نزل بأهل خيبر وفدك وواى القرى فقبل ذلك منهم واقاموا بأموالهم على أن يدفعوا الجزية .

---

(١) المصدر السابق ج٢ص١٣٩ .

(٢) زاد المعاد ج٢ ص١٤٨ .

(٣) ابن هشام ج٢ ص٣٣٧ .

**المنافقون وغزوة تبوك :**

ترامت الأنباء إلى النبي ﷺ في المدينة باستعدادات الروم والقبائل الموالية لها في الهجوم على المدينة والقضاء على الدعوة الإسلامية، ومن ثم قرر النبي ﷺ التجهيز لقتالهم وكان ذلك في رجب سنة ٩ هجرية ولا يتسع المجال هنا للحديث عن هذه الغزوة فسوف نتناولها بأذن الله عند حديثنا عن علاقة المسلمين بالروم، ولكن يهمنا هنا التعرض لموقف المنافقين المتخاذل .

لقد سارع المسلمون بالتجهيز والتبرع بالمال للأنفاق على هذه الغزوة التي كانت في وقت الصيف والحر شديد والمسلمون ينتظرون جنى ثمار مزارعهم إلا أن صدق الإيمان وقوة اليقين دفعتهم لترك كل ذلك والتجهز بكل ما يملكون للمعركة القادمة، وفى نفس الوقت كان المنافقون يدبرون الدسائس ويحيكون المؤامرات ويستهزئون بالمسلمين، وبينما كان المسلمون يتجهزون ويستعدون للمعركة القادمة، اقبل جماعة من المنافقين يطلبون منه أن يصلى في مسجد بنوه وقالوا للرسول : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتيه وأنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه [1].

إلا أن الرسول ﷺ اعتذر عن ذلك لانشغاله بتجهيز الجيش، فلما فرغ النبي ﷺ من غزوته وعاد أدرك أن مسجد الضرار هذا إنما بناه المنافقون ليكون وكرا للدسائس والمؤامرات ولتفريق كلمة المسلمين ومن ثم أمر بإحراقه وهدمه وقد نفذ المسلمون ما أمر به الرسول ﷺ .

لقد افتضح موقف المنافقين بشكل واضح في هذه الغزوة، وكانت تصرفاتهم قبيل الغزوة وفى أثنائها دليلا قويا على خبث طويتهم وسوء نياتهم فهذا احدهم وهو الجد بن قيس احد بنى سلمة يقول له الرسول ﷺ

---

(١) الاكتفاء، ج٢ ص٣٨٩ .

خلال التجهيز للخروج إلى تبوك: يا جد هل لك العام في جلاد بنى الأصفر؟ فقال : يا رسول الله او تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي انه ما من رجل اشد عجبا بالنساء مني، واني اخشى أن رايت نساء بنى الأصفر أن لا اصبر، فاعرض عنه رسول الله ﷺ وقال:قد اذنت لك ففيه نزلت :﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1].

وشرع فريق من المنافقين في تثبيط همم المقاتلين من المسلمين وبث التكاسل والوهن في نفوسهم قائلين: لا تنفروا في الحر زهادة في الجهاد وشكا في الحق وإرجافا بالرسول فانزل الله فيهم ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2].

واخذ بعضهم يشيرون إلى رسول الله وجند المسلمين وهم متوجهون إلى القتال ويقول بعضهم لبعض : اتحسبون إن جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأننا بكم غدا مقرنين في الحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين .

بل وبلغت جراتهم وعداوتهم أنهم كانوا يجتمعون في احد بيوت اليهود للتخطيط والتدبير وإفساد أمر المسلمين يقول ابن إسحاق : وبلغ رسول الله ﷺ إن أناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عنه في غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في

---

(١) سورة التوبة آية ٤٩ .

(٢) سورة التوبة ٨١-٨٢ .

نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم البيت ففعلوا [1].

وعندما تحرك جيش المسلمين من المدينة قاصدين تبوك، وجدنا عبد الله بن أبي كبير المنافقين ينسحب بجماعته ومكررا ما فعله من قبل في غزوة أحد، رغبة منه في ضعضعة عزيمة المسلمين وبث الوهن والتخاذل في صفوفهم يقول ابن إسحاق : فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أبى معه على حدة عسكره أسفل منه نحو ذباب -جبل بالجبانة أسفل ثنية الوداع - وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكريين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب [2].

وخلال مسير الجيش الإسلامي متوجها إلى أرض المعركة لم يستطع احد المنافقين وهو زيد بن اللصيت القينقاعي وكان يسير مع الجيش كتمان نفاقه بل ظهرت في فلتات لسانه وأقواله ما يخفيه في صدره من النفاق، إذ ما أن علم بأن ناقة الرسول ضلت الطريق وأن الرسول بعث نفرا للبحث عنها حتى قال: أليس محمد يزعم أنه نبي و يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟! فقال رسول الله ﷺ: إن رجل قال : هذا محمد يخبركم انه نبي ويزعم انه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته!! وانى والله لا اعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهى في الوادي من شعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوني بها فذهبوا فجاءوا بها [3] ، وهكذا انكشف الزيف والخداع في كلام هذا المنافق، وقد زعم بعض الناس أن زيدا تاب بعد ذلك، وقال بعض: لم يزل متهما بشر حتى مات .

وحين عودة الجيش الإسلامي مظفرا منتصرا من تبوك، وخلال

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٣٧٧ .

(٢) المصدر السابق ج٢ص٣٧٩ .

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ٣٨٢ .

الطريق حاول بعض المنافقين اغتيال الرسول ﷺ، فحين أخذ المسلمون الطريق ببطن الوادي، انتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة، فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه عمار يقود بزمام ناقته وحذيفة بن اليمان يسوقها إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه وهم ملتثمون فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه فأرعبهم الله فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم واخبر رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم وبما هّموا به فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [التوبة : ٧٤] [١].

وهكذا تعددت صور النفاق في هذه الغزوة من تثبيط لهمم المسلمين وتخويفهم من بأس الروم وكثرتهم ، وآخرون يدعون كذبا ضعفهم النفسي حين يرون نساء الروم، وآخرون ينسحبون قبل تحركهم من المدينة وأخيرا محاولة بعضهم اغتيال الرسول ﷺ ، والواقع أن المسلمين لا يؤتون في معظم ما يصيبهم من نكبات إلا من قبل المنافقين ، فلا يتسنى لعدوهم أن يتسلل إليهم إلا من خلال ثغرات النفاق والمنافقين ولا ينخدع المسلمون بعدو لهم كما ينخدعون للمنافقين منهم ولا يصابون بعدوى الضعف كما يصابون به من قبل المنافقين وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [٢].

---

(١) الرحيق ص٤٩ .

(٢) التوبة آية ٤٧ .

## ثالثا : موقف الرسول من الملوك والأمراء وخاصة الروم

مما لا شك فيه أن دعوة الإسلام دعوة عالمية بمعنى أن الرسول ﷺ بعث إلى الناس كافة ليخرجهم من ضلالات الشرك وظلمة الجهل وعبادة الأوثان إلى نور الحق واليقين وعبادة الله وحده فهو مالك كل شيء ،رب السماوات والأرض لا اله غيره، وهناك الآيات الكثيرة التي تشير إلى هذه الحقائق منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ . [2]

وهذا يعني أن الدعوة التي بعث بها رسول الله ﷺ إنما بعث بها إلى الناس كافة، لا إلى قوم بأعيانهم، وان رسالته هي إنسانية شاملة ليس لها طابع عنصرية أو قومية أو جماعة معينة، لذلك اتجه ﷺ بدعوته يبلغها إلى كل حكام الأرض وملوكها، روى عن انس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى.

قال ابن هشام : " وقد كان رسول الله ﷺ بعث إلى الملوك رسلا من أصحابه وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام " ، وقال ابن هشام أيضا: بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية فقال: أيها الناس: إن الله قد بعثني رحمة وكافة فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريين على عيسى بن مريم فقال أصحابه، وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد

---

(١) سورة الفرقان آية ١ .

(٢) سورة سبأ آية ٢٨ .

منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها [1].

وقد أشار الصحابة على رسول الله ﷺ اتخاذ خاتم حتى تأخذ هذه الرسائل طابع الأهمية فنقش خاتما من فضة كتب عليه محمد رسول الله .

ونحن إذا نظرنا إلى الأوضاع السياسية في تلك الفترة لوجدنا إن الفرس كانوا يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، وكان البيزنطيون يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم ومن العبث إرجاع هذا الانتشار للحرية العقلية المحضة، وعلى أية حال فان المجوسية سادت الأقاليم التابعة للفرس والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للبيزنطيين وكان أمراء هذه الأقاليم يعينون من قبل الدول الحاكمة وينصاعون لأوامرها [2].

لقد بعث رسول الله ﷺ رسلا من أصحابه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان وبعث سليط بن عمرو احد بني عامر بن لؤي إلى ثمامة بن آثال وهوذة ابن علي الحنفيين ملكي اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين، وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبى شمر الغساني ملك تخوم الشام .

لقد تفاوتت ردود هؤلاء الأمراء والملوك على رسائل النبي ﷺ فمنهم من رد ردا جميلا كالمقوقس حاكم مصر، ومنهم من مزق كتاب

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٦٥ .

(٢) فقه السيرة ص ٣٧٦ .

النبي ﷺ ككسرى ملك الفرس، لذا دعا عليه النبي ﷺ بتمزيق ملكه، ومنهم من تجهز لقتال المسلمين كالحارث بن أبى شمر أمير الغساسنة وهكذا، والمجال لا يتسع لإيراد كل رسائل النبي ﷺ ولكننا نكتفي ببعض النماذج ونشير إلى موقف من أرسل أليهم منها ونبدأ بكسرى ملك الفرس.

كتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس قائلا له: من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وامن بالله ورسوله، وشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وادعوك بدعاية الله، فاني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فاسلم تسلم، فان أبيت فان إثم المجوس عليك فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه وبلغ النبي ﷺ ما فعله فدعا عليه: مزق الله ملكه وقد كان كما دعا النبي ﷺ.

لم يكتف كسرى بتمزيق كتاب رسول الله، بل أرسل إلى عامله على اليمن يأمره باحضار الرسول من المدينة إلى المدائن ليحاكمه على ذلك، واستجاب باذان لأوامر كسرى وأرسل رجلين إلى المدينة لتنفيذ أوامر كسرى، فلما التقى الرجلان بالرسول ﷺ وأبلغاه بأوامر كسرى وطلب منهما النبي ﷺ الالتقاء به في الغد، وفى اليوم التالي أخبرهما النبي ﷺ بمقتل كسرى على يد ابنه شيرويه، فلما عاد الرجلان إلى اليمن وأخبرا باذان الذي تحقق من صدق رسول الله ﷺ وكان ذلك سببا في إسلامه وإسلام من معه.

وإذا كان كسرى قد اتخذ موقفا معاديا من دعوة الإسلام، فإن المقوقس حاكم مصر من قبل الدولة البيزنطية قد رد ردا جميلا فهو لم يؤمن وفى نفس الوقت لم يتهجم على دعوة الإسلام، بل أهدى إلى النبي ﷺ جارتين إحداهما مارية التي تسرى بها النبي ﷺ وانجبت له إبراهيم، كما أرسل المقوقس هدايا أخرى.

وأما عن علاقة المسلمين بالروم فقد بدأت برسالة النبي ﷺ والتي جاء

فيها : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فاني ادعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم،واسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك إثم الأريسيين - أي الفلاحين - ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[1].

وحين استلم قيصر الرسالة وكان في بيت المقدس وعلم بما فيها طلب مقابلة بعض العرب ممن يعرفون النبي ﷺ، وتصادف وجود أبي سفيان ومعه نفر من قريش في تجارة لهم هناك ومن ثم أحضروهم لمقابلة قيصر الذي طرح عليه أسئلة عن طريق ترجمانه ومما قاله : كيف نسبه فيكم ، فقلت - أي أبو سفيان - هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا، وقال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيودن، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا. قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها قال : ولم تمكنني كلمة ادخل فيها شيئا غير هذه الكلمة — قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال - أي قيصر- للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت انه

---

(١) آل عمران آية ٦٤ .

فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا ، قلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه ملك فذكرت إن لا ، فقلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فلما فرغ من قراءة الكتاب، ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللفظ وأمر بنا فأخرجنا " [1].

وهكذا تفهم قيصر الروم رسالة النبي ﷺ بل وقال لدحية الكلبي رسول النبي ﷺ : إني لأعلم إن صاحبك نبي والذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ولكني أخاف على نفسي ولولا ذلك لاتبعته " إذن خوفه على نفسه وملكه منعاه من الدخول في الإسلام وقد أرسل هدية من المال والكسوة لرسول الله ﷺ .

---

(١) الرحيق ص ٣٠٠ .

وإذا كان قيصر الروم قد رد ردا جميلا ولم يسلم، فإن تابعا له وهو الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق أعلنها حربا على الإسلام والمسلمين، إذ حين وصلته رسالة الرسول ﷺ والتي قال فيها : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر: سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق وأنى ادعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك فكان جوابه: من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه ولم يسلم [1].

وهذا يعني إعلان الحرب من جهة الشمال على دول الإسلام، يضاف إلى ذلك اعتداءات بعض القبائل المقيمة في المنطقة الشمالية كقبيلة كلب من قضاعة المقيمة بدومة الجندل والتي دأبت على مضايقة تجار المسلمين مما اضطر معه النبي ﷺ إلى غزوهم في السنة الخامسة من الهجرة، كما أن رجالا من جذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند عودته من لقاء قيصر الروم بالشام واستلبوا ما معه كذلك قتل أحد زعماء الغساسنة ويدعى شرحيل بن عمر والغساني مبعوث النبي ﷺ الحارث بن عمير المبعوث إلى عظيم بصرى [2].

هذه الاعتداءات المتكررة والموقف العدواني، دفعت النبي ﷺ إلى القيام بعمليتين عسكرتين هما : سرية مؤتة وغزوة تبوك .

**سرية مؤتة : ( سنة ٨ هجرية )**

كانت هذه السرية حملة تأديبية لعرب الشام الذين اخذوا على عاتقهم مهاجمة قوافل المسلمين والتحرش بهم فضلا عن الجرم الكبير الذي ارتكبه احد زعماء الغساسنة ويدعى شرحبيل بن عمرو الغساني حين قتل مبعوث النبي ﷺ إلى عظيم بصرى، فكان لابد للمسلمين من التصدي لهذا

---

(١) زاد المعاد ج٣ ص٦٣ .

(٢) المسلمون والروم ص ٨٧ .

العدوان السافر، وحتى لا تتجرأ القبائل الشمالية على التعرض للمسلمين.

خرجت هذه الحملة في جمادى الأولى من سنة ثمان من الهجرة، وقد تولى القيادة في هذه الحملة ثلاثة من كبار الصحابة هم على الترتيب : زيد بن حارثة فان أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن اصيب فعبد الله بن رواحة .

بعد أن تجهز الجيش وبدأ في التحرك أوصاهم النبي ﷺ قائلا : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا أو قال : اغزوا بسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلو ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فأدعهن إلى أحدى ثلاث فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام فان فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فان فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، وأن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فاخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فان أبوا فادعهم إلى أعطاء الجزية فان فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ... [1]

تحرك الجيش متجها صوب الشمال حتى نزل معان، وهناك تواترت الأخبار بان هرقل قيصر الروم نازل بمآب من أرض البلقاء في جند تعداده مائة ألف يضاف أليهم مائة ألف أخرى من قبائل لخم وجذام وغيرهم .

وهنا كان لابد من القادة المسلمين وأفراد الجيش الإسلامي من التشاور إزاء هذا التطور الجديد الذي لم يكن في الحسبان فهم في ثلاثة

---

(١) المغازي ح ٢ ص ٧٥٧ .

آلاف فقط وعدوهم الآن في مائتي ألف مقاتل في كامل العدد والعتاد .

أشار بعض المسلمين بضرورة مراسلة النبي ﷺ حتى يمدهم بالإمدادات أو يرى رأيه، إلا أن صوت عبد الله بن رواحة كان مدويا في جموع المسلمين إذ قال لهم: يا قوم والله أن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون، الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم ألا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي أحدى الحسنيين أما ظهور وأما شهادة، فقال الناس: صدق والله ابن رواحة فمضى الناس[1] .

كان لقاء المسلمين بالعدو عند قرية مؤتة، ودارت معركة حامية الوطيس اظهر فيها المسلمون شجاعة نادرة واستشهد فيها القادة الثلاثة : زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة .

ثم تولى القيادة خالد بن الوليد الذي نجح في الصمود أمام جيش البيزنطيين طوال النهار في أول يوم من القتال، وقد أدرك خالد بعبقريته العسكرية انه في أمس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب في قلوب البيزنطيين حتى يمكنه من الخروج من أرض المعركة دون مطاردة الروم له، وقد اهتدى بفكرة إلى تغيير أوضاع الجيش وعبأه من جديد فجعل مقدمته ساقة وميمنته ميسرة وعلى العكس فلما رآهم العدو وشاهدوا وجوها مختلفة اعتقدوا بوصول إمدادات إليهم، ودارت عدة مناوشات وفى خلالها كان خالد ينسحب بجيش المسلمين، وامتنع الروم عند مطاردتهم ظنا منهم بأنها مكيدة من خالد للإيقاع بجيش الروم، وخرج خالد بجيش المسلمين سالما من أرض المعركة وعاد أدراجه إلى المدينة .

والدلالة التي تعلو على الريب في هذه المعركة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغت حدا لم تعرفه امة معاصرة، وقد اكسبهم هذا الروح العالي إقداما حقّر أمامهم كبرياء الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرا

---

(١) الاكتفا، ج٢ ص٢٧٧ .

تصول وتجول لا يوقفها شيء .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال فأصبحت الأمة كلها امة كفاح عال عزيز، وحسبك أن جيش مؤتة لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله؟ إن أولئك الصغار الإعزاز يرون انسحاب خالد ومن معه فرارا يقابل بحثو التراب، أي جيل قوى نابه هذا الجيل الذي صنعه الأيمان بالحق؟ أي نجاح بلغته رسالة الإسلام في صياغة أولئك الأطفال العظام ؟ من آباؤهم ؟ من أمهاتهم ؟ كيف كان الأباء يربون ؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟ إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس...[1].

## غزوة تبوك : ( سنة ٩ هجرية )

في شهر رجب من العام التاسع من الهجرة وبعد عودته ﷺ من حصار الطائف بستة اشهر أمر الرسول ﷺ بالتجهيز لمحاربة الروم في الشمال متبعا في ذلك أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم على الأعداء، وكانت الأنباء قد ترامت إليه من مصادر متعددة أن الروم وحلفاؤهم من القبائل العربية يتجهزون لغزو شبة الجزيرة قاصدين معقل الإسلام أي المدينة المنورة يقول الواقدي : كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم ، لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط فقدمت قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معهم لخم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص [2] وقد أيد البلاذري ما ذكره

(١) فقه السيرة ص ٣٩١ .

(٢) المغازي ج٣ ص٩٩٠ .

الواقدى حين قال : إن هرقل ومن اجتمع إليه من لخم وجذام وعاملة وغيرهم اظهروا انهم يريدون غزو رسول الله ﷺ [1].

وفى رواية لليعقوبي ان السبب في غزوة تبوك هو الثأر لاستشهاد جعفر بن أبي طالب وبقية المسلمين،ولكن الصحيح أنها استجابة طبيعية لفريضة الجهاد وقد نبه على ذلك الحافظ ابن كثير بقوله: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم لأنهم اقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام واهله وقد قال الله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[2].

هذه الأخبار المتواترة دفعت النبي ﷺ إلى الدعوة للجهاد والإعداد للمعركة المقبلة، وهى معركة تختلف عن المعارك السابقة فالروم قوة لا يستهان بها ولها مهابة خاصة بين المسلمين فقد خرج الروم منتصرين على الفرس وأزاحوهم من الشام ومن آسيا الصغرى ، بل وهددوا عاصمتهم المدائن، كما كانت تجربة مؤتة ماثلة في الأذهان، وفى نفس الوقت كان كثير من المسلمين على إدراك كامل بقوة الروم وشوكتهم وذلك من خلال ما رأوه منهم أثناء رحلاتهم التجارية إلى إقليم الشام في الجاهلية " [3].

ومما زادت صعوبة التجهيز لهذه الحملة أن الزمان صيف مع شدة الحر وانتظار المسلمين جنى ثمار حقولهم يقول ابن إسحاق: ثم أمر- أي النبي ﷺ- بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم

---

(١) أنساب الأشراف ج١ ص٣٦٨ .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ ، "السيرة النبوية الصحيحة" ج ٢ ص ٥٢٢ .

(٣) المسلمون والروم ص ١١٠ .

وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلّ ما يخرج في غزوة إلا ورى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يعمد إليه، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يصمد إليه ليتأهب الناس لذلك أهبته فأمر الناس بالجهاز واخبرهم انه يريد الروم [1].

وقد حاول المنافقون تخذيل المسلمين عن الجهاد، وبث الدعايات المغرضة والتهويل من شأن الروم وأن المسلمين لا قبل لهم بمحاربتهم، وقد سبق أن عالجنا هذا الموضوع عند الحديث عن المنافقين وغزوة تبوك، وهى صفحة سوداء في تاريخ المنافقين، يقابلها صفحة ناصعة البياض في تسابق المسلمين للبذل والعطاء وتقديم ما يملكون من مال وسلاح للغزوة المرتقبة .

فهذا سيدنا عثمان بن عفان ﷺ يجهز تسعمائة بعير ومائة فرس سوى الأموال السائلة، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة أما أبو بكر فقد جاء بماله كله ومقداره أربعة آلاف درهم، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله وتسابق بقية الصحابة رضوان الله عليهم في تقديم المال والسلاح للغزوة المرتقبة وشاركت نساء المسلمين في تقديم حليهن وما يملكونه للنبي ﷺ وبلغ من رغبة المسلمين في المشاركة في الجهاد أن جاء النبي ﷺ سبعة من الأنصار لا يملكون شيئا سائلين النبي ﷺ أن يوفر لهم دوابا يركبونها فاعتذر لهم النبي ﷺ عن ذلك فانصرفوا وهم يبكون، وساهم بعض الصحابة في توفير الدواب لهم .

وتعددت صور فقراء المسلمين حزنا على عدم قدرتهم على الاشتراك في القتال فهذا علبة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى وقال: اللهم انك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ولم تجعل عندي ما اتقوى به

(١) الاكتفاء، ج٢ ص٣٧٦ .

مع رسولك وانى اتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض فاخبره النبي ﷺ انه قد غفر له" [1] وقد خص النبي ﷺ هؤلاء المتخلفين المعذورين ممن حسنت نياتهم واستقامت طويتهم بقوله: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم . قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال بالمدينة حبسهم العذر، وقد حكى كعب بن مالك انه لم يبق بالمدينة إلا المنافقون، وأهل الأعذار من الضعفاء [2].

تحرك الجيش الإسلامي بقيادة النبي ﷺ في ثلاثين ألف مقاتل صوب الشمال وعسكر بتبوك وهى مدينة صغيرة في شمال الحجاز على حدود الشام .

وفى تبوك أعطى النبي ﷺ اللواء الأعظم للصديق ﷺ والراية العظمى للزبير وراية الأوس إلى أسيد بن حضير ولواء الخزرج إلى أبى دجانة ويقال إلى الحباب بن المنذر وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذوا لواء وراية والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية، وكان زيد بن ثابت يحمل راية بنى مالك بن النجار وأبو زيد يحمل لواء بنى عمرو بن عوف ومعاذ بن جبل يحمل راية بنى مسلمة[3] وتبوك في منتصف الطريق تقريبا بين المدينة ودمشق وأقام بها عشرين ليلة دون أن يلقى عدوا إذ أن الروم وحلفاءهم حين سمعوا بمسيرة النبي ﷺ في هذا العدد الكثيف الذي لم تتعوده شبه الجزيرة العربية أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في داخل البلاد داخل حدودهم .

وخلال إقامته ﷺ بمعسكره بتبوك جاءه يوحنا به رؤية صاحب آيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطى الجزية كما جاءه أهل حرباء وأذرع فأعطوه

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ص٥٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج٢ ص٥٣٠ .

(٣) المرجع السابق ج٢ ص٥٣٢ .

الجزية وقد كتب لهم النبي ﷺ كتاب أمان وموادعة، كما بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية عسكرية أحضرت اكيدر امير دومة الجندل فأحضره وصالح النبي ﷺ وأعطى الجزية ثم عاد النبي ﷺ ظافرا منتصرا إلى المدينة .

لقد قوبل جيش العسرة في مرجعه هذا بحفاوة بالغة، إنه أكبر جيش خرج مع رسول الله ﷺ ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفا، ولم ينس النبي ﷺ في ذهابه وإيابه أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والعبرات تملأ عيونهم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم فقالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة. قال: وهم بالمدينة حبسهم العذر بهذه المواساة الرقيقة كرم النبي ﷺ الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم فأصلح بالهم وأزاح هما ثقيلا عن أفندتهم .

أما المنافقون من مؤملي الشر ودعاة الهزيمة والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم فهم يتربصون الدوائر بأهله وقد أخزاهم الله وكشف عن سوء نياتهم وخبث طويتهم [1].

لقد حققت هذه الغزوة أهدافها بتوطيد سلطان الإسلام في الجهات الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وكانت تمهيدا لفتوح بلاد الشام حيث أن الرسول ﷺ كان قد جهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة قبيل وفاته لكن الجيش لم يتحرك نحو أهدافه إلا في خلافة الصديق رضي الله عنه حيث حالت وفاة الرسول ﷺ دون إنفاذه في حياته [2].

---

(١) فقه السيرة ص٤٣٠ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة ج٢ ص٥٣٨ .

# الفصل الخامس

## وفاة الرسول وبعض شمائله

في العام التاسع من الهجرة ، أمر النبي ﷺ بتولية أبى بكر أمرة الحج ، فخرج الصديق أبو بكر في جمع من الصحابة بلغ ثلاثمائة حاج يقول ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوال وذي القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع من الهجرة ، ليقيم للمسلمين حجهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم فخرج أبو بكر ﷺ ومن معه من المسلمين [1] .

وخلال توجه الحجاج المسلمين من المدينة إلى مكة نزلت سورة براءة التي تضمنت بعض الأحكام المتعلقة بالمشركين وغيرهم ومن ثم وجدنا رسول الله ﷺ يرسل الإمام على حاملا هذه الآيات ليعلنها على الناس في موسم الحج يقول ابن إسحاق : لما نزلت براءة على الرسول ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال: لا يؤدى عني إلا رجل من أهل بيتي ، ثم دعا علي بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته ، فخرج علي بن أبى طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر ،

(١) سيرة أبو هشام ج٣ ص ٢٢٩ .

فلما رآه أبو بكر بالطريق قال : أأمير أم مأمور ؟! فقال : بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي رضوان الله عليه فأذّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته واجّل الناس أربعة اشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا احد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو له إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ قال ابن إسحاق فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى [1] .

شهد العام التاسع من الهجرة مجيء كثير من الوفود إلى المدينة حتى سمي هذا العام عام الوفود وذلك لإدراك قبائل العرب أنه لا قبل لهم بقوة المسلمين وأن هذا الدين الجديد هو من عند الله ، وانه لا فائدة من عبادة صنم لا يضر ولا ينفع يقول ابن إسحاق : فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾ [2] ، ومن هذه الوفود : وفد بني تميم وهؤلاء نزلت فيهم

(1) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٠ .

(2) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٣١ ، سورة النصر ١-٣ .

سورة الحجرات ، ووفد بني عامر ووفد سعد بن بكر ووفد عبد القيس وبنو حنيفة وغيرهم .

كما أرسل رسول الله ﷺ بعض أصحابه إلى مناطق متفرقة ، فقد ارسل أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن وأوصاهما قائلا : يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوع ، وقال لمعاذ : إنك ستأتي قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب [1] .

أما معاذ فقد خرج معه النبي ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته فلما فرغ قال : يا معاذ عسى الا تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري فبكى معاذ جزعا لفراق رسول الله ﷺ وفى لفظ : فقال النبي ﷺ : لا تبك يا معاذ للبكاء أوان ، إن البكاء من الشيطان ، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال : إن أولى بي المتقون من كانوا وحيث كانوا ، وبيّن له أنصبة الزكاة ثم سأله النبي ﷺ : كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ فقال : فسنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ . قال : اجتهد راي ولا آلو ، فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم قال : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ " [2] ، كما بعث النبي ﷺ الإمام علي بن أبي

---

(١) البداية د ٥ ص ١١٣ .

(٢) البداية ج ٥ ص ١١٧ .

طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن لنشر الإسلام وجمع الصدقات .

## حجة الوداع :

في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة من الهجرة الموافق أول مارس سنة ٦٣٢م ، خرج النبي ﷺ في حشد كبير من المسلمين لأداء مناسك الحج ، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ وحجة الإسلام وحجة الوداع لأنه ﷺ ودع الناس فيها ولم يحج بعدها ، وحجة البلاغ لأنه عليه الصلاة والسلام بلّغ الناس شرع الله في الحج قولا وعملا، ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه ، فلما بيّن لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه انزل الله سبحانه وتعالى عليه وهو واقف بعرفه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [1] .

وخلال رحلة الحج كان الرسول ﷺ يبين لهم مناسك الحج وشرائعه حتى دخل مكة وطاف بها ثم في يوم عرفة خطب في الناس خطبته المشهورة .

قال ابن إسحاق : ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بينه فحمد الله وأثني عليه ثم قال : " أيها الناس اسمعوا قولي فاني لا أدري

---

(١) السيرة النبوية ص ٦٨٠، سورة المائدة آية ٣ .

لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هزيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليوطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما احل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب مضر (إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبا فبيّن عليه الصلاة والسلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة وأنه الذي بين جمادى و شعبان ) .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن إن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح - غير شديد - فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان - جمع عانية وهى الأسيرة - لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهم بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيّنا ،

كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوا ، تعلمن إن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين أخوة ، فلا يحل لمريء من أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟!

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد ."[1]

هكذا ألقى الرسول ﷺ خطبته الأخيرة في حشد من المسلمين بلغ المائة والثلاثين ألفا ممن حجوا مع رسول الله ﷺ ، حيث بين لهم وأوضح بعض المعالم الأساسية في الإسلام وان الرسالة قد تمت مصداقا لقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [2].

وإذا دققنا النظر في خطبته ﷺ يمكننا أن نستخلص بعض المبادئ الهامة ومنها :

١- حرمة الأموال والدماء والأعراض ، وهذا يعنى الحفاظ على مقومات الحياة الإنسانية بحيث يصبح الفرد آمنا في وطنه فلا اعتداء على المال أو الدماء أو الأعراض وكلها مدار حياة الفرد والمجتمعات .
٢- تحريم الربا وهو نظام مالي يؤدى إلى غرس بذور الشقاق والكراهية

---
(١) مختصر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٣ .
(٢) المائدة آية ٣ .

في نفوس أفراد المجتمع .

٣- إقرار العدل بين الناس ، فالناس أمام الله سواء ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى وما يقدمه الإنسان لأسرته ومجتمعه من خير .

٤- إلغاء الثأر والقتل للانتقام والعدوان ، والبديل له هو القصاص الذي تقوم به الدولة وذلك لإقرار النظام والأمن في ربوع الدولة الإسلامية .

٥- إنه لا معبود إلا الله ، وإن الخضوع والسجود لله وحده لا شريك له وهو جوهر الإسلام وكل الأديان السابقة ، وإنه لا يجوز التلاعب في الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير ، كما كان يتم في الجاهلية لأغراض دنيوية ، وإنما هي الأشهر التي أقرها الله سبحانه وتعالى وجاءت في شريعة الإسلام .

٦- إن الأسرة هي محور المجتمع ، وبصلاحها يصلح المجتمع والعكس صحيح ، لذلك بيّن الرسول ﷺ حقوق كل من الزوجين على الآخر لا شطط ولا عدوان .

٧- أن مصدر التشريع في الإسلام هما : كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وبذلك ألغى الإسلام حقول كل من الزوجين على الآخر لا شطط ولا عدوان . عادات وأعراف الجاهلية التي لا تتفق مع قواعد الشرع الحنيف [1] .

بهذه الخطبة وما تضمنته من أحكام وتعاليم واضحة ، شعر الرسول ﷺ أنه أخرج مسئولية الدعوة وتبليغها من عنقه ، فها هو الإسلام قد انتشر ، وها هي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت ، وها هي أحكام الشريعة قد بلغت ، وها هو الوحي ينزل عليه ﷺ ، يقول الله تعالى مخاطبا كل البشر ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ

---

(١) المنهج الحركي القسم الثالث ص ٢٠٠ .

﴿لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[1] ، ولكنه يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يسألونه فأعقب توصياته هذه لهم بان نادى فيهم قائلا: انكم ستسألون عنى فما انتم قائلون ؟ وارتفعت الأصوات من حوله تعلن : نشهد انك قد بلغت وأديت ونصحت وحينئذ اطمأن الرسول العظيم ﷺ . لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عز وجل ، ولقد اطمأن الحبيب ﷺ إذ ذاك وشعشع الرضى في عينيه ، ونظر بهما إلى الأعلى مشيرا بسبابته إلى السماء ثم إلى الناس يقول : اللهم اشهد ... اللهم اشهد ... اللهم اشهد [2].

## سرية أسامة بن زيد :

ما إن فرغ النبي ﷺ من حجته حتى رجع إلى المدينة في أواخر ذي الحجة من العام العاشر من هجرته ، وفى صفر من العام الحادي عشر من هجرته أمر المسلمين بالتجهز للتحرك صوب الشمال صوب البلقاء وفلسطين وذلك لإرهاب الروم وأحلافها من الإعراب يقول ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من ارض فلسطين فتجهز الناس واو عب مع أسامة المهاجرون الأولون . قال ابن هشام : وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ [3] .

لقد ضم الجيش كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وذلك بقيادة أسامة ابن زيد وهو شاب حدث السن إذ تقول الروايات أنه كان ابن ثماني عشرة سنة أو عشرين سنة ، وهنا وجد المنافقون فرصة في

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

(٢) فقه السيرة النبوية ص ٣٣١ .

(٣)فتح الباري ج ١٦ ص ٢٨٨٧ .

الطعن في قيادة أسامة لهذه السرية وراحوا يروجون الأكاذيب ويعترضون على تولية هذا الحدث قيادة الجيش ، وقد بلغت هذه الأقاويل الرسول ﷺ فقام فيهم متحدثا ومما قاله: أن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليّ بعده [1] .

إلا إن هذه السرية لم يقدر لها التحرك إذ أن الرسول ﷺ مرض بعد تجهز الجيش بيومين ، لذا توقف الجيش عن التحرك وظل معسكرا بالجرف ثم رجع إلى المدينة ، حتى إذا بويع الصديق أبو بكر كأول خليفة للمسلمين ، كان أول عمل قام به هو إنفاذ هذا الجيش إلى الشام تنفيذا لعمل رسول الله ﷺ .

## المرض والوفاة :

نزل المرض بسيدنا رسول الله ﷺ في أواخر شهر صفر من العام الحادي عشر من الهجرة وذلك بعد خروجه إلى البقيع لزيارة موتى المسلمين والدعاء لهم يقول ابن إسحاق : " عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال : يا أبا مويهبة ، أني قد أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع اخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى ثم اقبل على فقال: يا أبا مويهبة أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة ، قال: فقلت بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، قال: لا والله يا أبا

---

(1) مختصر ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥ .

مويهبة لقد اخترت لقاء ربى والجنة ، ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف ، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه " [1] .

وكانت بداية المرض صداع شديد في رأسه فقد روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها انه ﷺ لما رجع من البقيع استقبلته وهى تقول : وارأساه فقال لها ﷺ بل أنا والله يا عائشة وارأساه ثم ثقل عليه الوجع فكان حمى شديدة تنتابه وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها ترقيه ﷺ خلال ذلك بمعوذات من القرآن حتى إذا اشتد عليه المرض وكان ذلك في بيت ميمونة استأذن نساءه في أن يمرض في بيت السيدة عائشة وانتقل إلى هناك وهو يتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن أبى طالب رضي الله عنهما .

وحين اشتد به الوجع طلب الرسول ﷺ أن يصبوا عليه سبع قرب من الماء ، وحين تم ذلك شعر الرسول ﷺ ببعض التحسن ومن ثم عصب رأسه وخرج إلى المسجد ليوصى المؤمنين ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ثم قال: عبد خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده فبكى الصديق أبو بكر رضي الله عنه إذ فهم ما يقصد النبي ﷺ وناداه قائلا : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فقال ﷺ : على رسلك يا أبا بكر ، أيها الناس إن أمن الناس عليّ في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام ، لا تبقين في مسجد خوخه إلا خوخه أبى بكر — الخوخة : هي الباب الصغير بين البيتين - وأنا شهيد عليكم واني والله ما أخاف أن تشركوا من بعدى ، ولكن أخشى عليكم والدنيا أن تنافسوا فيها .

ثم قال ﷺ : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، وقال : لا تتخذوا قبري وثنا يعبد ، ثم عرض نفسه للقصاص

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥ .

قائلا : من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه .

ثم صلى الظهر ورجع إلى المنبر مرة أخرى وعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها فقال رجل : إن لي عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ثم أوصى بالأنصار قائلا :أوصيكم بالأنصار ، فإنهم كرشي وعيبتي ، وقد قضوا الذي عليهم وبقى الذي لهم ، فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ، وفى رواية انه قال: أن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام ، فمن ولى منكم أمرا يضر فيه احدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم [1] .

اشتد المرض بسيدنا رسول الله ﷺ ، وبالرغم من ذلك كان يصلى بالناس ، إلا انه قبيل وفاته بأربعة أيام أي يوم الخميس صلى الرسول الكريم بالمسلمين صلاة المغرب ، وفى صلاة العشاء لم يستطع الخروج للصلاة بالمسلمين ومن ثم أمر ان يصلى بالناس أبو بكر ، يقول ابن إسحاق : إن عائشة قالت لما استعزّ - أي اشتد مرضه - برسول الله ﷺ قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت : قلت يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن ، قال : مروه فليصل بالناس قالت : فعدت لمثل قولي فقال : إنكم صواحب يوسف فمروه فليصل بالناس . قالت : فوالله ما أقول ذلك إلا انى كنت احب أن يصرف ذلك عن ابى بكر ، وعرفت ان الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبدا ، وان الناس سيتشاءمون في كل حدث كان فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر [2] .

---

(١) الرحيق ص ٥٢٤ .

(٢) مختصر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٥ .

واستجاب الصديق أبو بكر وصلى بالناس سبعة عشرة صلاة حتى وفاة النبي ﷺ وفى يوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ بعض النشاط فاستند إلى رجلين وخرج إلى المصلى وأبو بكر يصلى بالناس صلاة الظهر فلما أحس أبو بكر بوجود النبي ﷺ أراد التأخر عن مكان الإمامة فأشار له النبي ﷺ بالاستمرار في وقوفه وجلس ﷺ يصلى بجواره فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله ﷺ وهو جالس ، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر .

وقبيل وفاته ﷺ بيوم واحد - أي يوم الأحد - اعتق النبي ﷺ غلمانه وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده ، ووهب للمسلمين أسلحته ، وفى الليل استعارت السيدة عائشة الزيت للمصباح من جارتها [1] .

وفى يوم الوفاة وهو يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هجرية ، وبينما الناس في المسجد يصلون خلف أبى بكر رضي الله عنه إذا بالستر المضروب على حجرة عائشة قد كشف وبرز رسول الله ﷺ من ورائه فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك فنكص أبو بكر على عقبه ظنا إن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج للصلاة ، وهمّ المسلمون إن يفتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم ﷺ بيده إن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر .

وانصرف الناس من صلاتهم وهم يحسبون إن النبي ﷺ قد نشط من مرضه ، ولكنها تبين إنها كانت نظرة وداع منه ﷺ فقد عاد ﷺ فاضطجع إلى حجر عائشة رضي الله عنها وأسندت رأسه إلى صدرها وجعلت تغشاه سكرات الموت ، قالت السيدة عائشة : وكان بين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: لا اله إلا الله إن

---

(١) الرحيق ص ٥٢٦ .

للموت سكرات وكانت السيدة فاطمة رضي الله عنها إذا رأت منه ذلك قالت : واكرب أباه فيقول لها عليه الصلاة والسلام :ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفى في بيتي وبين سحري ونحري وان الله جمع بين ريقي وريقه عند موته ، دخل عبد الرحمن بن أبى بكر وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرايته ينظر إليه وعرفت انه يحب السواك فقلت: أخذه لك ؟ فأشار ﷺ برأسه : نعم فتناولته فاشتد عليه وقلت : ألينه لك فأشار برأسه: أن نعم فلينته فاستن به كأحسن ما كان مستنا .

وما إن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه وشخص بصره نحو السقف وتحركت شفتاه فأصغت إليه عائشة وهو يقول : مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم أغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق الأعلى ، اللهم الرفيق الأعلى ، كرر الكلمة الأخيرة ثلاثا ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى ، إنا الله وإنا إليه راجعون [1].

وانتشر خبر وفاته ﷺ في الناس ، واقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه في السنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة وتوجه إلى رسول الله ﷺ وهو مغشي بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم اكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي انت وأمي ، لا يجمع الله عليك موتتين ، اما الموتة التي كتبت عليك فقد متها .

ثم خرج الصديق أبو بكر وعمر يكلّم الناس أن رسول الله ﷺ لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران وانه ﷺ لا يموت حتى

---

(١) الرحيق ص ٥٢٨ .

يفني الله المنافقين فأقبل أبو بكر يقول له : على رسلك يا عمر ، انصت ولكنه استمر في كلامه مهتاجا ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس فأقبلوا إليه وتركوا عمر فقال أبو بكر : أما بعد أيها الناس من كان منكم يعبد محمدا ﷺ فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [1]، فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما سمعها بشر من الناس إلا واخذ يتلوها : قال عمر ﷺ : والله ما هو إلا إن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها وعلمت أن النبي ﷺ قد مات .

قام العباس وعلي والفضل وقثم ابني العباس وشقران مولى رسول الله ﷺ وأسامه بن زيد وأوس بن خولى بتجهيز رسول الله ﷺ للدفن ، فكان العباس والفضل وقثم يقلبونه وأسامه وشقران يصبان الماء وعلي يغسله وأوس أسنده على صدره ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة ، أدرجوه فيها إدراجا .

واختلفوا في موضع دفنه فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض "، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفى عليه فحفر تحته وجعل القبر لحدا ، ودخل الناس الحجرة إرسالا عشرة فعشرة يصلون على رسول الله ﷺ ولا يؤمهم أحد ، وصلى عليه أولا أهل عشيرته ثم المهاجرين ثم الأنصار ، وصليت عليه النساء بعد الرجال ثم صلى عليه الصبيان .

---

(1) عن آل عمران آية ١٤٤.

هكذا صعدت روحه الشريفة ﷺ إلى بارئها بعد رحلة كفاح وصبر بعد ثلاثة وعشرين عاما يؤدي عن الله ما أمره به من أحكام ومبادئ وتشريعات ، دون كلل أو ملالة ، بل صبر على الاضطهاد والأذى والسخرية والتهكم والاستهزاء بل ومحاولة قتله ، وهو ﷺ في كل هذا سائر في طريق الدعوة لا يكترث للشدائد والمصائب التي حلت به وبمن آمن معه ، حريص كل الحرص على إنقاذ الناس من ضلالاتهم وشركهم وتبصيرهم بحقيقة العبودية وأنها لله وحده ، وأن الخضوع والتسليم لله وحده لا شريك له .

لقد كان من اليسير على الله عز وجل أن يجعل مرتبة رسول الله ﷺ فوق مستوى الموت وآلامه ، لكن الحكمة الإلهية شاءت أن يكون قضاء الله تعالى في تجرع هذا الكأس بشدتها وآلامها عاما لكل واحد مهما كانت درجة قربه من الله جل جلاله حتى يعيش الناس في معنى التوحيد وحقيقته ، وحتى يدركوا جيدا أن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا فليس لأحد أن يتمطى ليعلو بنفسه عن مستوى العبودية بعد أن عاش رسول الله ﷺ خاضعا لحكمها ونزل به قضاؤها وليس لأحد أن لا يكثر من ذكر الموت وسكراته بعد أن عانى حبيب الله تعالى من برحائها وغشيته آلامها وهذا المعنى هو ما أوضحه كلام الله جل جلاله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [2] .

---

(١) سورة الزمر آية ٣٠ .

(٢) سورة الأنبياء ١٣٤ص ١٣٥ .

## أمهات المؤمنين :

تزوج الرسول الكريم ﷺ بأكثر من اربع زوجات وهذا تشريع خاص بالنبي ﷺ ، إذ أن المسموح به لأي مسلم الا يتزوج بأكثر من اربع زوجات كما جاءت بذلك أحكام القرآن والسنة المطهرة ، وهذا التشريع الخاص بالنبي ﷺ ، كانت له أهدافه ودوافعه وكلها تصب في خدمة الإسلام وتثبيت أركانه ونشر أحكامه ، فلقد عقد النبي ﷺ على ثلاث عشر زوجة ، مات ﷺ عن تسع زوجات واثنتان توفيتا في حياته واثنتان لم يدخل بهما .

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدا إن زواجه بهذا العدد الكبير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاما من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرا على زوجة واحدة كبيرة السن . خديجة ثم سودة ، عرف أن هذا الزواج لم يكن لرغبة جنسية في النساء، بل كانت هناك أغراض أخرى اجل وأعظم من الغرض الذي يحققه عامة الزواج .

فمن ذلك توطيد علاقته بشخصيات إسلامية أسلمت وجاهدت بكل ما تملك في سبيل تثبيت أركان الإسلام ودعمه والدفاع عنه ، ومن ثم كان زواجه بعائشة بنت الصديق أبو بكر وهو من هو في بلائه وسبقه إلى الإسلام وجهاده طوال سيرة الدعوة ، وكذلك زواجه بحفصة بنت الفاروق عمر ، ثم تزويج ابنته فاطمة بابن عمه علي بن أبى طالب وابنتيه رقية ثم أم كلثوم بالصحابي الجليل عثمان بن عفان ، كل هذا يشير إلى رغبة النبي ﷺ الشديدة في توثيق الصلات بالرجال الأربعة الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام في كل الظروف والمواقع [1] .

---

(١) الرحيق ص ٥٣٥ .

كذلك مصاهرته ﷺ لبعض الشخصيات والزواج من بعض البطون والقبائل بهدف التقريب من هذه البطون ، فمن عادات العرب إنهم كانوا يعتبرون مناواة ومحاربة الأصهار سبة وعارا على أنفسهم ، فأراد الرسول ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام ، ويطفئ حدة بغضائها ، فأم سلمة من بنى مخزوم - حي خالد ابن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد الذي وقفه بمعركة أحد ، بل اسلم بعد فترة وجيزة طائعا راغبا ، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبه ، كما إننا لا نرى من قبيلتي بنى المصطلق وبنى النضير اي استفزاز وعداء بعد زواجه بأم المؤمنين جويريه وأم المؤمنين صفية ، بل كانت أم المؤمنين جويرية أعظم النساء بركة على قومها فقد أطلق الصحابة اسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس [1].

وهناك زواج واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل ، وهى قاعدة التبني وكان للمتبنى عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء ، وكانت تلك القاعدة قد تأصلت في القلوب بحيث إن محوها لم يكن سهلا ، ولكن قاعدة التبني هذه كانت تخالف مخالفة شديدة للأسس والمبادئ التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات ، وقد ترتب على هذه القاعدة الجاهلية كثير من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام ليمحوها وينقى المجتمع الإسلامي منها .

وحتى تنمحي قاعدة التبني هذه ، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ

---

(١) الرحيق ص ٥٣٥ .

أن ينكح ابنة عمه زينب بنت جحش ، وكانت زوجة لزيد بن حارثة ، ولم يكن بينهما توافق حتى هم زيد بطلاقها خلال حصار الأحزاب للمدينة ، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود وما يثيرونه من الوساوس والخرافات ضده ، وما يكون له من الأثر السيئ في نفوس ضعفاء المسلمين ، فأحب إلا يطلق زيد حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذه الامتحان .

ولا شك أن هذا التردد من جانب رسول الله ﷺ لا يطابق مطابقة تامة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ فعاتبه الله على ذلك وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [1] ، وأخيرا طلقها زيد وتزوجها رسول الله ﷺ بعد أن انقضت عدتها ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أوجب عليه هذا النكاح ولم يترك له خيارا ولا مجالا حتى تولى الله سبحانه وتعالى ذلك النكاح بنفسه يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ ، وذلك ليهدم قاعدة التبني فعلا كما هدمها قولا : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [3] .

---

(١) الأحزاب آية ٣٧ .

(٢) الأحزاب آية ٥ .

(٣) الرحيق ص ٣٧ ، الأحزاب آية ٤٠ .

وقد أثار المنافقون دعايات كاذبة وأقاويل باطله حول هذا الزواج حرصا منهم على الطعن في الإسلام ونبي الإسلام ، لاسيما إن أم المؤمنين زينب بنت جحش كانت خامسة أزواجه ﷺ ، ولم يكن المسلمون يعرفون حلّ الزواج بأكثر من أربع زوجات ، وان زيدا كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ ، والزواج بزوجه الابن كان من أغلظ الفواحش وقد انزل الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى وعلم الصحابة إن التبني ليس له وجود في الإسلام [1] .

كما أن هناك أهدافا سامية أخرى لهذا التعدد فالرسول ﷺ كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئا من آداب الثقافة والحضارة والتقدم بلوازم المدنية والمساهمة في بناء المجتمع واستقراره .

والمبادئ التي كانت أساسا لبناء المجتمع لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء فلم يكن من المستطاع تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ مع أن مسيس الحاجة لتثقيفهن لم يكن أهون واقل من الرجال ، بل كان اشد وأقوى ، وأذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يحقق هذه الأغراض فيزكيهن ويربيهن ويعلمهن الشرائع والأحكام ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن لتربية البدويات والحضريات على السواء ، العجائز منهن والشابات فيكفين مؤنة التبليغ في النساء .

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله ﷺ المنزلية للناس وما يقوله وما يفعله ويقرره في بيوته وممن برزت في هذا الميدان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي طالت حياتها وروت عن سيدنا

---

(1) المرجع السابق ص ٥٣٧ .

رسول الله ﷺ الكثير من أقواله وأفعاله .

مما سبق تبين لنا حقيقة مقاصده من الزواج وهى مقاصد الإسلام في تأليف قلوب الناس واجتذابهم إلى الإسلام ورعاية الأرامل وتربية اليتامى وحفظ تعاليم الدين وخاصة ما يتعلق منها بشئون المرأة [١].

ولنا أن نتعرف على سيرة زوجاته ﷺ :

## (١) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها :

هي أول من تزوج ﷺ ، زوَّجة إياها أبوها خويلد بن أسد ويقال أخوها عمرو بن خويلد وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك احد بني أسيد بن عمرو بن تميم حليف بنى عبد الدار فولدت له هند بن أبي هالة وزينب بنت بن أبى هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية تزوجها صيفي بن أبي رفاعة [٢] .

ولأم المؤمنين خديجة مكانة خاصة بين أمهات المؤمنين فهي أول من آمنت من النساء وكانت نعم الزوج لرسول الله ﷺ يقول ابن القيم هي التي آزرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها وأرسل الله إليها السلام مع جبريل وهذه خاصة لا تعرف لامرأة سواها وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين [٣].

لقد حزن الرسول ﷺ على فقدها حزنا شديدا وحتى سمي عام وفاتها بعام الحزن، وظلت صورتها وجهادها وصبرها وبلاؤها ماثلا في قلب

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ج ٢ ص ٦٥١ .

(٢) مختصر ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ١٠٥ .

رسول الله ﷺ ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : " استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فارتاع لذلك فقال : اللهم هالة !! فغرت فقلت :ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر أبدلك الله خيرا منها فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا : والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء " زاد الطبراني في روايته قالت : قلت يا رسول الله اعف عني ولا تسمعني اذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت " [1].

## (٢) أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس رضي الله عنها :

لقد تزوج بها النبي ﷺ بعد وفاة أم المؤمنين خديجة ، وكانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله ، هاجرت مع زوجها السكران بن عمر ابن عم أبيها إلى الحبشة فلما عادت من هجرتها توفي زوجها وقيل أنه توفي هناك بالحبشة ، وبذلك صارت بدون عائل يحميها وخاصة أن قومها كانوا أشداء ومن أشد أعداء الإسلام ومن ثم أراد الرسول ﷺ أن يحميها ويصونها فتزوجها في رمضان من السنة العاشرة من النبوة .

وعندما طعنت في السن خشيت أن يطلقها رسول الله ﷺ مع حرصها الشديد على أن تحشر مع أزواجه في الآخرة لذا وهبت ليلتها لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وقد عاشت في بيت النبوة ، وحين أحست بأن الرسول ﷺ يرغب في تسريحها قالت له في ضراعة : أمسكني ووالله ما بي على الأزواج من حرص ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا

---

(١) نساء النبي ص ٥٤ .

لك، وقد طيّب الرسول ﷺ خاطرها وظلت زوجة لرسول الله ﷺ حتى فارقت الحياة في آخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

### (٣) أم المؤمنين عائشة بنت الصديق أبى بكر رضي الله عنها :

هي عائشة الصديقة بنت الصديق المبرأة من فوق سبع سماوات ، حبيبة رسول الله ﷺ ، والدها هو أبو بكر الصديق الذي كانت له مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأحرجها من مسيرة الدعوة ، فلعل الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين ويوثق عرى المحبة بينه وبين أخيه في الإسلام وذلك برباط المصاهرة فتزوج من ابنته السيدة عائشة .

وأمها أم رومان بنت عامر الكنانية ، ولدت بمكة في الإسلام بعد أربع سنين أو خمس من المبعث وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هي وأختها أسماء وفى صحيح البخاري من حديثها في الهجرة قالت : لم أعقل أبوي إلا يدينان بهذا الدين .

وأما عن زواجها من سيدنا رسول الله ﷺ فقد نبأه الله بزواجه منها ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : أريتك في المنام مرتين ، أرى أنك في سرقة - شقة بيضاء - من حرير ويقول : هذه امرأتك فاكشف عنها فإذا هي أنت فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه [١] .

تزوجها النبي ﷺ وعمرها ست سنين وبنى بها في شوال من السنة الأولى من الهجرة وعمرها تسع سنين ولم يتزوج بكرا غيرها ، وما نزل عليه الوحي في لحاف امرأة غيرها ، وكانت رضي الله عنها أحب الخلق إليه ، ونزل عذرها من السماء ، واتفقت الأمة على كفر قاذفها وهى أفقه

---

(١) نساء النبي ص ٨١ .

نسائه وأعلمهن ، بل أفقه نساء الأمة وأعلمهن على الإطلاق ، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها ويستفتونها [1] .

قال مسروق بن الأجدع الهمداني التابعي الفقيه الإمام القدوة :لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها في الفرائض ، وكان إذا حدث عنها قال : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله .

وقال الإمام الزهري : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل ، وقال هشام بن عروة عن أبيه رضي الله عنه : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما [2].

لقد امتازت السيدة عائشة رضي الله عنها بحدة الذكاء وصفاء الذهن وجودة القريحة فحفظت من تعاليم الرسول ﷺ الكثير فنفعت وانتفعت حتى بلغ عدد أحاديثها التي روتها عشرة ومائتين وألفى حديث ولو قورنت رواياتها بعدد روايات أمهات المؤمنين الأخريات لاتضحت الحكمة من هذا الزواج فان أكثرهن حديثا بعد عائشة هي أم سلمة بنت أبى أمية ولم يتجاوز عدد أحاديثها ثمانية وسبعين وثلاثمائة وستان بين الرقمين [3].

## (٤) أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها :

لقد سبق لأم المؤمنين حفصة الزواج إذ كانت زوجة للصحابي خنيس بن حذافة السهمي البدري ، وكان قد هاجر إلى الحبشة ثم المدينة ، واشترك في معركة أحد وفيها أصيب بكثير من الجراحات

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٦٦ .

(٢) نساء النبي ص ١٢٦ .

(٣) السيرة النبوية الصحيحة ج ٢ ص ٦٤٩ .

أسفرت عن وفاته ، وبذلك صارت زوجته حفصة أرملة وحزنت عليه حزنا شديدا ، وقد أراد النبي ﷺ أن يوثق علاقته الحميمة بالصحابي الجليل عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحا ونصرا للمسلمين ، يضاف إلى ذلك ترمّل حفصة واستشهاد زوجها ومن ثم طلبها من أبيها عمر بن الخطاب .

لقد عرض عمر ابنته حفصة على أخويه في الإسلام أبي بكر وعثمان لعل الاقتران بأحدهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها ، فاعتذر عثمان بحجة عدم حاجته في النساء وسكت الصديق أبو بكر الصديق لذا غضب عمر في نفسه من أبي بكر لصمته ولم تمر أيام قليلة حتى خطبها رسول الله ﷺ والتقى عمر بأبي بكر الذي أوضح له سبب سكوته وهو أن رسول الله ﷺ كان قد ذكرها فكره أبو بكر الصديق إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال : لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها ، وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بما تعانيه حفصة من تأيم فأراد أن يواسيها ويواسي أباها لمكانته عنده .

وروى أن الرسول ﷺ طلقها ثم راجعها ودخل عليها عمر وهى تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعل الرسول ﷺ طلقك ؟! إن النبي طلقك وراجعك من أجلي والله لئن طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبدا ، وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه أمين وحي السماء جبريل عليه السلام فقال له : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة [1] .

### (٥) أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية رضي الله عنها :

يقول ابن هشام : " وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بن الحارث ابن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف ، وكانت تسمى أم

---

(١) السير النبوية ص ٧٠٠ .

المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم ، زوجه إياها قبيصة بن عمرو الهالي وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها [1] .

لقد تزوجها النبي ﷺ في رمضان من السنة الرابعة من الهجرة ، وكانت مشهورة بالصلاح والرأفة بالمساكين وقد تزوجها الرسول ﷺ تكريما لها ولزوجها الشهيد في معركة بدر ، فعن الزهري قال : تزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة وهي أم المساكين سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين وهي من بني عامرين صعصعة ، وفى الاستيعاب كان يقال أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم[2] .

عاشت أم المؤمنين زينب في بيت النبوة ثمانية أشهر وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول على راس تسعة وثلاثين شهرا من الهجرة [3] ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة رضي الله عنها .

### (٦) أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أمية المخزومية رضي الله عنها :

هاجرت أم مسلمة مع زوجها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة واشترك زوجها في معركة أحد وفيها أصيب عدة إصابات أثرت عليه فمات شهيدا ، وخلف وراءه أربعة من الأبناء هم : زينب وسلمة وعمر ودرة ، وقد حرص النبي ﷺ على تكريمها وصيانتها فلم يكن لها أهل بالمدينة ومن ثم عرض عليها الزواج يقول ابن سعد : " وروى عنها إنها قالت : أتاني أبو سلمه يوما من عند

---

(١) مختصر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) نساء النبي ص ١٥٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٥ .

الرسول ﷺ قولا فسررت به قال : لا تصيب احدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها إلا فعل ذلك به ، قالت أم سلمة :فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منه ثم رجعت إلى نفسي قلت : من أين لي خيرا من أبى سلمة ، فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله ﷺ واذنت له فخطبني إلى نفسه فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ما بي ألا تكون بك لرغبة في ولكني امرأة فيّ غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى مني سينا يعذبني الله به وأنا امرأة دخلت في السن وأنا ذات عيال فقال النبي ﷺ : أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل منك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت : فقد أبدلني بأبي سلمة خيرا منه رسول الله ﷺ [1]، وقبل زواجها من رسول الله ﷺ ، عرض عليها الصحابيان أبو بكر وعمر الزواج فرفضتهما، وتزوجها الرسول ﷺ في شوال من السنة الرابعة من الهجرة، وتوفيت في العام التاسع والخمسين من الهجرة وقيل بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء ودفنت بالبقيع .

### (٧) أم المؤمنين جويرية بنت الحارث :

هي جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية ، وكانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ، فكاتبها على نفسها فأتت رسول الله ﷺ وطلبت منه أن يعينها في قضاء ما عليها لعتق رقبتها فقال لها النبي ﷺ :هل لك في خير من

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٨٩ .

ذلك ؟ قالت وما هو : قال أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ؟ فقالت : نعم فتزوجها ، فلما علم الناس بذلك اعتقوا ما بأيديهم من السبي وهم مئة أهل بيت إكراما لأصهار الرسول ﷺ فيهم فما كانت امراة أعظم على قومها بركة منها وكان عتقها صداقها .

وقدم والدها الحارث بن أبى ضرار إلى المدينة وطلب من الرسول ﷺ أن يخلى سبيلها فأذن له أن يخيرها فاختارت البقاء مع رسول الله ﷺ ، ثم أسلم الحارث وقومه ، وولاه الرسول ﷺ على صدقات قومه .

وكانت حكمة الرسول ﷺ من وراء هذا الزواج هو إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات فسوى بينهن وبين الحرائر ، وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالكهن ، فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومها ﷺ ورحمة عزيز قوم ذل [1].

وتوفيت أم المؤمنين جويرية سنة ست وخمسين من الهجرة بالمدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان وصلى عليها أمير المدينة مروان بن الحكم .

## (٨) أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها :

هي زينب بنت جحش بن رناب الأسدية وهى ابنة عمته أميمة تزوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد أعتقه وتبناه ، وفى زواجها من زيد نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

(١) السيرة النبوية ص ٧٠٤ .

عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [1].

ويتلخص موضوع زيد أنه جاء يشكو زوجته فجعل النبي ﷺ يقول له: اتق الله وامسك عليك زوجك ، وما ورد في تفسير هذه الآية إن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو أخبار الله إياه إنها ستصير زوجته ، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امراة ابنه وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني ، وليس ابلغ في إبطاله من تزوج امراة الذي يدعى ابنا ووقوع ذلك أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم [2] .

لقد تم زواجها من النبي ﷺ في هلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري ، وكانت أم المؤمنين زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: زوجكن ، أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات ، وقالت عنها أم المؤمنين عائشة : لم أر امراة قط خيرا في الدين من زينب واتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة واشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل .

توفيت رضي الله عنها سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين من الهجرة وقالت قبيل وفاتها: إني قد أعددت كفني وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إلى يكفن فتصدقوا بأحدهما، إن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي -إزاري- فافعلوا، وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ودفنت بالبقيع بالمدينة .

---

(١) الأحزاب آية ٣٧ .

(٢) السيرة النبوية ص ٧٠٥ .

### (٩) أم المؤمنين أم حبيبه رملة بنت أبى سفيان بن حرب رضي الله عنها :

أم حبيبة واسمها رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب القرشية الأموية ، وقيل اسمها هند ، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة وهناك تنصر زوجها ففارقته وحين علم سيدنا رسول الله ﷺ بما حدث وثبات أم حبيبه على الإسلام ارسل عمرو بن امية الضمرى إلى النجاشي ليخطبها له فزوجها إياه بصفته وكيلا عن النبي ﷺ ، فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص ابن عم أبيها ، وأرسلها النجاشي مع شرحبيل بن حسنة وأصدقها النجاشي اربعمائة دينار فضلا عن جهازها .

لقد تم هذا الزواج سنة سبع من الهجرة وكان لها بضع وثلاثون سنة ، وأما عن حكمة وزاج النبي ﷺ منها فلا تخفى على احد ، فثباتها على دينها حين ارتد زوجها بالحبشة ، وقيادة والدها أبي سفيان لجيوش قريش في معاركها كلها عدا بدر ، لأنه كان صاحب القافلة التي فرت من الوقوع في أيدي المسلمين ، ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها ، وقطع الطريق أمام شماتة الأعداء وفيه تخفيف من غلواء عداوة قومها بنى أمية للإسلام ونبي الإسلام ، وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك كما هو واضح في موقفه من أبي سفيان يوم فتح مكة ، وعند تقسيم غنائم حنين وغيرها من المواقف إلى أن هداهم الله إلى الإسلام ، فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه [1].

توفيت رضي الله عنها على أرجح الآراء سنة أربع وأربعين من الهجرة ودفنت

---

(١) السيرة النبوة ص ٧٠٦ .

بالبقيع بالمدينة المنورة .

## (١٠) أم المؤمنين صفية بنت حيي بن اخطب رضي الله عنها :

هي صفية بنت حيي بن اخطب سيد بنى النضير من ولد هارون بن عمران آخى موسى فهي ابنة نبي وزوجة نبي وكانت من أجمل نساء العالمين وحين فتح المسلمون حصون خيبر وقعت أسيرة في نصيب دحية فاشتراها الرسول ﷺ واعتقها وتزوجها ، وقد آمنت وحسن إيمانها وتشير بعض الروايات إن الرسول ﷺ حين أراد الدخول بها وهم على بعد ستة أميال من خيبر أبت عليه ، وعندما وصل إلى الصهباء على بعد بريد من خيبر وافقت فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى ، فقالت خشيت عليك من قرب اليهود فزادها ذلك عنده محبة (١) .

قال لها الرسول ﷺ :لم يزل أبوك من اشد يهود لي عداوة حتى قتله الله ، فقالت : يا رسول الله ، إن الله يقول في كتابه العزيز ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾فقال لها رسول الله ﷺ : اختاري فان اخترت الإسلام امسكتك لنفسي، وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك، فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك ومالي في اليهودية إرب وما لي فيها والد ولا أخ ، وخيّرتني بين الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إلى من العتق وان ارجع إلى قومي فامسكها رسول الله ﷺ لنفسه (٢) .

وقد بلغ أم المؤمنين صفية إن السيدة عائشة والسيدة حفصة يعيرانها بأنها يهودية فلما حدثت النبي ﷺ بذلك وهى تبكى قال : ألا قلت

---

(١) طبقات ابن سعد د ٨ ص ١٢٣ .

(٢) السيرة النبوية ص ٧٠٨ .

وكيف تكونان خيرا منى وزوجي محمد وأبى هارون وعمى موسى[1] .

توفيت رضي الله عنها حوالي سنة خمسين ودفنت بالبقيع .

### (١١) أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها :

هي ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن هزم بن رويبه بن عبد الله بن هلال بن عامر ابن صعصعة ، اشتهرت بالتقوى والصلاح حتى إن أم المؤمنين عائشة قالت عنها : إنها كانت من اتقانا لله وأوصلنا للرحم[2] وقال عنها رسول الله ﷺ وعن أخواتها :الأخوات مؤمنات ميمونة وأم الفضل وأسماء .

لقد أشار العباس عم النبي ﷺ عليه بالزواج منها قائلا له: يا رسول الله تأيمت ميمونة بنت الحارث هل لك في أن تتزوجها ؟ واستجاب النبي ﷺ لذلك نظرا لتقوها وورعها وخاصة إنها فقدت زوجها ومن يعدولها .

توفيت رضي الله عنها سنة إحدى وخمسين من الهجرة على الأرجح وصلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس .

هؤلاء أحدى عشرة زوجة توفى منهن اثنتان في حياته ﷺ هما: أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة ، وتوفى ﷺ عن التسع الباقيات .

وأما عن سراريه فقد تسرى باثنتين إحداهما: مارية القبطية فأنجبت له إبراهيم الذي توفي صغيرا والسرية الثانية هي ريحانه بنت زيد النضرية أو القرظيه كانت من سبايا بني قريظة فاصطفاها لنفسه وقيل بل هي من أزواجه ﷺ اعتقها فتزوجها والرأي الأول أرجح .

---

(١) الاستيعاب ج ٤ ، ١٨٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٣٩ .

## بعض شمائل الرسول ﷺ :

لا يستطيع باحث أيا كانت بلاغته وعلمه الإحاطة بشمائله ﷺ فهي أكثر من أن تحصى فقد جمع ﷺ كل خصال الخير ، وكان المثل الأعلى الذي تحتذي به البشرية ، خلقه الله سبحانه وتعالى على احسن صورة واكمل وجه ﷺ ، أما خُلقه فكان قرآنا يسير على الأرض أو حين سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه قالت: كان خلقه القرآن ، فهو قران يتحرك على الأرض بين البشر مطبقا لكل ما ورد فيه من الصفات الحميدة والأخلاق الطيبة فما من خصلة حميدة ، ذكرت في القرآن أو الحديث إلا وكان الرسول ﷺ يتصف بها وهو أول العاملين بها ، وهى خصال يصعب حصرها أو جمعها .

لقد حاول كثير من علماء السلف تأليف كتب في ذلك منهم : الترمذي في كتابه الشمائل والبيهقي في كتابه الأدب وأبو الشيخ في كتابة أخلاق النبي ﷺ وآدابه ، وابن المقري في كتابه النور الساطع والفيروز أبادي في كتابه سفر السعادة والمستغفري في كتابه شمائل النبي ﷺ وجعفر بن حيان الاصبهاني في كتابه أخلاق النبي ﷺ والبغوي في كتابه الأنوار في شمائل النبي ﷺ وغيرهم من عشرات المؤلفين في القديم والحديث ، حاولوا حصر شمائله وصفاته ومحاسنه فعجزوا عن ذلك .

ولا غرو في هذا فهي صفات أكثر من ان تحصى واجل من ان توصف ، وتكفيه شهادة الله سبحانه وتعالى حين قال عنه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ (القلم:٤) وقوله ﷺ "أدبني ربي فأحسن تأديبي" ، وسنحاول في الأسطر القليلة الإشارة إلى بعض محاسنه من حيث التكوين البشرى وبعض لمحات من أخلاقه الكريمة ﷺ .

**صفاته الخِلقية :**

تكلم بعض من رأى النبي ﷺ ووصفه من حيث التكوين البشري ومن هؤلاء أم معبد الخزاعية الذي نزل الرسول ﷺ عليها ضيفا في طريق هجرته إلي المدينة ومعه الصديق أبو بكر ، وبرغم من الوقت القصير الذي قضاه الرسول ﷺ في خيمتها إلا أنها استطاعت ان تصف ملامحه الجسدية لزوجها أبو معبد الذي كان غائبا فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة أبلج الوجه { مشرق الوجه } لم تعبه ثجلة { ضخامة البطن } ولم تزْر به صقلة { أي لم يقصر والصقل والصقلة : دقة ونحول } وسيم نسيم { أي جسيم } في عينيه دعج { الدعج : شدة سواد العين } وفى اشفاره وطف { طول شعر أشفار العين } وفى صوته صهل {وفى رواية صحل : أي ليس بحاد الصوت } وفى عنقه سطع { أي طول } وفى لحيته الكثاثة ، أزج اقرن { الكثاثة : دقة نبات شعر اللحية مع استدارة فيها ، أزج اقرن : الزج دقة شعر الحاجبين مع طولها والقرن : أن يتصل ما بينهما بالشعر } وإن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب ، حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر { الفصل هو الكلام البين والنزر الكلام القليل ، والهذر : الكلام الكثير } كأن منطقة خرزات نظم يتحدرن { يتساقطن من فمه } ربعة { أي الوسط وإلى الطول أقرب } لا بأس من طول ، ولا تضخمه عين من قصر ، غصن بين غصنين فهو انضر الثلاثة منظرا واحسنهن قدرا له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا ، وإن أمر تبادروا لأمره محشود { أي محفوف به } محفور {أي مخدوم} لا عابس ولا مفند { وفى رواية معتد : أي ظالم } [1] .

---

(١) طبقات ابن سعد ج١ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وفى حديث ابن سعد عن شمائله ﷺ عن الحسن بن على ؓ قال : سألت خالي هند بن أبى هالة - هو اخو فاطمة من أمها خديجة قتل مع الإمام على يوم الجمل - وكان وصافا عن حلية النبي ﷺ وأنا اشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال :

" كان رسول الله ﷺ فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع واقصر من المشذب ، عظيم الهامة ، رجْل الشعر إن فرقت عقيقته { العقيقة : شعر رأسه الذي على ناحيته أي جعلها فرقتين } فرقها وإلا فلا يجاوز شعره شحمة اذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون واسع الجبين ، ازج { أي مقوس الحاجبين } الحواجب ، سوابغ في غير قِرن {أي كاملات ، والقرن : اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما} بينهما عرق يدّره الغضب { أي بصيره الغضب ممتلئا دما } اقنى العرنين { أي طويل الأنف مع دقة أرنبته والعرنين :ما صلب من الأنف وقيل الأنف كله } له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله اشم ، كث اللحية ، سهل الخدين ، ضليع الفم {أي واسع الفم وهذا عند العرب يدل على الفصاحة} مفلج الأسنان {الفلج انفراج ما بين الأسنان} دقيق المسربة { أي دقيق الشعر الذي من الصدر إلى السرة } كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة { الجيد : العنق والدمية " الصورة المتخذة من عاج أو غيره } معتدل الخلق ، بادن متماسك {بادن : المعتدل السمعة ومتماسك { أي قوى ومعتدل الجسم } سواء البطن والصدر ، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين خضم الكراديس { الكراديس : رؤوس الأعضاء كالكتف والركبة والمرفق } أنور المتجرد { أي نير العضو المتجرد عن الشعر أو عن الثوب } موصول ما بين اللبة { اللبة : موضع الثغرة فوق الصدر} والسرة بشعر يجرى كالخط ، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، اشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ،

طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف او قال شائل الاطراف { السائل : الطويل والشائل كذلك الطويل } خمصان الأخمصين { الأخمص من القدم هو الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند التوطء والخمصان المبالغ منه والمراد إن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافى عن الأرض } مسيح القدمين {أي أملس القدم ليس فيها تكسر او تشقق} ينبو عنها الماء ، إذا زال قلعا ، يخطو تكفيا { أي مائلا قليلا إلى الإمام } ويمشى هونا ذريع المشية { واسع الخطا } إذا مشى كأنما ينحط من صبب { الصبب : الأرض المنحدرة } وإذا التفت التفت جميعا ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه { أي يمشون أمامه ويمشى هو خلفهم } ويبدر { أي يسبق } من لقى بالسلام [1].

وقال البراء عنه ﷺ : كان أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا ، وقال أبو هريرة : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ فان الشمس تجرى في وجهه ، وما رأيت أحدا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ ، كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث ، وقال كعب بن مالك : كان ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكان إذا غضب احمر وجهه ، حتى كأنما فقيء في وجنتيه حب الرمان ، وقال جابر بن سمرة : كان لا يضحك ألا تبسما وكنت إذا نظرت إليه قلت : أكحل العينين وليس بأكحل ، وقال انس : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي ﷺ ، ولا شممت ريحا قط أو عرقا قط وفى رواية :ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح أو عرق رسول الله ﷺ ، وقال جابر: لم يسلك طريقا فيتبعه احد

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٢٢ .

إلا عرف انه قد سلكه من طيب عرقه أو قال من ريح عرقه وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة يشبه جسده [1].

**صفاته الخُلقية :**

هذه بعض صفات الرسول ﷺ الجسدية ، وهناك صفاته الخُلقية الطيبة والتي لا تقع تحت حصر ، فقد جمع ﷺ كل صفات الخير والجمال ، وكان المثال الأعظم للبشرية تقتدي به ﷺ وتنهل من معين أخلاقه الذي لا ينضب وسنحاول هنا الإشارة إلى بعضها :

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) وهى أعظم شهادة يحصل عليها بشر منذ آدم إلى أن تقوم الساعة فهي شهادة رب العالمين ، يقول عنه أنس رضي الله عنه : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي اف قط ، وما قال لي لشيء صنعته : لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته ، وما كان فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ويقول : خياركم أحسنكم أخلاقا ، وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها : إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه [2] ونهى عن اللعن فقال : لا ينبغي لصدّيق أن يكون لعّانا ، وقال : لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة ، وعندما قيل له : ادع على المشركين ، قال : إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة .

وكان الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدّبه الله بها ، وكل حليم قد عرفت منه زلة ، وحفظت عنه هفوة ، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا وعلى إسراف الجاهل

---

(١) الرحيق ص ٥٤٢ .

(٢) فتح الباري ج ٢٢ ص ٢٦٢ .

إلا حلما ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن أثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ، وكان ابعد الناس غضبا وأسرعهم رضا [1] .

لقد كان ﷺ رحمة للبشرية مصداقا لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [2] ، وقد شملت رحمته كل المحيطين به رجالا أو نساء أو أطفال ، وحتى في أداء فريضة الصلاة فإنه أوصى أصحابه بالتخفيف لأن فيهم السقيم والضعيف والكبير وذا الحاجة .

وامتدت رحمته إلى الأرقاء والخدم يقول عنهم رسول الله ﷺ : هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون والبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم ، وقوله ﷺ : من أساء معاملة من هم تحت يديه فلن يدخل الجنة ، وقال ﷺ : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه .

وامتدت رحمته ﷺ إلى الأيتام فقال ﷺ : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ، وحث ﷺ على إعالة الأرامل والمساكين فقال ﷺ : الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم ويقوم الليل ، كما أوصى بالرفق بالحيوانات يقول ﷺ : ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان صدقة .

كذلك امتدت رحمته إلى الإناث وأوصى بهن في كثير من الأحاديث منها ما روي عن أنس إن النبي ﷺ قال : ومن عال جاريتين

---

(١) الرحيق ص ٥٥٤ .

(٢) الأنبياء آية ١٠٧ .

حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه ، وقال ﷺ : افضل الصدقة أعالتك ابنتك الفقيرة التي رفضها زوجها وليس لها غيرك .

ويدخل في التوصية بالنساء التوصية بالزوجة فقد قال ﷺ : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي ، وما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم ، وقوله ﷺ : استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع ، وإن اعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته، وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء خيرا، وقوله ﷺ : إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله .

ومن صفاته الخلقية ﷺ الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل ، كان ﷺ أشجع الناس ، حضر المواقف الصعبة ، وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة ، وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح ، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرّة وحفظت عنه جولة سواه ، قال الإمام علي ﷺ : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، وقال أنس ﷺ : فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس صوب الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبى طلحه عرى في عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا لم تراعوا [1]، ويقول الإمام علي ﷺ عن سيدنا رسول الله ﷺ يوم بدر : ولما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ ولم يكن أحد اقرب إلى المشركين منه، ومن تصفح سيرته ﷺ في الغزوات الكبيرة كبدر واحد وحنين وغيرها يجد مثالا للشجاعة والإقدام .

ومن صفاته ﷺ تواضعه الشديد لمن حوله ، وكان أبعد الناس عن الكبر ، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك ويعظمونهم ، وكان

(١) الرحيق ص ٥٤٥ .

يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه كأحدهم قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : " كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته ويحلب شاته ويخدم نفسه " ، وقال ﷺ في الثناء على التواضع وذم الاستكبار : " ألا اخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبره ، ألا اخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر " ، وقوله ﷺ : " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " .

ومن صفاته ﷺ صفة الجود والكرم، كان يعطى من لا يخاف فقرا ، قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس ، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة وقال جابر: ما سئل شيئا قط فقال : لا .

ومن صفاته ﷺ العدل والأمانة فكان اعدل الناس وأعفهم وأصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة ، واعترف له بذلك الأعداء والأصحاب ، وكان يسمى قبل نبوته الأمين ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام ، روى الترمذي عن الإمام على أن أبا جهل قال له : أنا لا نكذّبك ولكن نكذّب بما جئت به وفى ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنعام:٣٣) ، وفى الحوار الذي دار بين هرقل عظيم الروم وأبى سفيان حين سأله قائلا له : هل تتهمونه بالكذب قبل إن يقول ما قال ؟ قال : لا [1] .

ومن صفاته ﷺ الحياء يقول أبو سعيد الخدري عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئا يكرهه

---

(1) المرجع السابق ص ٥٤٦ ، سورة الأنعام آية ٣٣ .

عرفناه في وجهه [1] وقوله ﷺ في الحياء : أن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، وكان ﷺ لا يثبت نظره في وجه أحد ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، لا يشافه احدا بما يكره حياء وكرم نفس ، وكان ﷺ لا يسمّي رجلا بلغ عنه شيء يكرهه بل يقول : ما بال أقوام يصنعون كذا ، وقال عنه خارجة بن زيد : كان رسول الله ﷺ أوقر الناس في مجلسه ، وكان كثير السكوت ، لم يتكلم في غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل ، كان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به .

ومن صفاته ﷺ الزهد والتقلل من متاع الدنيا فكان يأتي الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار ، وكان فراشه من ادم حشوه ليف ، يقول أنس رضي الله عنه : إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف - أي عندما ينزل عليه ضيف - وفي رواية عن مالك ابن دينار قال : " ما شبع رسول الله ﷺ من خبر قط ولا لحم إلا على ضفف ، وأيدت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها : ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ ، وفى رواية أخرى عنها : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي طاويا هو وأهله لا يجدون عشاء وكان اكثر خبزهم خبز الشعير [2].

---

(١) فتح الباري ج ٢٢ ص ٣١٤ .

(٢) السيرة النبوية ص ٧٧١٣ .

هذه قطرات قليلة من بحر ضخم هو أخلاقه ﷺ ، الذي كان وسيظل معينا لا ينضب للإنسان الكامل ، ونموذجا عظيما ومشرفا للإنسانية فهو سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء والقائد الملهم والرسول الداعية والرحمة المهداة : والأب الحاني على الأيتام والضعفاء وهو الصادق المؤتمن على أموال الناس وأعراضهم، والزاهد في متاع الدنيا وزخرفها ، والحريص كل الحرص على انتشال البشرية من ضعفها ووثنيتها وشركها وحامل لواء الحمد يوم القيامة والمشفع بإذن الله يوم القيامة في أتباعه وصدق الله العظيم إذ يقول في حقه ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

صلى الله عليه وسلم في الأولين وصلى الله عليه وسلم في الآخرين وصلى الله عليه وسلم في الملأ الأعلى إلى يوم الدين .

---

(١) التوبة آية ١٢٨ .

# بعض المصادر والمراجع


١- القرآن الكريم
٢- البخاري : محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦ هجرية) : صحيح البخاري
٣- البلاذري احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ق ) : انساب الإشراف ت محمد حميد الله.
٤- البيهقي : احمد بن الحسين بن على ( ت ٤٥٨ق) : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة .
٥- ابن الجو زى : أبو الفرج عبد الرحمن : تاريخ عمر بن الخطاب
٦- د . حسن على حسن : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية الشريفة ـ مكتبة الشباب سنة ١٩٨٨ .
٧- ابن حنبل : أبو عبد الله احمد بن محمد ( ت ٢٤١ هجرية ) المسند المكتب الإسلامي بيروت سنة ١٩٧٨.
٨- د . حسين مؤنس : دراسات في السيرة ط ٢ الزهراء ١٩٨٥
٩- ابن سعد : محمد بن سعيد بن منيع (٢٣٠هجرية) طبقات ابن سعد
١٠- صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم مكة المكرمة ١٩٩١
١١- د . صالح احمد العلى : الدولة في عهد الرسول مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٨ .
١٢- د . عائشة عبد الرحمن : نساء النبي الطبعة الخامسة
١٣- د . عبد الرحمن احمد سالم : المسلمون والروم في عصر النبوة دار الفكر العربى١٩٩٧ .
١٤- د . على البتانوني : المنافقون ومجتمع المدينة على عهد رسول الله ﷺ ندوة التاريخ الإسلامي عدد ١٢ .
١٥- ابن القيم : شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٥١ق) زاد المعاد المطبعة

المصرية .
١٦- الكلاعي : ابن الربيع سليمان بن موسى : الاكتفاء في مغازي الرسول ﷺ ت ١٩٦٨ د . مصطفى عبد الواحد .
١٧- مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ) صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقي .
١٨- د . محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية دار الفكر بيروت ١٩٩٨.
١٩- د . محمود محمد زيادة : تاريخ العالم الإسلامي : العرب قبل الإسلام ١٩٧٠.
٢٠- د . محمد محمد زيتون : السراج المنير من سيرة سيد المرسلين ١٩٩٤ .
٢١- الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٤هجرية): سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٠ .
٢٢- د . أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة مركز بحوث السيرة والسنة - جامعة قطر ١٩٩١ .
٢٣- أ . د . محمد بن فارس الجميل : النبي ﷺ ويهود المدينة– مركز الملك فيصل بالرياض ط ٢١ سنة ٢٠٠٢ .
٢٤- منير محمد الغضبان : المنهج الحركي للسيرة النبوية ط ه ١٩٨٩ .
٢٥- د . مهدى رزق الله احمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية مطبعة مركز الملك فيصل ١٩٩٢ .
٢٦- الندوي : السيد أبو الحسن على الحسنى : السيرة النبوية بيروت ١٩٨١ .
٢٧- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك: مختصر سيرة ابن هشام المجلس الأعلى.
٢٨- الواقدي : محمد بن عمر بن واقد (٢٠٧ هجرية) المغازي ت د. مارسون جونس - طهران .
٢٩- ياقوت الحموي : معجم البلدان دار صادر بيروت .
٣٠- د . يسرى احمد زيدان : قراءة في السيرة النبوية المطهرة دار الثقافة ١٩٩٧.
٣١- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت .

# فهرس

**الفصل الأول**


**شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ........ ٩**

الموقع ........ ١٠
النواحي الطبيعية ........ ١٠
مناخ بلاد العرب ........ ١٢
الحياة الاقتصادية ........ ١٣
الأوضاع السياسية ........ ١٥
لفظة عرب ........ ١٥
أصل العرب ........ ١٦
أقسام العرب ........ ١٩
أولا: العرب البائدة ........ ٢٠
ثانيا: العرب العاربة ........ ٢٢
ثالثا: العرب المستعربة ........ ٣١
المجتمع المكي قبل الإسلام ........ ٣٤
الحياة الدينية ........ ٣٨
أهم الأصنام التي عبدتها العرب ........ ٣٩


**الفصل الثاني**


**المولد والنشأة ........ ٤٥**

قصي ........ ٤٦
هاشم ........ ٤٨
عبد المطلب ........ ٤٩
عبد الله والد النبي ﷺ ........ ٥٥
مولده ﷺ ........ ٥٧
رضاعته ........ ٦٠
حادثة شق الصدر ........ ٦٤
وفاة أمه ........ ٦٦
كفالة جده ........ ٦٧
كفالة عمه أبي طالب ........ ٦٨
رحلة النبي ﷺ إلى الشام ........ ٧٠
الرسول ﷺ في شبابه ........ ٧٦
حرب الفجار ........ ٧٩
زواجه ﷺ من خديجة ........ ٨٠
بناء الكعبة ........ ٨٥

الفصل الثالث


**البعثة الشريفة والمعارضة المكية ........ ٨٩**

إرهاصات الدعوة ........ ٨٩
الوحي ........ ٩٥
أولا : مرحلة الدعوة السرية ........ ١٠٥
ثانيا : مرحلة إعلان الدعوة واضطهاد المشركين للمسلمين ........ ١١٤
بعض صور من اضطهاد النبي ﷺ ........ ١١٩
١- اتهامه بالجنون والسحر ........ ١٢٤
٢- الاستهزاء بالنبي وغمزه ولمزه ........ ١٢٥
٣- التشكيك في القرآن وإثارة الشبهات حوله ........ ١٢٩
٤- مفاوضات ومساومات من قريش ........ ١٣٥
٥- إيذاء قريش الرسول ومحاولة قتله ........ ١٤٢
بعض صور من اضطهاد صحابة رسول الله ﷺ ........ ١٤٦
إسلام حمزة بن عبد المطلب ........ ١٥٦
هجرة المسلمين إلى الحبشة ........ ١٥٧
إسلام عمر بن الخطاب ........ ١٦٦
المقاطعة ........ ١٧٣
عـام الحـزن ........ ١٨٠
ثالثا : مرحلة الدعوة خارج مكة وانتشارها حتى هجرته ﷺ ........ ١٨٤
الرحلة إلى الطائف ........ ١٨٥
الإسراء والمعراج ........ ١٩١
عرض الإسلام على القبائل ........ ١٩٦
بيعة العقبة الأولى ........ ٢٠٠
بيعة العقبة الثانية ........ ٢٠٣
أوائل المهاجرين إلى المدينة ........ ٢٠٨
المؤامرة الكبرى ........ ٢١١
الهجـرة ........ ٢١٥
الوصول إلى قباء ........ ٢٢٢


الفصل الرابع


**الرسول في المدينة ........ ٢٢٥**

يثرب قبل الإسلام ........ ٢٢٦
(أ) بناء المسجد ........ ٢٣٣
(ب) المواخاة ........ ٢٣٦
(ج) الصحيفة ........ ٢٣٩
الجهـاد ........ ٢٤٣
أولا : موقف الرسول من مشركي العرب ........ ٢٤٧
محاولة القرشيين الثأر من الرسول ........ ٢٦٩
النشاط العسكري بين بدر وأحد ........ ٢٧١
غزوة أحد ........ ٢٧٢
غزوة حمراء الأسد ........ ٢٨٥
غدر الأعراب بالمسلمين ........ ٢٨٧
غزوة الخندق (الأحزاب) ........ ٢٩٠

صلح الحديبية ........ ٣٠٢
النشاط العسكري قبيل الفتح الأعظم ........ ٣٠٧
عمرة القضاء ........ ٣٠٨
فتح مكة ........ ٣١٠
غزوة حنين ........ ٣١٧
ثانيا: موقف الرسول من اليهود والمنافقين ........ ٣٢٥
يهود بني قينقاع ........ ٣٢٩
المنافقون وغزوة أحد ........ ٣٣٢
يهود بنى النضير ........ ٣٣٣
يهود بنى قريظة ........ ٣٣٥
المنافقون وغزوة بنى المصطلق ........ ٣٣٨
الموقف الأول ........ ٣٣٩
الموقف الثاني ........ ٣٣٩
يهود خيبر ........ ٣٤٤
المنافقون وغزوة تبوك ........ ٣٤٨
ثالثا : موقف الرسول من الملوك والأمراء وخاصة الروم ........ ٣٥٢
سرية مؤتة ........ ٣٥٧
غزوة تبوك ........ ٣٦٠

**الفصل الخامس**

**وفاة الرسول وبعض شمائله ........ ٣٦٥**
حجة الوداع ........ ٣٦٨
سرية أسامة بن زيد ........ ٣٧٢
المرض والوفاة ........ ٣٧٣
أمهات المؤمنين ........ ٣٨٠
(١) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﵂ ........ ٣٨٤
(٢) أم المؤمنين سودة بنت زمعة بن قيس ﵂ ........ ٣٨٥
(٣) أم المؤمنين عائشة بنت الصديق أبى بكر ﵄ ........ ٣٨٦
(٤) أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵄ ........ ٣٨٧
(٥) أم المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية ﵂ ........ ٣٨٨
(٦) أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أمية المخزومية ﵂ ........ ٣٨٩
(٧) أم المؤمنين جويرية بنت الحارث ﵂ ........ ٣٩٠
(٨) أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ ........ ٣٩١
(٩) أم المؤمنين أم حبيبه رملة بنت أبى سفيان بن حرب ﵂ ........ ٣٩٣
(١٠) أم المؤمنين صفية بنت حيي بن اخطب ﵂ ........ ٣٩٤
(١١) أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ﵂ ........ ٣٩٥
بعض شمائل الرسول ﷺ ........ ٣٩٦
صفاته الخِلقية ........ ٣٩٧
صفاته الخُلقية ........ ٤٠٠
**بعض المصادر والمراجع ........ ٤٠٧**

## كتب للمؤلف

| | |
|---|---|
| ١ ــ الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ( عصر المرابطين و الموحدين ) | مكتبة الخانجي |
| ٢ ــ تاريخ المغرب العربي ( عصر الولاة ) | مكتبة الشباب |
| ٣ ــ دراسات في تاريخ المغرب العربي | مكتبة الشباب |
| ٤ ــ الحياة الدينية في المغرب في القرن الثالث الهجري | مكتبة الشباب |
| ٥ ــ أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير المالكي دراسة وعرض | مكتبة الشباب |
| ٦ ــ دراسات في التاريخ العباسي أربعة أجزاء | مكتبة الشباب |
| ٧ ــ تاريخ الحضارة العربية الإسلامية | مكتبة الفلاح ــ الكويت |
| ٨ ــ السيرة النبوية وقيام الدولة الإسلامية | سلسلة التعريف بالتاريخ الإسلامي |
| ٩ ــ كتاب المغرب الإسلامي " موسوعة التاريخ الإسلامي " | دار سفير للإعلام والنشر |
| ١٠ــ الصحابة و التابعون دورهم السياسي و الحضاري ببلاد المغرب | المجلس الأعلي للشئون الإسلامية |
| ١١ــ الزبير بن العوام حوارى رسول الله | المجلس الأعلي للشئون الإسلامية |
| ١٢ــ أهل الذمة في المجتمع الإسلامي | المجلس الأعلي للشئون الإسلامية |
| ١٣ــ الجيش في المغرب والأندلس " موسوعة الإدارة العربية " | جامعة الدول العربية |